

كلية الدراسات العربية

صورة هارون الرشيد
فى الأدب العباسى

دكتور / حسن إسماعيل عبدالغنى

صورة هارون الرشيد
فى الأدب العباسى

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م

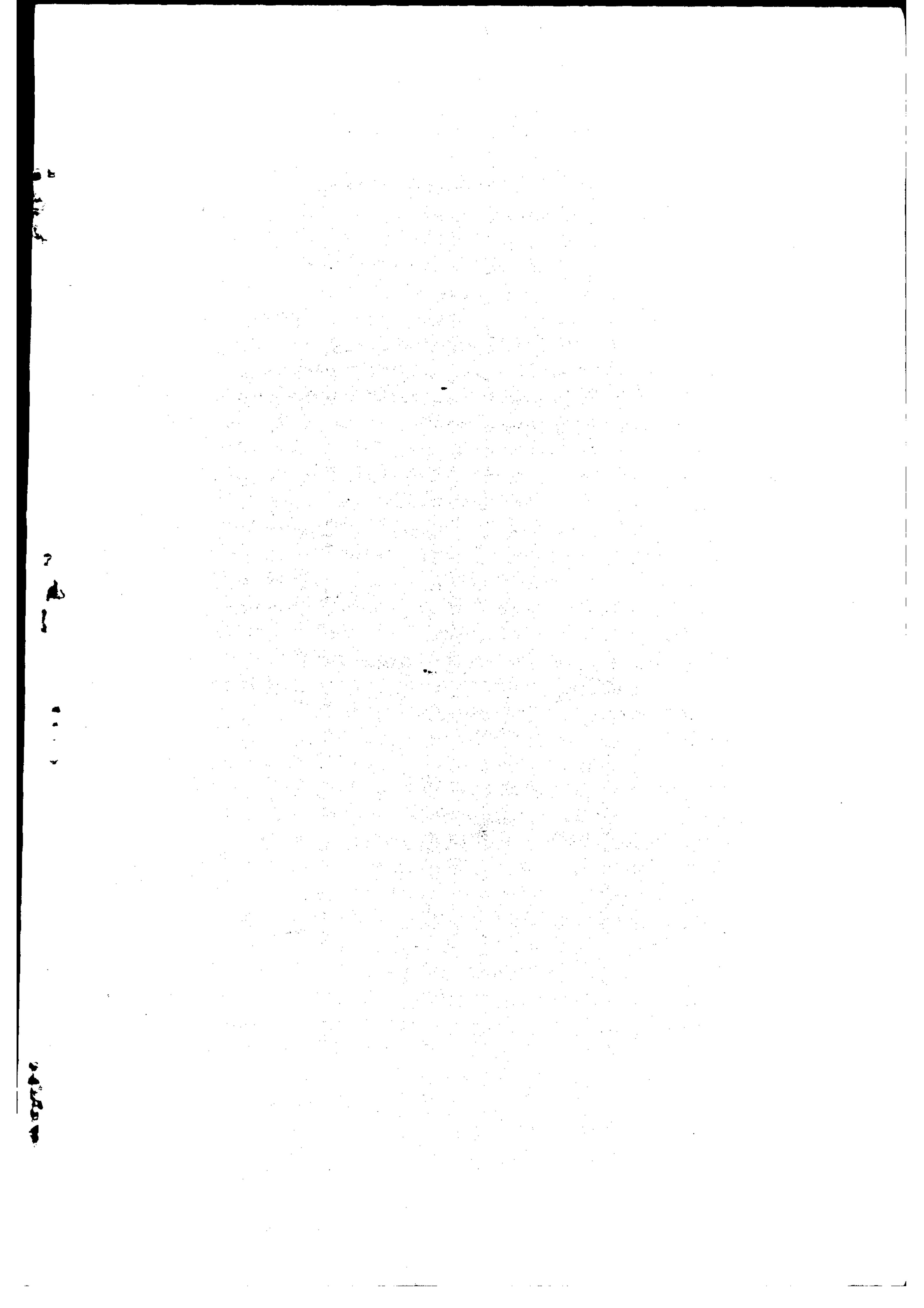
الإهداء

إلى ذكرى أمي

التي تمنت أن تعيش هذه اللحظة

أهدي هذا العمل

صورة معبرة عن بعض آمالها ..



مقدمة

يعد هارون الرشيد من أبرز الشخصيات تعبيراً عن العصر العباسى ، فلم ينل خليفة ما ناله من الذيوع عبر الأدبين الفصيح والشعبى ، وعلى الرغم من أنه لم يكن متفردا عنهم بصورة ملحوظة ، فإن عوالم أخرى متضافرة قد ساعدته على الوصول إلى هذه الدرجة ، لعل من أشهرها ألف ليلة وليلة ، الأمر الذى أخرجه من الفردية إلى النمطية، فإذا كان " فاوست " يرمز له بالباحث عن المعرفة ، " ودون جوان " بالباحث عن الحب ، و " الحلاج " بالباحث عن الحق ، فإنى أعتقد أن الرشيد قد تحول فى أذهان الناس إلى نمط يرمز إليه بالثراء العريض والرفعة .

ولم تجد شخصية من الإطراء مالاقته شخصية الرشيد ، حيث كان الثناء والمدح قاسماً مشتركاً فى معظم ما كتب عنه ، لذا فقد امتلأت صورته بالمبالغات، التى لا تصل إلى الحدود المعقولة بسبب شهرته تلك ، ولعل كل هذه الأمور مجتمعة كانت من العوامل المغرية على إقدامى على بحث هذه الشخصية من منظور أدبى ، محاولاً تنقية الصورة التى التصقت بأذهان العامة عن الرشيد ، والوصول بها إلى ما يقترب من عالمه الفعلى بحيادية مطلقة .

على أننى لم أكن أول من أقدم على دراسة الرشيد ، فقد سبقتنى دراسات أخر ، جاءت جميعها فى النصف الأول من القرن العشرين ، معنونة باسم هارون الرشيد ، دون تفصيل لِكُنْهِ المراد من الاسم ، هل يعنى دراسة الشخص نفسه أم عصره ؟

ومن أقدم هذه الدراسات كتاب الأستاذ عمر أبو النصر ، وهو معرَّب عن الفرنسية ، حيث كتب جزءاً منه المسيو أويسو وأضاف إليه المعرب من جهده الباقى ، على أننا لا نستطيع أن نقول : إنَّ الكتاب كان

صورة صادقة لتصوير شخصية الرشيد ، نظراً لأن المؤلف قد أعطى لنفسه الحرية فى أن يرسم الشخصية كما يتمناها ، وليس كما تطابق عالم الواقع ، الأمر الذى يستشف منه القارئ أنه يحدثه عن هارون الفرنجة وليس خامس خلفاء بنى العباس ، ولقد أشار إلى ذلك الأستاذ عمر أبو النصر ، عندما نقد صنيع المسيو أوديسو فى مقدمة الكتاب قائلا " فقد ذهب حضرته فيه إلى كثير من الاستنباط والاختراع فى معالجة الوقائع التاريخية ، وبحث المنادر الأدبية ، وقد أطلق لخياله العنان فى بعضها بحيث خرجت بعض فصوله ، وهى تختلف اختلافاً عظيماً عن المصادر العربية وأقوال الرواة ، وهو أمر قد اعترف به حضرته ، وأشار إليه فى مقدمته ، ويظهر أنه اعتمد فى مؤلفه على تاريخ المسعودى ، فقد وجدناه يحشر فى كتابه أكثر أخباره ورواياته ، ولو أنه قصها فى مواطنها ، وتركها تسير سبيلها فى ما وضعت له وأنشئت لأجله لكان الأمر هيناً ، ولكنه راح ينقل الخبر يقال فى مكان من الزمن لغاية معينة ولحدث معروف ، إلى مكان آخر لا يتسق معه وليس له علاقة به ، رغبة منه كما يقول فى أن يطرد له مجال التأليف والاختراع " (١) .

وتأتى الكتب الثلاثة التالية التى تحدثت عن الرشيد لتخاطب رجل الشارع ، فكلها عبارة عن كتب صدرت من مجلات دورية ، أولها للأستاذ محمد صبيح ، الذى صب جل اهتمامه على السرد التاريخى لما سبق عصر الرشيد حتى آلت إليه أمور البلاد ، بيد أنه فى مؤلَفِهِ قد عرض لعصر الرشيد ، دون أن يمس الرشيد من قريب أو بعيد، وهذا ما نوه عنه فى مقدمته عندما قال : " وأرجو أن يكون مفهوماً أنى أؤرِّخ عصر الرشيد"(٢)

---

(١) هارون الرشيد ص ١٣ ، أ . عمر أبو النصر .

(٢) هارون الرشيد المقدمة ص د . أ. محمد صبيح .

وعلى الرغم من تصريحه السابق فقد تجاهل الكثير عن معالم هذا العصر من شعراء وفقهاء وعلماء إلى غير ذلك .

ثم يأتي الكتاب الثانى للمستشرق عبد الله فلبى ، تعريب الأستاذ عبد الفتاح السرنجاوى ، ولقد وضع المؤلف فى ذهنه بأن كتابه هذا سيوضع للعامة ، لذا لم يشغل نفسه بأمر جمع مادته من أمهات كتب التاريخ والأدب ، وإنما اكتفى بالمصادر الثانوية حتى تتناسب وطبيعة المتلقى من هنا قال فى مقدمته عن كتابه هذا " وليس كتابى هذا بحثاً مستفيضاً ، ولست أنا الذى يدعى فيه ذلك ، ولكن الحق أنه عجالة قصدت بإخراجها أن أرسم لعامة القراء صورة العصر الذى عاش فيه هارون وأمثل الخليفة بطلاً لذلك العصر ومحوراً للحياة فيه، وأثبت من الحقائق التاريخية ما يكفى لتعريف القارئ بمكان ذلك العصر فى مجرى تطور الإنسانية الذى هو جزء من أجزائه ، ولم يسمح لى الوقت وأنا أعد ذلك الكتاب أن أرجع إلى المصادر الأصلية ، وأن أحتفز بنفسى مناجم التاريخ الحافلة بالأخبار ، تلك المناجم التى تمثلتها كتابات الطبرى وابن الأثير وابن خلدون وغيرهم ، لأن المعارف التى استخرجت من هذه المناجم الذاخرة قد أمكن صياغتها فى قالب جعلها سهلة المآخذ على طلاب التاريخ ، وهذا جعلنى أعتمد الاعتماد كله على المصادر التاريخية" [١] .

وجاء الدكتور أحمد أمين بكتابه الأخير ، وكان فيه أكثر حصافة دون سابقيه ، عندما أراح نفسه من عناء اللوم ، وقال فى مقدمة كتابه ، " وقد عمدت إلى كتابته بأسلوب عصرى سهل ، يناسب جمهور القراء ، فلم

---

(١) هارون الرشيد ١١ - ١٢ ، أ. عبد الفتاح السرنجاوى .

أتعمق فيه تعمقاً يجعله ثقيلاً ، ولا أغرقته بذكر المصادر كما يفعل الجامعيون ومن نحا نحوهم" (١) .

وهكذا ابتعدت الدراسات السابقة عن أكاديمية البحث العلمي ومنهجيته واعتمد أغلبها على الأسلوب القصصي لتتناسب مع طبيعة المتلقي لها ، وهم جمهور القراء ، واعتمادها كان على النص التاريخي ، حيث أضحت مجموعة من الحقائق التاريخية فقط .

وبعد ، فهذه هي أهم البحوث التي دارت حول الموضوع ، لتأتي هذه الدراسة وتتعرض بمنظور آخر لدراسة الرشيد ، ألا وهو صورته كما وردت في عالم الأدب ، ولقد حاولت هذه الدراسة أن تفيد من زلات الآخرين ، من هنا لم أجهد نفسي باستعراض السرد التاريخي لقيام الدولة العباسية حتى زمن الرشيد - كما فعلته الدراسات السابقة دون داع يذكر سوى التطويل فقط - وذلك لأن هذه الأشياء أصبح الرجوع إليها في منابعها الأصلية ميسورا .

ولقد بدأت دراستي بتمهيد ، عرضت فيه التعريف لصاحب هذه الدراسة ، ثم قسمتها بعد ذلك إلى فصول أربعة ، يتعرض كل واحد منها إلى جانب من صورة الرشيد ، على أن تلتقي جميعها في النهاية لتعطي لنا تصوُّراً كاملاً عن صورته في عالم الأدب .

ولقد جاء الفصل الأول منها لدراسة صورة الرشيد من الناحية السياسية وكيف استطاع إدارة شئون بلاده ، وموقفه من خصومه ؛ أولئك

---

(١) هارون الرشيد ص ٦ ، د. أحمد أمين .

الذين حاولوا الاقتطاع من مملكته أو ولاية الأمر دونه، من أمثال الشيعة والبرامكة ، وكيف كان عنيفاً قاسياً فى الدفاع عن حقه ؛ ففتك بالشيعة ونكب البرامكة ، كما وضحت موقفه من الدفاع عن الأمة كرجل حرب وكيف كان للوازع الدينى بجوار موقفه كحاكم سياسى أثره الكبير فى حروبه العسكرية .

ثم جاء الفصل الثانى ليعرض لنا جانباً آخر من صورة الرشيد وهو الجانب الاجتماعى بشقيه : الأول منهما ، أوضحت فيه موقفه من المرأة وكيف كان حبه لها بعيدا عن الشهوة وأن جلّ حبه كان بحثا عن المرأة المثال ، التى كان ينشدها عبر علاقات عدة ؛ ليظفر بجانب من جوانب هذا المثال المعهود ، وتقابل هذه العفة صورة أخرى وردت له ، تحمل معنى المجون والتهتك . على أنها كانت أقل من سابقتها ، ويتضح ذلك من خلال البيليوجرافيا الملحقة بالدراسة .

بينما جاء الشق الثانى منه ليعرض لنا ولعه بالغناء ، ومنادمته للمغنين ، وما أحدثه من تنظير جديد فى هذا الفن ، وكيف استطاع الارتفاع به .

وفى الفصل الثالث تعرضت للجانب الثقافى لصورة الرشيد ، وأظهرت ما كان لديه من موروث شعرى ، وأخضعت شعره لمقاييس النقد كما عرضت لمجالس العلم فى عصره ،سواء التى شارك فيها أو استمع إليها.

ثم جاء الفصل الرابع ليكمل البحث فى جوانب الصورة وذلك من خلال تعرضه للجانب الدينى ، والذى جاء على شقين : قسم جاءت فيه صورة الرشيد مبالغ فيها ، والثانية تقترب من عالم الواقع .

أما الخاتمة فقد عرضت فيها لأهم نتائج الدراسة ، مع تقديم مجموعة من الاقتراحات بصدد قيام دراسات أخرى تكمل هذه الدراسة وذلك من خلال تعرضها بالدرس والتحليل للشخصية بمنظور الأدب الشعبى وتتبع ورودها فى الأدب العالمى .

وبعد ، فلقد اعتمدت هذه الدراسة فى المقام الأول على بيت الشعر حيث كان لبنتها الأولى كمصدر أساسى من مصادر الدراسة والذى ساعدنى على إبراز شخصية الرشيد فى الأدب ، بالإضافة إلى الخبر الأدبى الموجود فى الكتب القريبة الصلة بالرشيد ، كالأغانى والعقد الفريد ، إلى جانب دواوين شعراء عصره .

ولقد حاولت عرض شخصية الرشيد فى الدراسة بطريقة تعتمد على التفصيل وكثرة الاستشهادات ، حتى تظهر جلية واضحة للقارئ، وتكون أقرب للشخصية الحية المجسدة ، ولقد أفادتنى كتب التاريخ ، من حيث إنها أعطتنى الوجه المقابل للصورة الأدبية ، بالإضافة إلى أننى وظفتها فى أن تكون رؤية نقدية لى ، إلى جانب استعانتى بما ورد فيها من موروث أدبى تحويه بين طياتها .

وفى النهاية أتمنى أن يقدم هذا العمل شيئاً ، وإن كان فيه من النقص فيكفينى دفاعاً كلمة العماد الأصبهانى عندما قال " إنى رأيت أنه لا يكتب أحد كتاباً فى يومه إلا قال فى غده ، لو غير هذا لكان أحسن ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر " .

التمهيد

ولد هارون الرشيد بن محمد المهدى بن جعفر المنصور بالرّيّ عندما كان والده أميراً عليها فى سنة ثمان وأربعين ومائة [1] ، على حين ترجع البرامكة يوم ميلاده إلى الأول من المحرم سنة تسع وأربعين ومائة[2] ، وتصفه المصادر بأنه كان " أبيض اللون ، جميل الوجه ، طويلاً سميناً ، وخطه الشيب " [3].

والده هو محمد المهدى ثالث خلفاء بنى العباس ؛ تزوج من الخيزران فأنجبت له الهادى والرشيد ، ويقال إنه " لم تلد امرأة خليفتين غيرها وغير ولادة أم الوليد وسليمان بن عبد الملك بن مروان [4] " وتوفيت فى حياة الرشيد سنة ثلاث وسبعين ومائة ومشى فى جنازتها وصلى عليها[5].

ولقد أنجب الرشيد أولاداً كثراً ، لتعدد زوجاته أشهرهن "زبيدة ، واسمها أمة العزيز ، وتكنى أم الواحد ، وزبيدة لقب لها وهى ابنة جعفر المنصور ، أولدها محمد الأمين ، ثم مراجل فأولدها عبد الله المأمون ، ومماردة أولدها محمد المعتصم ، ونادر ولدت له صالحاً ، وشجا ولدت له خديجة ولبابة ، وسريرة ولدت له محمداً وبربرية ولدت له أبا عيسى ثم القاسم ، وهو المؤتمن ، وسكينة ، وحث ولدت له إسحاق وأبا العباس"[6].

---

(1) تاريخ الطبرى ١٥٤/٨ .

(2) تاريخ الخلفاء ٢٧٣ .

(3) العقد الفريد ٣٤٠/٥ .

(4) تاريخ الخلفاء ٢٨٤ .

(5) تاريخ الطبرى ٢٣٠ .

(6) مآثر الإناقة فى معالم الخلافة ١٩٢/١ .

وبويع الرشيد بولاية العهد بعد أخيه الهادى، سنة تسع وخمسين ومائة [١] ، وأكدها له والده بعد سبع سنوات تالية لبيعته الأولى ، حيث أخذ البيعة من قواده وأطلق عليه اسم الرشيد [٢] .

ولقد أسهم فى إدارة شئون الدولة فى عهد أبيه ، حيث جعل فى يده ولاية المغرب كله وأذربيجان وأرمينية [٣] ، بالإضافة إلى توليه قيادة بعض الحملات العسكرية ، التى اتجهت غازية القسطنطينية وأبلى فيها بلاء حسنا [٤] .

ولقد لفت نظر المهدى حسن إدارته وبسالته فى الحرب ، فأقلع فى أخريات أيامه عن فكرة تولية العهد من بعده للهادى ، لذا أرسل إليه وهو بجرجان ليقطع أمر بيعته ويقدم عليه الرشيد ، إلا أن الهادى رفض الإذعان للأمر فى الوقت الذى وآتت فيه المهدى منيته [٥]

بيد أن الرشيد وقف بجوار أخيه عند توليه أمر المسلمين خلفاً لوالده حيث استطاع وباقتدار يشاركه يحيى بن خالد البرمكى حسم الموقف بعد وفاة المهدى ، وكبح جماح الجند ، واستدعاء الهادى الغائب عن البلاد لاستلام مقاليد الحكم [٦] ، واقياً بذلك البلاد خطر فتنة شديدة ، مثيراً بموقفه هذا إعجاب بعض مستشرقى الغرب من أمثال فلبى [٧] .

---

(١) تاريخ بغداد ١٤/٤٣٠ .

(٢) مآثر الإناقة فى معالم الخلافة ١/١٩٧ .

(٣) تاريخ الطبرى ٨/١٤٨ .

(٤) تاريخ المسلمين ١٠٦ - ١٠٧ .

(٥) تاريخ الطبرى ٨/١٦٨ ، الكامل ٦/٨١ ، تاريخ ابن خلدون ٣/٤٥٣ .

(٦) الكامل ٦/٨٧ - ٨٨ .

(٧) هارون الرشيد لفلبى ١١٤ .

على أن الهادى عقب توليه أمر البلاد ، أراد خلع هارون والبيعة لابنه من بعده ، فأذعن لهذا الأمر قواده ، واجتنب الناس الرشيد خوفاً من الخليفة ، إلا أن يحيى البرمكى بحنكته السياسية أعاد الأمور لنصابها بعد أن أقنع الهادى بأن فكرته لا يخالفها الصواب ، لصغر سن ولى العهد الجديد ، والخوف من أن يتطاول البعض من أهله ليلى هذا الأمر بدلاً من ابنه فيما بعد [١].

وعلى الرغم من اقتناع الهادى بصواب رأى يحيى ، إلا أنه ظل دائم التوجس من هارون خشية أن يلى أمر الخلافة دونه،ولم يهدأ بالاً إلا بعد أن أحضره واعترف له ضمناً بكذب هواجسه ، وذلك عندما قال له الهادى " يا هارون كأنى بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا [٢] ، وتؤمل ما أنت منه بعيد ، ودون ذلك خرط القتاد ، تؤمل الخلافة ! قال : فبرك هارون على ركبتيه وقال : يا موسى ، إنك إن تجبرت وضعت ، وإن تواضعت رفعت ، وإن ظلمت ختلت ، وإنى أرجو أن يفضى إلى الأمر فأنصف من ظلمت . وأصل من قطعت ، وأصير أولادك أعلى من أولادى ، وأزوجهم بناتى ، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدى [٣] " ولقد صدق الرشيد فيما قال .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢٠٧/٨،مروج الذهب ٣٣٢/٣ - ٣٣٣ ،الكامل ٩٦/٦ - ٩٧ ، الفخرى ١٤٦

(٢) قال عمرو الرومى : " سألت الرشيد عن الرؤيا فقال ، قال المهدى : رأيت فى منامى كأنى دفعت إلى موسى قضيبا ، وإلى هارون قضيبا ، فأما قضيب موسى فأورق أعلاه قليلا . وأما قضيب هارون فأورق من أوله إلى آخره " .

(٣) تاريخ الطبرى ٢١٠/٨ - ٢١١ ، المحاسن والمساوئ ٣١٤/١ ، مروج الذهب ٣٣٤/٣ الكامل ٩٦/٦ .

فبعد أن تولى أمر المسلمين زوج ابنته حمدونة من جعفر بن موسى الهادى ، وفاطمة من إسماعيل بن موسى[١] .

على أن الهادى لم يمهله القدر كثيراً ، حيث خشيت الخيزران منه على نفسها وعلى الرشيد إثر محاولته نقض بيعته معه وجعلها لولده ، فدست إليه من جواريها من قضى عليه أثناء مرضه بالجلوس على وجهه[٢] .

وفى الليلة التى مات فيها بمدينة السلام ، بويع هارون الرشيد بالخلافة يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة وهو ابن إحدى وعشرين سنة وشهرين[٣] ، ولقد خطب فى الناس أبو يوسف بن القاسم ناعياً الهادى ، ومبشرا بميلاد دولة جديدة على يد خليفة واعد بمستقبل طيب ، مظهراً محاسن الرشيد قائلاً " إن الله جل وعز استأثر بخليفته موسى الهادى الإمام ، فقبضه إليه ، وولى بعده رشيداً مرضياً أمير المؤمنين رءوفاً بكم رحيماً ، من محسنكم قبولاً ، وعلى مسيئكم بالعفو عطوفاً ، وهو - أمتعه الله بالنعمة وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة ، وتولاه بما تولى به أولياءه وأهل طاعته - يعدكم فى نفسه الرأفة بكم والرحمة لكم . وقسم أعطياتكم فيكم عند استحقاقكم ، ويبذل لكم من الجائزة ما أفاء الله على الخلفاء مما فى بيوت الأموال ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً غير مقاص لكم فيما تستقبلون من أعطياتكم ، وحاملاً باقى ذلك ، للدفع عن حريمكم ، وما لعله يحدث فى النواحى والأقطار من

---

(١) تاريخ الطبرى ٢١٢/٨ .

(٢) نفسه ٢٠٦/٨ .

(٣) مروج الذهب ٣٣٦/٣ .

العصاة المارقين إلى بيوت الأموال ، حتى تعود الأموال إلى كثرتها ، والحال التى كانت عليها ، فاحمدوا الله وجددوا شكراً يوجب لكم المزيد من إحسانه إليكم ، بما جدد لكم من رأى أمير المؤمنين ، وتفضل به عليكم أيده الله بطاعته ، وارغبوا إلى الله له فى البقاء لكم فى إدامة النعماء ، لعلكم ترحمون ، وأعطوا صفقة أيمانكم ، وقوموا إلى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، وأصلح بكم وعلى أيديكم ، وتولاكم ولاية عبادة الصالحين " [(١)].

ولقد استبشر الناس خيراً بتولية الرشيد الحكم ، والذى أسند الوزارة منذ يومه الأول " ليحيى البرمكى وولى خراسان جعفر بن محمد بن الأشعث بن قيس وبذل الأمان للطالبيين ، وأخرج الخمس لبنى هاشم وقسم للذكر ألفاً وللأنثى خمس ماية ، وساوى بين صلبيتهم ومواليهم وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ، وعمر طرسوس وأنزل فيها أبا سليمان الخادم فى جماعة من الموالى " [(٢)].

وإذا كان الناس قد استبشروا خيراً بميلاد عهد جديد على يد الرشيد ، فقد جاءت أبيات الشعراء معبرة عن هذا المعنى نفسه ، حيث قال إبراهيم الموصلى فى ذلك مظهراً سعادته بأمر هذا التنصيب : -

ألم ترأن الشمس كانت سقيمة ... فلما ولى هارون أشرق نورها

بيمن أمين الله هارون ذى الندى ... فهارون واليها ويحيى وزيرها[(٣)]

---

(١) تاريخ الطبرى ٨/٢٣٠ - ٢٣١ .

(٢) البدء والتاريخ ٦/١٠١ .

(٣) تاريخ الطبرى ٨/٢٣٣ ، الأغانى : ٥/٣٨ .

ويصف سلم الخاسر إشراق الدنيا وزيادة نورها على إثر تولية الرشيد الحكم الذى ما لبث أن استقر على يديه وذلك من خلال قوله :

بهارون قر الملك فى مستقره ... وأشرقت الدنيا وأينع نورها

وليس لأيام المكارم غاية ... تتم بها إلا وأنت أميرها(١)

وهكذا بدأ الرشيد بتسلم أمور الخلافة ، وسط شعور بالتفاؤل والغبطة ، يسانده فى ذلك يحيى البرمكى بلباقته وحسن إدارته وخبرته الطويلة بالسياسة ، والخيزران بدهائها وحبها له ، وبحماس الشباب وتطلعاته وقد مكث الرشيد حاكماً للبلاد " ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً ، أولها ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة وآخرها ليلة السبت لثلاث ليال خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة " (٢) وكانت وفاته بطوس وهو ابن خمس وأربعين سنة " (٣) .

---

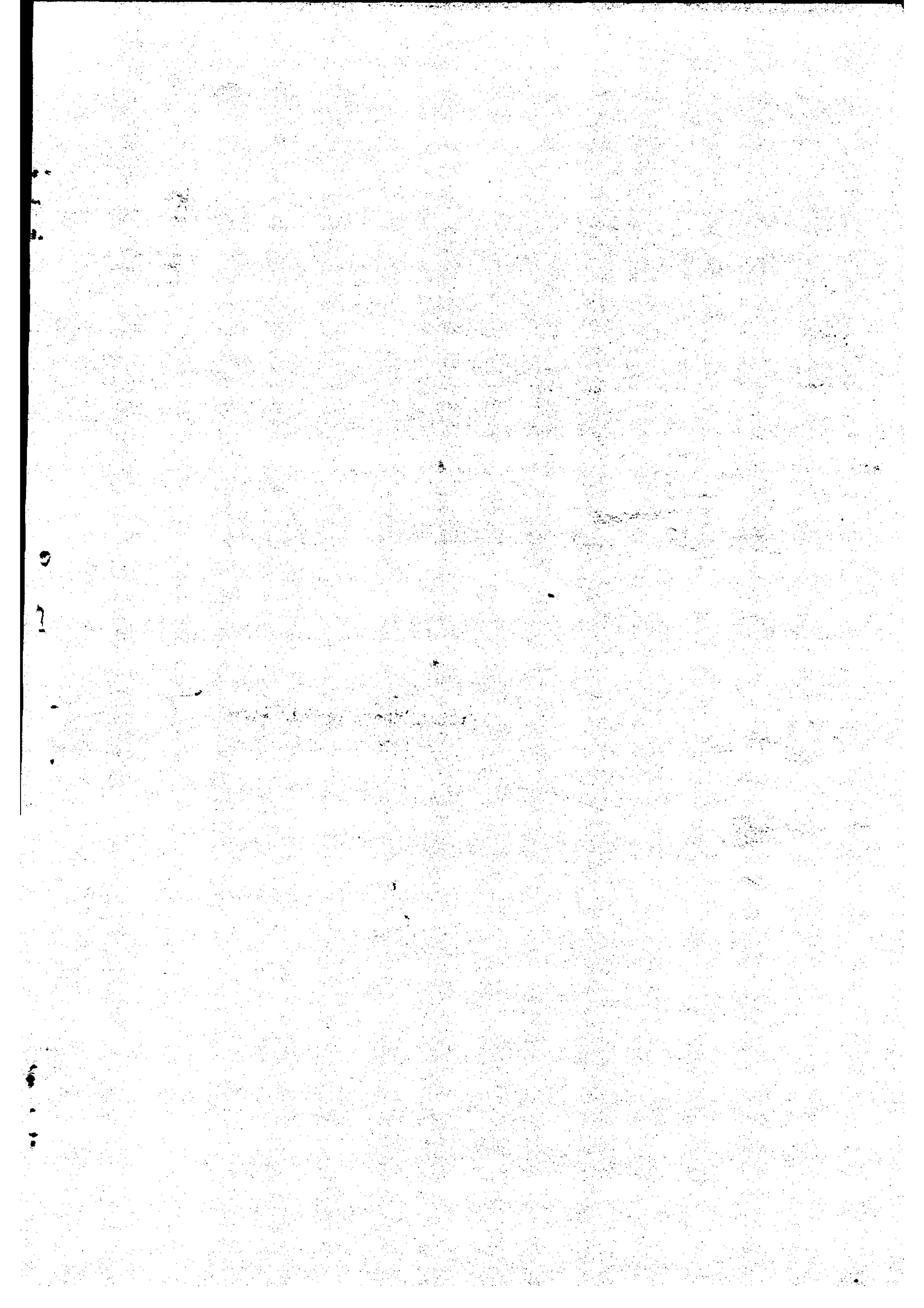
(١) معجم الأدباء ٢٤١/١١ ، شعراء عباسيون ٢٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ٣٤٥/٨ .

(٣) نفسه ٣٤٦/٨ .

الفصل الأول

الجانب السياسي لصورة الرشيد



من الصخر ، وأوحش من الفقر ! فقال : يا أمير المؤمنين ، ما قصدت لغير التوفيق من جهته ، ولكني وليت أقواماً ثقل على أعناقهم الحق ، فتفرغوا فى ميدان التعدى ، ورأوا أن المراغمة بترك العمارة أوقع بإضرار السلطان ، وأنوه بالشنعة ؛ فلا جرم أن موجدة أمير المؤمنين قد أخذت لهم بالحظ الأوفر من مساءتى" [١] .

لعل هذا الرجل قد أعطى لنا عبر حديثه صورة لما كان بفعله الرشيد عند محاسبته أحد عماله وكيف كان الرجل على حالة من الرهبة والفزع تفوق الوصف .

ويصل إلى علمه مرة أخرى عدم رجوع الفضل إلى ما نهى عنه من قبل واستمرار تشاغله بالصيد واللهو عن النظر فى أمور الرعية ، فلم يتردد هذه المرة في أن يعزله ويقلد الأمر من بعده إلى على بن عيسى بن ماهان [٢] إلا أنه استخف بالناس ، وأهان أعيانهم ، فيغضوه ، وأرسلوا بذلك إلى الرشيد [٣] ، فما كان منه إلا أن أرسل إلى هرثمة بن أعين شارحاً له موقف أهل خراسان ، وبغضهم لواليهم ، وأنه قد أمّره عليهم خلفاً له ، جاعلاً الأمر بينهما فى حيز الكتمان ، حتى لا يحتاط على بن عيسى للأمر ، ثم كتب إليه هذا الكتاب ، الذى أعلمه فيه بنبأ عزله والسبب فى ذلك قائلاً " بسم الله الرحمن الرحيم ، يا ابن الزانية رفعت من قدرك ونوهت باسمك ، وأوطأت سادة العرب عقبك وجعلت أبناء ملوك العجم خولك [٤]

---

(١) زهر الآداب ٧١٨/٣ .

(٢) الوزراء والكتاب ٢٢٨ .

(٣) الكامل ٢٠٣/٦ - ٢٠٥ ، تاريخ ابن خلدون ٤٧٠/٣ - ٤٧١ .

(٤) الخول : الحاشية والخدم .

يخلو فيها بربه ، يسأله خلاص نفسه وفكاك رقه " [١] .

ومملكة تتطلب كل هذا الوقت ، يعنى أنها تحتاج إلى مجهود من نوع خاص سواء من حيث المتابعة أو الحنكة السياسية لإدارتها من أجل الحفاظ عليها سليمة لا تتطاول إليها أيدى الطامعين فتقتص منها ، لذا فكر الرشيد أن يشرك معه فى الأمر من يتحمل عنه جزءاً من أعباء هذه المسئولية الكبيرة ، و لم يجد أمامه من خاصته أكثر حرصاً على مصلحته ومملكته من يحيى البرمكى ؛ الذى وقف بجانبه فى أكثر من حادثة ، فأرسل إليه لما تقلد الخلافة قائلاً له " يا أبت أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك ، وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت وافرض من رأيت ، وأسقط من رأيت " [٢] . ويبدو أنه قد استراح بهذه الكلمات قليلاً من تلك المهمة الشاقة التى ألقاها على وزيره المخلص البرمكى ، على أنه برغم تصريحه السابق شارك بصورة فعلية فى إدارة دولته - وبخاصة بعد نكبته للبرامكة - فقد عرف عنه أنه كان " من أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته وأكثرهم بها عناية ، وأحزمهم فيها أمراً " [٣] ، فقد كان ينزل إلى الناس يتعرف مشاكلهم عن كثب محاولاً حلها ، ومن إحدى تجوالاته أنه نزل بالكوفة بعد رجوعه من الحج وأثناء سيره ليلاً فى محالها سمع عند إحدى دورها جارية تنشد شعراً غزلاً وتبكى عند إنشادها ، فأمر بإحضار أربعة من أهل

---

(١) الإمامة والسياسة ١٥٦/٢ .

(٢) الوزراء والكتاب ١٧٧ ، النجوم الزاهرة ٦٥/٢ .

(٣) التاج فى أخلاق الملوك ١٦٩ - ١٧٠ ، المحاسن والمساوئ ٢٣٥/١ .

بلدتها ليسألهم عنها قائلاً " طفت البارحة فى بلدكم تفقداً لأحوالكم ، فسمعت فى دار من دياركم امرأة تنشد شعراً وتبكى . وقد خفت أن تكون معيبة ، وأن نزاع النفس أهون من نزاع الشوق ، وقطع الأوصال أهون من قطع الوصال ، وقد أحببت أن أعرف خبرها منكم . قالوا : يا أمير المؤمنين ، هذه البارعة بنت عوف بن سهم كان أبوها زوَّجها ابن عم لها يقال له سليمان بن همام على عشرة آلاف درهم ، فهلك من قبل أن يجتمعا ، فاكتتب زوجها مع عاملك إلى اليمن لقلة ذات يده وخرج منذ خمس سنين فحزنت عليه ، وطال شوقها إليه ، فهى تنشد الأشعار فيه وتستريح إلى ذكره ، فأمر الرشيد من ساعته أن يكتب إلى عامله باليمن فى حمل سليمان بن همام على البريد .... فما مضيت أيام بعد وصوله حتى دخل عليه إسماعيل بن صبيح ، فقال : يا أمير المؤمنين قد وصل النخعى الذى أمرت بحمله إليك . فأمر بإدخاله عليه ... فقال : أنت سليمان بن همام ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين قال له : اقصص على خبرك ! فقص عليه الخبر فوجده مطابقاً لما خبره به الأربعة نفر ، فأمر له بعشرين ألف درهم ، فأخذ ذلك من يومه ورحل إلى الكوفة فدخل بأهله وكان الرشيد يتعاهده ببره " (١) .

وكثيراً ما استمع إلى رعيته ، محققاً رغباتهم ، إذا أحسَّ منهم صدق القول وطابق ذلك ما يعرفه ، فعندما قابله من استوقفه عند دخوله مكة طالباً منه عزل إسماعيل بن القاسم فقال له " ولم ؟ قال : لأنه يقبل الرشوة ، ويطيل النشوة ويضرب بالعشوة " (٢) فما كان منه إلا أن عزله .

---

(١) أخبار النساء ٢٥٠ - ٢٥٢ .

(٢) زهر الآداب ٤/١٠٦٠ .

ويدخل عليه منصور بن سلمة طالباً منه أن يرفع السيف عن ربيعة من خلال أبياته التى نظمها مادحا إياه قائلاً فيها :

يجرد فينا السيف من بين حارق	وعان بجود كلهم متحامل
وقد علم العدوان والجور والخنا	بأنك عياف لهن مزايل
ولو علموا فينا بأمرك لم يكن	ينال بريّاً بالأذى متناول
لنا منك أرحام وعقد طاعة	وبأساً إذا اصطك القنا والقنابل
وما يحفظ الأنساب مثلك حافظ	ولا يصل الأرحام مثلك واصل
جعلناك ، فامنعنا ، معاذاً ومفزعاً	لنا حين عضتنا الخطوب الجلائل
وأنت إذا عاذت بوجهك عوذ	تطامن خوف واستقرت بلابل

فما كان منه إلا أن رفع السيف عنهم وأحسن إليهم(١) .

ولحرصه الدائم على رفع الظلم عن رعيته وصلاح أمرهم ، كان كثير التفكير فيما يفيدهم ويساعده على السير فيهم بالعدل ، من هنا جاء أمره لأبى يوسف القاضى بوضع كتاب جامع يعمل به فى جباية الخراج العشور والصدقات ، وعندما انتهى منه ، أرسل إليه بهذه الكلمات التى ضمنها مقدمة كتابه ، موضحاً له موقف الأمة بعد أن يعمل بهذا الكتاب قائلاً " وقد كتبت ما أمرت به وشرحته لك وبينته فتفقهه وتدبره ، وردد قراءته حتى تحفظه ، فإنى قد اجتهدت لك في ذلك ، ولم آلك والمسلمين نصحاً ، ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه ، وإلى لأرجو - إن عملت فيه من البيان - أن يوفر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد ، ويصلح لك رعيتك فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم ، ورفع الظلم عنهم

---

(١) الأغانى ٢١/١٢ .

والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم ، وكتبت لك أحاديث حسنة ، فيها ترغيب وتحضيض على ما سألت عنه ، مما تريد العمل به إن شاء الله"[١].

هكذا كان الرشيد في سعي دائم للبحث عن طريقة مثلى تتسم بالعدل في معاملة الناس ، وإلى جانب ذلك فقد كان أيضاً يبغي الصلاح في مناطق أخرى ، فعندما وصل لمسامعه أن بئراً لأهل السواد قد خرب ، أمر بحفره مرة أخرى ، فسجل له أشجع السلمي ذلك العمل شعراً عبر أبياته ، مشيداً ومادحاً صنيعه قائلاً :

أجرى الإمام الرشيد نهراً عاش بعمرانه الموات
جاد عليها بريق فيه وسر مكنونه الفرات
ألقمه درة [٢] لقوحاً يرضع أخلافها النبات [٣]

وكثيرا ما استشعر بأن صلاح المصر من صلاح واليه ، من ثَمَّ بات يبث النصائح لولاته وقضاته من أجل أن ينير أمامهم الطريق ، من خلال خبرته وممارسته لأمور الخلافة ، وغالباً ما استخدم هذا الأسلوب في التعامل مع أي شخص كان يوليه منصباً في مملكته ، فعندما ودع رجلاً تولى بعض أعمال الخراج بالسواد ، قال له موصياً " اعدل وأحسن "[٤] وولى بشر بن ميمون الحجبه فأوصاه قائلاً وموضحا طبيعة عمله " احجب عني من إذا قعد أطال ، وإذا طلب أحال فكره ، ولا تستخفن بذوي المروءة والحرمة

---

(١) الخراج ص ٦ .

(٢) الدرة : اللبن ، الأخلاف : جمع خلف : حلمة ضرع الناقة .

(٣) الأغاني ٤٩/١٧ .

(٤) تاريخ الطبري ٣٥٢/٨ ، الكامل ٢١٨/٦ .

فإنهم إن مدحوا تلبوا ، وإن ذموا أزالوا " [١] .

ولقد كانت له وجهة نظر - تقترب دائماً من الصواب - فيمن يوليه وكان للدقة فى اختياره أبعد الأثر فى حسن إدارة الرجل لمهام منصبه فمثلاً عند إحضاره رجلاً ليوليه القضاء : اعتذر لقلة خبرته فى هذا المضمار فقال له " فيك ثلاث خصال : لك شرف ، والشرف يمنع صاحبه من الدناءة ، ولك حلم يمنعك من العجلة ، ومن لم يعجل قل خطؤه وأنت رجل تشاور فى أمرك ، ومن يشاور كثر صوابه ، وأما الفقه فسينضم إليك من تتفقه به ، فولى فما وجدوا فيه مطعناً " [٢] ، ولعل هذا التحليل الذى استخدمه الرشيد فى فهمه أبعاد الشخص الماثل أمامه يعطى لنا تصوراً مؤداه كيف كان ينتقى عماله كل بما يتناسب مع منصبه ، وأن اختياره لم يكن عشوائياً محض صدفة ، أو مبنياً على هوى شخصى ولكن كان اختياراً قائماً على طبيعة العمل الذى سيؤدى وإمكانات الرجل المتناسبة مع هذا العمل .

من هنا جاء الإخلاص فى العمل نتيجة طبيعية لاختيار مبنى على النظرة الدقيقة ، فمثلا عندما صار الفضل إلى خراسان " أزال سيرة الجور وبنى الحياض والمساجد والرباطات ، وأحرق دفاتر البقايا ، وزاد الجند والقواد ، ووصل الزوار والكتاب فى سنة تسع وسبعين ومائة بعشرة آلاف ألف درهم " [٣] ووقف حفص بن غياث القاضى أمام رجل من حاشية

---

(١) المحاسن والمساوئ ٢٦٢/١ .

(٢) عيون الأخبار ١٧/١ - ١٨ .

(٣) الوزراء والكتاب ١٩١ - ١٩٢ ، وفيات الأعيان ٩٢/٤ .

زبيدة زوجة الرشيد ، فأجازه الرشيد على عدله وثبات موقفه بثلاثين ألف درهم[١] وهو يعلم مدى حنق زوجته عليه .

على أن الرشيد لم يترك ولاته ؛ كلا فى مصره ، يفعل ما يحلو له بل تعقب سيرتهم وجعل عيونه مسلطة عليهم فى كل مكان ، تأتيه بأخبارهم تباعاً حتى إنه كان يحاسبهم محاسبة عسيرة إثر سماعه عن واحد منهم ظلم الرعية ، أو اقتطع من مال المصر ، كموقفه من فرج الرخجى ، الذى قلده الأهواز ، واتصلت السعايات به ، وتظلمت منه رعيته ، فذهب إليه وعنفه قائلاً " يا بن الفاعلة ، رفعتك فوق قدرك واتمنتك فخنتنى وسرقت مالى ، وفعلت وفعلت ، والله لأفعلن بك ولأفعلن "[٢] ، فأحس الرجل بأنه بين حجرى رحى ، وعليه إما الدفاع عن نفسه بصورة تستوجب دفع التهمة ، وإما الهلاك المحقق ، فما كان منه إلا أن استجمع قواه ، وبدأ فى تبرير موقفه ، موضحاً له أن ما وصل إليه لم يكن إلا وشاية من حاقد ، وأنه سار فى البلاد سيرة حسنة ، فعمرها ، وأعاد الحقوق لأصحابها ، وأنه شارك التجار فى عملهم فكان له هذا الربح ، فما كان من الرشيد إلا أن بارك له ماله وأعاده إلى عمله ، بعد أن تبين له إخلاصه وصدق قوله[٣] .

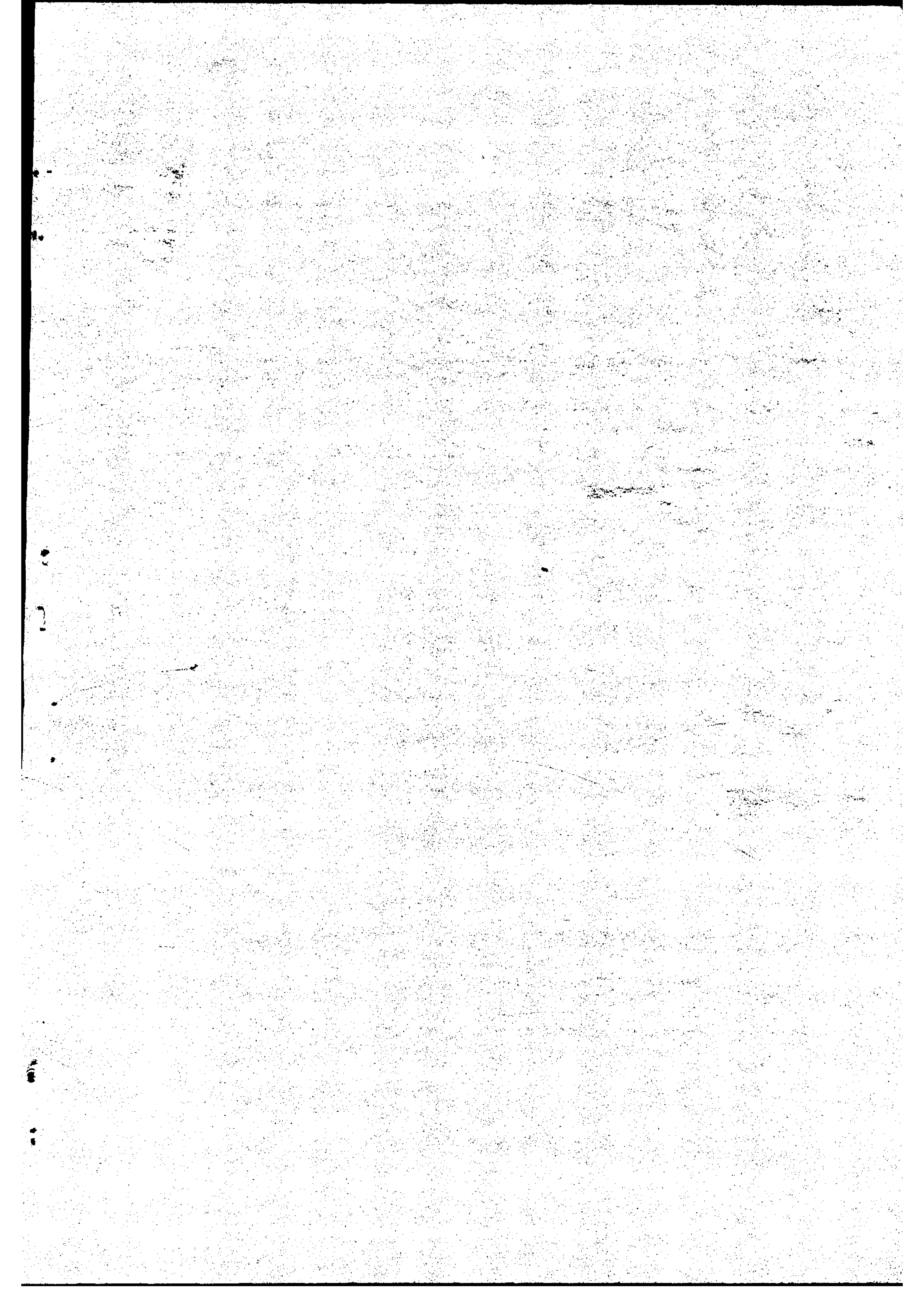
ويصل إليه ما يعانيه أهل مصر من وليهم موسى بن عيسى الذى كثر منه الظلم، واستكثر من العبيد والعدة ، فيستشير فى أمره يحيى البرمكى طالباً منه رجلاً يكمل المسيرة فى مصر ، ويفاجأ به موسى بن عيسى

---

(١) وفيات الأعيان ١٩٩/٢ - ٢٠٠

(٢) الوزراء والكتاب ٢٧١ .

(٣) نفسه ٢٧٢ .



من الصخر ، وأوحش من الفقر ! فقال : يا أمير المؤمنين ، ما قصدت لغير التوفيق من جهته ، ولكني وليت أقواماً ثقل على أعناقهم الحق ، فتفرغوا فى ميدان التعدى ، ورأوا أن المراغمة بترك العمارة أوقع بإضرار السلطان ، وأنوه بالشنعة ؛ فلا جرم أن موجدة أمير المؤمنين قد أخذت لهم بالحظ الأوفر من مساءتى" [(١)] .

لعل هذا الرجل قد أعطى لنا عبر حديثه صورة لما كان بفعله الرشيد عند محاسبته أحد عماله وكيف كان الرجل على حالة من الرهبة والفزع تفوق الوصف .

ويصل إلى علمه مرة أخرى عدم رجوع الفضل إلى ما نهى عنه من قبل واستمرار تشاغله بالصيد واللهو عن النظر فى أمور الرعية ، فلم يتردد هذه المرة في أن يعزله ويقلد الأمر من بعده إلى على بن عيسى بن ماهان [(٢)] إلا أنه استخف بالناس ، وأهان أعيانهم ، فبغضوه ، وأرسلوا بذلك إلى الرشيد [(٣)] ، فما كان منه إلا أن أرسل إلى هرثمة بن أعين شارحاً له موقف أهل خراسان ، وبغضهم لواليهم ، وأنه قد أمَّره عليهم خلفاً له ، جاعلاً الأمر بينهما فى حيز الكتمان ، حتى لا يحتاط على بن عيسى للأمر ، ثم كتب إليه هذا الكتاب ، الذى أعلمه فيه بنبأ عزله والسبب فى ذلك قائلاً " بسم الله الرحمن الرحيم ، يا ابن الزانية رفعت من قدرك ونوهت باسمك ، وأوطأت سادة العرب عقبك وجعلت أبناء ملوك العجم خولك [(٤)]

---

(١) زهر الآداب ٧١٨/٣ .

(٢) الوزراء والكتاب ٢٢٨ .

(٣) الكامل ٢٠٣/٦ - ٢٠٥ ، تاريخ ابن خلدون ٤٧٠/٣ - ٤٧١ .

(٤) الخول : الحاشية والخدم .

وأتباعك فكان جزائى أن خالفت عهدى ، ونبذت وراء ظهرك أمرى ، حتى عثت فى الأرض ، وظلمت الرعية ، وأسخطت الله وخليفته بسوء سيرتك ، ورداءة طعمتك ، وظاهر خياناتك ، وقد وليت هرثمة بن أعين مولاى ثغر خراسان وأمرته أن يشد وطأته عليك وعلى ولدك وكتابك وعمالك ولا يترك وراء ظهوركم درهماً ولا حقاً لمسلم ولا معاهد إلا أخذكم به ، حتى ترده إلى أهله ، فإن أبيت ذلك وأباه ولدك وعمالك فله أن يبسط عليكم العذاب ، ويصب عليكم السياط ويحل بكم ما يحل بمن نكث وبدل وخالف وظلم وتعدى وغشم [(١)] ، انتقاماً لله عز وجل بادئاً ولخليفته ثانياً ، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً ، فلا تعرض نفسك للتى لاشوى لها [(٢)] وأخرج مما يلزمك طائعاً أو مكرهاً " [(٣)] .

وبهذه الجمل القصيرة ، والعبارات الموحية القوية ، حزم الرشيد الأمر ، وأنصف أهل خراسان انتقاماً من واليهم الذى ظلم وأفسد محاصراً إياه طالباً منه إحالة الأمر بكامله إلى واليه الجديد ، طالباً منه أيضاً عدم العصيان والتمرد ، حتى لا يعرض نفسه وأهله للعذاب مظهراً بذلك حنكة سياسية ودربة .

ولاستكمال الأمر - حتى تعود الأمور إلى نصابها - كتب الرشيد عهداً آخر لهرثمة بن أعين واليه الجديد على خراسان ، ناصحا إياه على عادته واضعا أمامه كيفية حكم المصر بما فى كتاب الله وسنة رسوله

---

(١) غشم : ظلم .

(٢) لا شوى لها : لا إبقاء لها .

(٣) تاريخ الطبرى ٣٢٦/٨ ، جمهرة رسائل العرب ٣٢٦/٣ - ٣٢٨ .

ومشورة أهل الدين والعلم ، موضحاً له موقفه من علي بن عيسى عند قدومه عليه ، وأخذه حق الخليفة والمسلمين منه ، مصيباً بذلك هدفه من أقصر الطرق ، حيث قال " هذا ما عهد هرون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين ، حين ولاه ثغر خراسان وأعماله وخراجه : أمره بتقوى الله وطاعته ، ورعاية أمر الله ومراقبته ، وأن يجعل كتاب الله إماماً في جميع ما هو بسبيله ، فيحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويقف عند متشابهه ويسأل عنه أولى الفقه في دين الله ، وأولى العلم بكتاب الله أو يرده إلى إمامه ليريه الله عز وجل فيه رأيه ويعزم له على رشده وأمره أن يستوثق من الفاسق علي بن عيسى وولده وعماله وكتابه وأن يشد عليهم وطاته ، ويحل بهم سطوته ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفيء المسلمين فإذا استنظف ما عندهم وقبلهم من ذلك ، نظر في حقوق المسلمين ، والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذي حق حتى يردوه إليهم ، فإن ثبتت قبلهم حقوق لأمير المؤمنين ، وحقوق للمسلمين ، فدافعوا بها وجحدوها ، أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته ، حتى يبلغ بهم الحال التي إن تخطاها بأدنى أدب ، تلفت أنفسهم ويطلب أرواحهم ، فإذا خرجوا من حق كل ذي حق أشخصهم كما تشخص العصاة - من خشونة الوطاء وخشونة المطعم والمشرب ، وغلظ الملبس - مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله "(١).

وعندما وصل هرثمة إلى خراسان ، قام بما أمره به الرشيد ، وأرسل إليه كتاباً يخبره فيه بما صنع ، وأنه نفذ ما كان في جعبته من أعمال (٢) ،

---

(١) تاريخ الطبري ٨/٣٢٧ - ٣٢٨ ، جمهرة رسائل العرب ٣/٣٢٨ - ٣٢٩ .

(٢) ارجع في ذلك إلى جمهرة رسائل العرب ٣/٣٣٠ - ٣٣٤ .

فرد عليه الرشيد بكتاب مثله ، يأمره فيه ببذل مزيد من الجهد والعرق من أجل صلاح المصر .

ولقد كانت للرشيد مواقف أكثر حزماً ، وأشد ضراوة مع أناس تطاولت أعناقهم وامتدت تطلعاتهم إلى خارج حدها الطبيعى ، من مثل طامع فى الخلافة أو خارج يريد الاقتطاع من المملكة ، فإذا به يحس بهؤلاء جميعاً فلم يتركهم ليتفاقم أمرهم ، بل حاسب على الكلمة أو الشبهة بعد تواتر الخبر .

فعندما بلغه أن عبد الملك بن صالح واليه على دمشق ، دعا إلى نفسه وأراد الخلافة ، بعث إليه وأحضره ، ثم توعده معنفاً ناظراً إلى رأسه وموضع السيف فيها قائلا له : " والله ! لكأنى أنظر إلى شؤبوبها [١] وقد همع ، وإلى عارضها [٢] ، وقد لمع ، وكأنى بالوعيد قد أورى ناراً فأقلع عن براجم بلا معاصم [٣] ، ورءوس بلا غلاصم مهلاً مهلاً بنى هاشم ! فبى سهل الله لكم الوعر ، وصفى الكدر وألقت الأمور أزمتها ، واندفع حذار من حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل " [٤] .

هكذا توعده الرشيد فى عنف ، فأوحت كلماته بما يكنه فى صدره من ضيق فخرجت لذلك قاسية متوعدة ، ولم يهدأ بالاً حتى أمر بحبس الرجل وعزله عن الولاية [٥] ، ولم يشفع له فى قتله سوى أنه من بنى هاشم

---

(١) الشؤبوب : الدفعة من المطر .

(٢) العارض : السحاب المعترض فى الأفق .

(٣) البراجم : الأصابع ، والمعاصم : جمع معصم وهو موضع السوار ، أو اليد .

(٤) الغلاصم : جمع غلصمة ، وهى رأس الحلقوم بشواربه .

(٥) المحاسن والمساوئ ٣٠٣/٢ ، العقد الفريد ٢٢/٢ - ٢٣ ، مروج الذهب ٣٤٣/٣ ، زهر الآداب ٧١٨/٣ .

وظل على حبسه حتى مات الرشيد ، وأخرجه الأمين واستعمله على الشام مرة أخرى [١] .

ويخرج عليه الوليد بن طريف الشارى بأرض الجزيرة ، ويستولى على أرمينية وأذربيجان ويفتك بأكثر من حملة وجهت إليه ، مفتخراً على إثر ذلك بنفسه وقوته ، موضحاً بأن سر خروجه على الرشيد ، إنما لما شاهده من ظلمه وجوره ، وملخصاً ذلك فى قوله :

أنا الوليد بن طريف الشارى أخرجنى ظلمكم من دارى [٢]

ويخشى الرشيد أمره ، فيرسل إليه يزيد بن مزيد الشيبانى ، مزوداً إياه بسيف الرسول عليه الصلاة والسلام قائلاً له : " خذه يا يزيد فإنك ستنصر به " [٣] ويعلم الوليد بخروج يزيد إليه ، فيتوعده قائلاً :

ستعلم يا يزيد إذا التقينا بشط الزاب أى فتى يكون [٤]

ويتأخر يزيد فى إنجاز مهمته والإجهاز على الوليد ، فإذا بالرشيد يرسل إليه كتاباً شديد اللهجة معلناً القصاص منه إذا تقاعس قائلاً : " لو وجهت أحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ، ولكنك مداهن ، متعصب ، أقسم بالله إن أخرت مناجزته لأوجهن إليك من يحمل رأسك"[٥] .

---

(١) الكامل ١٨٣/٦ .

(٢) البدء والتاريخ ١٠١/٦ - ١٠٢ .

(٣) وفيات الأعيان ٣٢٩/٦ .

(٤) الكامل ١٤١/٦ .

(٥) نفسه ١٤٢/٦ .

ويخاف يزيد بأس الرشيد ، فيشتد للأمر ، ويحمل على الوليد مرة واحدة فيقضى عليه [١] ويعتمر الرشيد فى سنته تلك ، شكراً لله على ما أبلاه بشأن الوليد بن طريف [٢] ، ويمدح الشعراء يزيد على موقفه من الوليد ومنهم أبو الوليد مسلم بن الوليد الأنصارى ، الذى أشاد بقوة يزيد وضراوته من خلال قوله :

سل الخليفة سيفاً من بنى مطر   يمضى فيخترق الأجسام والهاما
لولا يزيد ومقدار له سبب   عاش الوليد مع العامين أعواما
أكرم به وبآباء له سلفوا   أبقوا فى المجد أياما وأياماً [٣]

بينما كان للوليد أخت تسمى الفارعة ، تجيد نظم الشعر ، فرثته على غرار الخنساء بقصيدة جيدة بارعة تشيد فيها بمأثره المتعددة من تقوى ، وجود وبراعة فى فنون القتال إلى غير ذلك من الصفات التى كان يتحلى بها فى حياته [٤] .

وينتفض عليه رافع بن الليث ، مخالفاً إياه بسمرقند [٥] رافعاً إليه كتاباً يعلمه فيه بأمر هذا الخروج ، ناظماً فى أسفله هذا البيت :

إذا جئت عاراً أو رضيت بذلة   فنفسى على نفسى من الكلب أهون!

---

(١) السابق ١٤٢/٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢٦١/٨ .

(٣) وفيات الأعيان ٣٢٨/٦ .

(٤) انظر هذه القصيدة فى الأغانى ٩/١١ ، سمط اللآلئ ٩١٣/٢ ، الكامل ١٤٢/٦ ، وفيات الأعيان ٣٢/٦ .

(٥) الكامل ١٩٥/٦ .

فيرد عليه الرشيد بكتاب آخر ، اختتمه على غرار الرسالة الأولى ، ببيت يوضح له فيه خطورة إقدامه على مثل هذا الصنيع ؛ الذى لن يجنى من ورائه إلا الحتف المحقق وذلك عندما قال :

ورفعك نفساً طالباً فوق قدرها   يسوق لك الحتف المعجل والذلا[١]

ويمتد الأجل برافع دون أن يظفر به الرشيد ، ويستمر على عصيانه وتمرده حتى قبيل وفاة الرشيد ، الذى أمسك بأخيه مروان ، فصب عليه من عذابه ما عوضه عن رافع وفاق به الوصف ، حتى استجار الرجل با الله ، إلا أن الرشيد وهو على فراش الموت استطاع أن يثأر لنفسه ومملكته من ذلك الخارج عليه ، ولعل هذه الصورة تتضح أكثر من خلال هذا الحديث المتبادل بينه وبين مروان ، حيث قال له الرشيد " أيتوهم رافع أنه يغلبنى ، وا لله الذى لا إله إلا هو لو كان معه عدد نجوم السماء ، لتلقطتهم واحداً واحداً حتى أقتلهم عن آخرهم فقال مروان : ا لله ا لله فى يا أمير المؤمنين ، فإن ا لله أعلم وأهل خراسان جميعاً أنى مازلت بريئاً من أخى ، ومما هو عليه منذ عشرين سنة ، وإنى لأشير عليه بلزوم الطاعة ، وترك ما هو بسبيله فلا يقبل ، وإننى لملازم لمسجدى وصلاتى ومنزلى ، فاتق ا لله فى ، وفى هذا الرجل ، فقال له قرابته : قطع ا لله لسانك ! إنا وا لله منذ كذا وكذا ندعو بالشهادة فلما رزقناها على يدى شر خلقه ، أخذت فى الاعتذار، فاغتاظ الرشيد من ذلك وقال : على بجزارين ؛ فقال له قرابة مروان افعل ما شئت فإنا نرجو أن يرزق ا لله الشهادة ، ونقف نحن وأنت بين يدى ا لله عز وجل فى أقرب مدة ، فتعلم كيف يكون حالك ، فنحيا ، وأمر القوم بتفصيلهم

---

(١) صبح الأعشى ٣١١/٦ .

عضواً عضواً ، فوا لله ما فرغ منهما حتى توفى الرشيد "[١] .

هكذا جاء انتقامه مروعاً حتى فى لحظاته الأخيرة ، ولم يكن هذا الانتفاض الأخير عليه ، فقد حدثت قبله انتفاضات عدة من جنبات متعددة من مملكته ، من مثل العطاف بن سفيان الأزدى ؛ الذى اجتمع عليه أربعة آلاف رجل بالموصل ، فخرج إليه الرشيد وهدم سور الموصل بسببه[٢] ، والصحصح الخارج عليه بالجزيرة ، فوجه إليه من قتله[٣] وحمزة الشارى الخارج بخراسان ، الذى قتله بيد عامله عيسى ابن على وسبى أهله[٤] .

وإذا كانت الصور السابقة تحمل بين طياتها عنفاً من قبل الرشيد الذى ما كان ليرضى على مملكته بالاقتطاع منها وإنقاصها ، فهناك صور أخرى مع رعاياه تختلف عن سابقتها تحمل تسامحاً عند المقدرة ، وعفواً مشوباً بالندم عند إحساسه بأنه أخطأ فى إلحاق عقاب ، أو إدانة لشخص لا يستحقها ، الأمر الذى يعطى مؤشراً مؤداه أن العنف والشدة ليسا هما ما يميزان شخصية الرشيد بوجه عام ، لكن هناك ما يقابلهما من تسامح ولين ، كموقفه من رجل جنى جناية فأمر بحبسه ، ثم سأل عليه مرة أخرى فعلم أنه كثير الصلاة والدعاء ، فطلب من الموكل به أن يخبر الرجل برفع الأمر إليه مرة أخرى لإطلاق سراحه إلا أن الرجل رفع الأمر إلى ا لله دون الرشيد ؛ الذى علم بالأمر فخر مغشياً عليه لإحساسه بالندم وأمر بإطلاق

---

(١) الوزراء والكتاب ٢٧٤ - ٢٧٥ ، مروج الذهب ٣٦٦/٣ .

(٢) الكامل ١٤٠/٦ ، تاريخ ابن خلدون ٤٦٧/٣ .

(٣) نفسه ١١٠/٦ .

(٤) البدء والتاريخ ١٠٢ - ١٠٤ .

الرجل [١] . ويخرج عليه أبو الهيذام ويغلظ أمره ، حتى أوقع به صديقه ، فقيده وحمله إلى الرشيد ، فأنشده هذه الأبيات ، طالباً منه الفصل فى أمره بالحسنى قائلاً :

أفى عامر لا قدس الله عامراً ... تبيت تغنينى السلاسل والكبل
فهل نحن إلا أهل سمع وطاعة ... وهل أنت إلا السيد الحكم العدل
فأحسن أمير المؤمنين فإنه ... أبى الله إلا أن يكون لك الفضل

فإذا بالرشيد صاحب المواقف السابقة ، يضعف أمام الأبيات ويداخله إحساس بالتعاطف مع الشاعر ، فيمن عليه ويطلقه [٢] .

ومن صور عفوه أيضاً غضبه على عبد الملك بن مالك الخزاعى ، ثم صفحه عنه بعد ذلك [٣] . ويعتذر لرجل من بنى أمية عظيم الجاه لشكه فيه بعد أن أرسل إليه من يقيده ويحضره إليه ، ثم يتبين له بعد ذلك أنه كان على خطأ فى تصوره السابق ، فإذا به يعتذر دون أن يجد غضاضة فى ذلك أو إقلالاً من شأنه [٤] .

وللرشيد مجموعة من التوقيعات ، جمع معظمها صاحب العقد الفريد أعقبت رسائله إلى عماله ، أو على رده للمظالم ، تظهر لنا أسلوبه فى إداره البلاد ومقدرته على بلورة الموضوع عبر جمل قصيرة ، تؤدى غرضها وتكشف عن بلاغة متأصلة فيه وحنكة سياسية وتفوق إدارى ،

---

(١) المحاسن والاضداد ٤١/١ - ٤٢ .

(٢) سمط الآلئ ٥٩٣/١ .

(٣) التاج فى أخلاق الملوك ٩٢-٩٤ ، المحاسن والمساوئ ٢٩٧/٢ - ٢٩٨ .

(٤)انظر فى ذلك المستطرف ٢٦٥/١ - ٢٦٧ ، الموشى ١٨١/٢ .

وكما قلت فإن أغلب هذه التوقيعات كانت إلى عماله ، يحثهم فيها على الحفاظ على خزانة المصر ، أو العمل بكتاب الله ومقاومة الخارجين عليهم.

ومن نماذج هذه التوقيعات أنه " وقع إلى صاحب خراسان : داو جرحك لا يتسع ، وإلى عامله على مصر : احذر أن تخرب خزانتي وخزانة أخي يوسف فيأتيك مني مالا قبل لك به ومن الله أكثر ، ووقع في قصة رجل من البرامكة : أنبتته الطاعة وحصدته المعصية ، وإلى عامله على فارس : كن مني على مثل ليلة البيات ، وإلى عامل خراسان : إن الملوك يؤثر عنهم الحزم وإلى خزيمة بن خازم إذ كتب إليه أنه وضع السيف حين دخل أرض أرمينية : لا أم لك أتقتل بالذنب من لا ذنب له ؟ وفي قصة محبوس : من لجأ إلى الله نجا ، وفي قصة متظلم : لا يجاوز بك العدل ، ولا يقصر بك دون الإنصاف ، وإلى صاحب السند إذ ظهرت العصبية : كل من دعا إلى الجاهلية تعجل إلى المنية ، ...... وإلى محفوظ صاحب خراج مصر : يا محفوظ اجعل خراج مصر خرجاً واحداً ، وإلى صاحب المدينة : ضع رجليك على رقاب أهل هذا البطن ، فإنهم قد أطالوا ليلي بالسهاد ، ونفوا عن عيني لذيذ الرقاد "[1].

وبعد ، فنذلكة القول أن الرشيد استطاع بحكمة واقتدار إدارة شئون مملكته ، حيث كان حاكماً جاداً في وقت الجد ، ليناً في وقت اللين اختار ولاته بعد دراسة وتمحيص ، ولنظرته الثاقبة في اختيارهم جاءت معظم شهرته في الإدارة التي رجعت إلى " كفاية الوزراء ، ومقدرة

---

(١) انظر في تكملة هذه التوقيعات العقد الفريد ٤/٢٦٥ - ٢٦٦ ، وأخرى في النبراس ٣٦ ، ومحاضرات الأدباء ١/٢١٩ .

الموظفين الذين وثق بهم ووكل إليهم مهام الدولة خلال السبع عشرة سنة الأولى من حكمه " [١] على أنه لم يترك لهم الأمر كاملا ، بل شاركهم فيه ، من خلال نصائحه وتوجيهاته ، ثم حسابه بعد ذلك عبر عيونه التى توافيه بأخبارهم ، فباتوا متفانين للعمل الجاد من أجل صلاح المصر ، ومن شذ منهم عامله بعنف . ولكم كان قاسياً عند إحساسه بخارج عليه أو متطلع للخلافة لذا اتسمت ردود فعله بالعنف ، فحفظ لذلك مملكته من التصدع .

---

(١) مختصر تاريخ العرب ٢٠٥ .

ثانياً : موقفه من شيعة علىٍّ :

إذا كان الرشيد قد احتاط لنفسه ، واقتص من الخارجين عليه ، أولئك الذين حاولوا الاقتطاع من مملكته ، وتعامل بقسوة مع من حدثته نفسه بطلب الخلافة ، فقد بقى أمامه أمر جل خطير ، كان من الصعب تجاهله حتى يستطيع أن يستقر ملكه ، وأن يركن بعده إلى الدعة والطمأنينة والذى يكمن فى شيعة على ، والطالبين الخلافة له ولنسله ، والذين يرون أنهم أحق بها ، الأمر الذى أقلقه كثيراً كما أقلق غيره من الخلفاء على مدار التاريخ الطويل .

فمنذ أن اعتلى معاوية أمر المسلمين بعد مقتل على ، والشيعة لا يرجعون عن مطلبهم بالخلافة ، فى الوقت الذى يرد فيه الخلفاء عليهم بالتنكيل والتبديد . فقد رأى الشيعة أن آل عباس اغتصبوا الخلافة ، وأنها لابد أن ترجع إلى آل أبى طالب ، مستندين على ذلك بحجتهم التى كانوا يقفون على إثرها فى مواجهة الأمويين ، وهى قرابتهم للرسول ﷺ ، إلا أن الأمر هنا كان مختلفاً عن سابقه ، حيث كانت قرابة العباسيين للرسول أكثر صلة من العلويين ، فالعباس رأس الأسرة العباسية عم الرسول مباشرة ، على حين ينتسب العلويون إلى على ابن عم الرسول ، ومن المعروف أن العم أقرب من ابن العم فى النسب .

على أن أمر هذه الصلة كان هو سر ترجيح بنى العباس على شيعة علىٍّ عَلَى مر تاريخ الدولة العباسية ، وبخاصة فى أول عهدها ، ولعل تلك المكاتبات التى كانت بين المنصور ثانى خلفاء بنى العباس ومحمد ابن عبد الله الملقب بالنفس الزكية - والخارج على الخليفة بعد أن بايعه أشراف بنى هاشم - لتعطى لنا صورة جلية لكيفية احتجاج كل واحد منهما بحقه فى

الخلافة ، وتطابق ما قلناه فى مذهب كل فريق واستناده على قرابته من الرسول ﷺ [١] .

على أن الرشيد لم يكن أقل تمسكاً بالخلافة أو أحقيته فيها من المنصور أو المهدى من هنا وقف ضد العلويين ودافع عن حقه من هذا المنطلق يناصره الشعراء عبر نظمهم فى تأكيد هذا الحق ، فانطلقت ألسنتهم تلهج بهذا الحق كأبان بن عبد الحميد ، الذى عبر عن هذه الصورة متعجباً من أمر العلويين الطالبين حقاً ليس لهم ، وذلك من خلال قوله :

نشدت بحق الله من كان مسلماً	أعم بما قد قلته العجم والعرب
أعم نبى الله أقرب زلفة	لديه أم ابن العم فى رتبة النسب؟
وأيهما أولى به وبعهده	ومن ذا له حق التراث بما وجب؟
فإن كان عباس أحق بتلكم	وكان على بعد ذلك على سبب
فأبناء عباس هم يرثونه	كما العم بابن العم فى الإرث قدحجب
وفى حسن إذا قلتم فيه حجة	فقد باعها لا ينكر الناس أو وهب
فإن كان ذا حق فعمداً أضاعه	وإن كان ذا دعوى فكفوا عن الشغب
وهبه كما قلتم ، وليس كذاكم	أما ذادكم عنها المطالب واغتصب؟
فأهملتموها لم تروا حيلة لها	إلى أن أراد الله إتمام ما أحب ؟ [٢]

هكذا لخص أبان الموقف كله عبر أبياته ، حيث بدأها مستنكراً ومقلباً الأمر على كل الوجوه ، طالباً الفصل فى هذا الأمر البين ، الذى لن تكون نتيجته إلا فى صالح العباسيين أصحاب الحق الشرعى لصلة القرابة الوطيدة بينهم

(١) انظر فى ذلك تاريخ الطبرى ٥٦٦/٧ - ٥٧١ .

(٢) الأوراق ١٣ ، الأغانى ٧٥/٢٠ - ٧٥ .

وبين الرسول ﷺ ، منتقلاً بعد ذلك إلى حجة أخرى من حجج العلويين ، وهي ولاية الأمر من بعد علي إلى ابنه الحسن ، فاشياً سره ، بأنه باع حقه لمعاوية ، على أن الله في نهاية الأمر أراد إصلاح الأمر سواء للبلاد أو العباد فأسند ولاية المسلمين إلى من أحب ، وهم بالتبعية بنو العباس .

ويؤكد المعاني السابقة منصور النمري متجهاً بكلامه إلى الرشيد مؤكداً حقه في الخلافة نافياً حق بني علي قائلاً :

يا ابن الأئمة من بعد النبي ويا ابـ ... ـن الأوصياء أقر الناس أو دفعوا

إن الخلافة كانت إرث والدكم ... من دون تيم وعفو الله متسع

لولا عدي وتيم لم تكن وصلت ... إلى أمية تمريها وترتضع

وما لآل علي في إمارتكم ... حق وما لهم ابدا في إرثكم طمع

يا أيها الناس لا تعزب حلومكم ... ولا تضفكم إلى أكنافها البدع

العم أولى من ابن العم فاستمعوا ... قول النصيحة إن الحق مستمع[١]

ويضيف إلى ما سبق النمري متهكماً من قول آل علي قائلاً :

ألا لله در بني علي ... وزور من مقالهم كبير

يسمون النبي أبا ، ويأبى[٢] ... من الأحزاب سطر في سطور[٣]

على أن الشعراء لم يقفوا عند حد دحض مقولة العلويين وحقهم في الحكم فحسب ، بل نظموا الأشعار للرشيد يؤكدون له فيها تأكيد خلافته وأهله

---

(١) الشعر والشعراء ٢/٨٥٩ ، طبقات الشعراء ٢٤٤ .

(٢) " ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليماً " الآية ٣٣ / ٤٠ من سورة الأحزاب .

(٣) طبقات الشعراء ٢٤٥ .

مـن قبلـه ، وأنـه حـق مكتسـب متـوارث ، فرضـه الله والواقـع وأن الخلافـة كـانت فيهـم دون مـراء ، متوجهـين بهـذا الكـلام إلى العلويـين أيضـاً علهـم يـتراجعون عمـا ينادون بـه مـن حق فـى الخلافـة ، ومـن الشـعراء الذيـن نظمـوا فى هذا مروان عند دخولـه على الرشيد مثبتاً حقـه وأهلـه فـى الخلافـة قـائلاً :

هل تطمسون من السماء نجومها　　　بأكفكـم أو تسترون هلالها

أو تجحـدون مقالـة عـن ربكـم　　　جبريـل بلغها النبى فقالهـا

شهدت مـن الآنفال آخر آيـة[١]　　　بتراثهـم فأردتم إبطالهـا [٢]

وقـال أيضـاً مسـلم بـن الوليد فـى حضـرة الرشيد ، موضحـاً اكتمـال الفضـائل فى بنى العبـاس ، الأمـر الذى أولاهـا الصـدارة فـى الخلافـة :

أنسا اهوى ببنى العمومة فى الحشـا　　　مستوحشاً من سائر الإيناس

وإذا تكـامـلـت الفضـائـل كنتـم　　　أولى بذلك يا بنى العبـاس[٣]

وقال أيضاً أبـو الشيص الخزاعـى عندمـا مـدح الرشـيد :

يا بنى هاشم أفيقوا فإن الملـك　　　منكم حيـث العصا والـرداء

ما هـارون فى قريش كـفى　　　وقريش ليـست لهم أكفـاء [٤]

هكـذا استطـاع الشـعراء أن يستوعبوا أبعـاد الصـراع بـين الرشـيد والعلويـين وأن يصوغـوه شعراً ، متقربـين بذلـك إلى الرشـيد ، حيـث لمسـوا فيـه ميلـه إلى تـأكيد هـذا الحـق ، وشـعروا بـأن المحبب إليـه مـن عـرض بالشيعة ونفـى حقهـم ، لـذا

---

(١) آخر آية فى سورة الأنفال قوله تعالى " والذين آمنوا بعد وهـاجروا معكـم فـأولئك منكـم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شئ عليم " .

(٢) الأغانى ٤٢/٩ .

(٣) شرح ديوان صريع الغوانى ٣٢٤ ، العقد الفريد ٤٥/٢ .

(٤) أشعار أبى الشيص ١٩ .

كان مروان من شعرائه المفضلين ، لأنه كان يمدحه وينال من الشيعة عبر نظمه [١] وأيضا منصور النمرى الذى نفى إمامة على وأولاده من بعده وطعن فيهم [٢] ، ومروان بن سليمان الذى هجا العلويين بشعره [٣] .

وإذا كان الرشيد قد ترك الأمر لشعرائه لكى يستردوا له حقه نظما عبر أبياتهم - التى نفوا فيها حق على وشيعته فى الخلافة - فقد وقف هو فى الطرف المقابل يسترد حقه قسراً ، من منطلق موقفه كحاكم بيده مقاليد الأمور ، وأنه يدافع عن ملك متوارث له ولنسله من بعده ، فإذا به يستخدم القسوة مع العلويين ولا يخاف الله فيهم ولا من يدعو إليهم [٤] بل قتل منهم الكثير ، حتى وصل الأمر به إلى التنكيل بأبناء فاطمة مع شيعتهم [٥] ، فلم يترك واحداً منهم يظهر فى عهده إلا قضى عليه . سواء بيده أو بواسطة أحد عماله ، مستخدماً فى قتله أبشع الطرق ، مشروعة كانت أو غير مشروعة .

وعندما كان يلقى أحدهم حتفه ، تنتابه سعادة بالغة لإحساسه بتأمين مملكته من أخطارهم ، يشاركه فى ذلك الشعراء بنظمهم القصائد التى تعبر عن الفرحة بهذا الحدث الجلل .

ومن الذين ظهروا فى خلافته من آل على ، إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، الذى استجابت له البربر ، وعلم بذلك الرشيد فاغتم

---

(١) ضحى الإسلام ٢٥/٢ .

(٢) الأغانى ١٦/١٢ .

(٣) تاريخ بغداد ٢٤٢/١٣ .

(٤) تاريخ التمدن الإسلامى ١٥٧/٤ .

(٥) صريع الغوانى ٤٩ - ٥٠ .

وشكا الأمر إلى وزيره يحيى البرمكي ، الذي استعان بأحد رجاله للإيقاع به فلقى حتفه على يده مسموماً [١] ، وعقب موته ، نظم أشجع السلمي أبياتاً وضح فيها يقظة الرشيد ، وكيف أن الخارج عليه، لن يطول به الأمد حيث ستمتد إليه يده ، وعيونه المبثوثة في كل مكان وتقتص منه ، متوجهاً بكلامه إلى إدريس قائلاً :

أتظن يا إدريس أنك مفلت … كيد الخليفة أو يقيك فرار

فليدركنك أو تحل ببلدة … لا يهتدى فيها إليك نهار

إن السيوف إذا انتضاها سخطه … طالت وتقصر دونها الأعمار

ملك كأن الموت يتبع أمره … حتى يقال تطيعه الأقدار [٢]

وعند علمه بأن يحيى بن عبد الله بن الحسن قد ظهر بالديلم والتف الناس حوله من الأمصار والكور ، واشتدت شوكته ، وقوى أمره انتابه قلق ، أرسل على إثره الفضل بن يحيى في خمسين ألف رجل لملاقاته والقضاء عليه[٣] ، إلا أن الفضل آثر السلم على الحرب ، فعقد مع يحيى أماناً وأشهد عليه الشهود وأرسله إلى الرشيد ، فقبله ، ولما قدم عليه يحيى أجازه بهبات كبيرة وأقامه عنده على حين أضمر له سوء النية لتوجسه منه [٤] .

على أن الشعراء استبشروا خيراً بأمر هذا الأمان ، ومدحوا الرشيد والفضل على ما أبلياه في أمر يحيى بن عبد الله ، ومنهم منصور النمري

---

(١) مقاتل الطالبيين ٤٨٧ - ٤٨٩ .

(٢) نفسه ٤٩٠ ، زهر الآداب ١١٠٢/٤ .

(٣) تاريخ الطبرى ٢٤٢/٨ - ٢٤٣ ، الكامل ١٢٥/٦ ، الفخرى ١٤٣ ، تاريخ ابن خلدون ٤٦٣/٣ .

(٤) مقاتل الطالبيين ٤٧١ .

الذى أنشده مثنياً على موقفه من يحيى وجميله فى آل على قائلاً:

بنى حسن وقل لبنى حسين ... عليكم بالسداد من الأمور
أميطوا عنكم كذب الأمانى ... وأحلا ما يعدن عدات زور
مننت على ابن عبد الله يحيى ... وكان من الحتوف على شفير
ولو جاريت ما اقترفت يداه ... دلفت له بقاصمة الظهور
يد لك فى رقاب بنى على ... ومن ليس بالمن الصغير
وإنك حين تبلغهم أذاة ... - وإن ظلموا - لمحترق الضمير[1]

وقال له أبان بن عبد الحميد يهنئه بما فعل الفضل ، وكيف أنه قضى على انتفاضة يحيى التى لو تمت لتغيرت لها الطبيعة بجبالها وأرضها لندرتها وغرابتها :

هنيئاً أمير المؤمنين لك الظفر ... فقد تمت النعمى وقد ساعد القدر
رآك إله الناس أولى بملكه ... فأصفاكه لا من فيه ولا كدر
وقد كان يحيى الفاطمى سمت به ... له همة فى الصدر جاش لها وجر
أراد التى تهوى الجبال لكونها ... وترجف منها الأرض لو تم ما ائتمر
وكان رجال بالطالقان ذخيرة ... كنوزاً له كانت على الدهر تدخر
فكان هو الكنز الذى أيدت به ... خلافة هارون الإمام وما شعر
أتاك يحيى الفضل سلماً يقوده ... مقراً ولولا يمن جدك ما أقر[2]

---

(١) طبقات الشعراء ٢٤٥ ، الأغانى ١٢/١٧ ، أمالى المرتضى ٤/١٨٥ .

(٢) الأوراق ١٩ .

وينظم مروان من شعره ما يشيد فيه بمدح الفضل ، وبراعته فى جمع شمل بنى هاشم من خلال أمانه قائلاً :

ظفرت فلا شلت يد برمكية رتقت بها الفتق الذى بين هاشم

على حين أعيا الراتقين التئامه فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم

فأصبحت قد فازت يداك بخطة من المجد باق ذكرها فى المواسم

ومازال قدح الملك يخرج فائزاً لكم كلما ضمت قداح المساهم[1]

و لم تكن هذه بآخر القصائد التى مدح فيها الفضل ، بل تعددت[2]. وهذا يظهر لنا مدى ابتهاج الشعراء بأمر هذا الأمان والفرح الذى استقبلوا به الحدث ، إلا أن الرشيد على الرغم من ذلك لم يسترح لهذه النهاية ، بل ظل على خوف من أمر يحيى خشية الخروج عليه مرة أخرى ، لذا جمع فقهاءه للنظر فى الأمان الذى أعطاه له من جديد ، عله يجد فيه مخرجاً ، يكون نهاية أمر يحيى من خلاله ، إلا أنهم أجمعوا على صحته عدا أبا البحترى وهب بن وهب ؛ الذى أقر ببطلانه ، وأمر بسفك دم يحيى ، معللاً ذلك بأنه خارج على الطاعة ولتأكيد مقولته طلب منه الرشيد أن يمزق الأمان بيده ففعل ، فأجازه الرشيد على هذا بألف ألف وستمائة ألف وولاه القضاء ابتهاجاً بما قال[3] .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢٤٣/٨ .

(٢) انظر ما نظمه أبان فى أوراق الصولى ١٥ - ٢٠ .

(٣) مقاتل الطالبيين ٤٧٩ - ٤٨٠ .

ولقد تعددت الروايات حول موت يحيى إلا أنها تجمع فى النهاية على أن أمر قتله كان على يد الرشيد [١] ، وبعد موته رثاه شاعر بهذه الأبيات التى بكاه فيها قائلاً :

يا بقعة مات بها سيد ما مثله فى الأرض من سيد
مات الهدى من بعده والندى وسمى الموت به معتدي
فكم حيا حزت من وجهه وكم ندى يحيى به المجتدى
لازلت غيث الله يا قبره عليك منه رائح مغتدى
كان لنا غيثاً به نرتوى وكان كالنجم به نهتدى
فإن رمانا الدهر عن قوسه وخاننا فى منتهى السؤدد
فعن قريب نبتغى ثاره بالحسنى الثائر المهتدى
إن ابن عبد الله يحيى ثوى والمجد والسؤدد فى ملحد [٢]

وموقف آخر للرشيد مع واحد من شيعة على وهو موسى بن جعفر ، الذى ألتقى به عند قبر الرسول ﷺ ، وكان سبب الإيقاع به وموته ، أن الرشيد دنا من قبر الرسول فقال " السلام عليك يا رسول الله يا ابن عم ... افتخاراً على من حوله ، فدنا موسى ابن جعفر فقال : السلام عليك يا أبت ، فتغير وجه الرشيد ، وقال : هذا الفخر يا أبا الحسن جداً ، ثم أخذه معه إلى العراق ، فحبسه عند السندى بن شاهك وتولت حبسه أخت السندى .. إلى أن مات [٣].

---

(١) المرجع السابق ٤٨١ - ٤٨٣ .

(٢) نفسه ٤٨٦ .

(٣) الكامل ١٦٤/٦ ، وفيات الأعيان ٣٠٩/٥ .

وعلى هذه الصورة استمر الرشيد في تعقب أبناء علي عندما يعلم بظهور واحد منهم ينهي حياته بالقتل بعد الحبس ، كإسحاق بن الحسن بن زيد[1] ، والعباس بن محمد بن عبد الله [2] ، ومحمد بن يحيى ابن عبد الله [3] ، وعبد الله بن الحسن [4] ، والحسين عبد الله بن إسماعيل[5] .

ولم يقف الرشيد عند حد تعقب الخارجين عليه من آل علي فقط ، بل تعقب أنصارهم أولئك الذين بايعوهم ، ودانوا لهم بالولاء ، كأمره بقتل الإمام الشافعي مع تسعة من العلويين باليمن ، ونجا الشافعي من هذا الموقف بحصافته وفطنته بعد تحويل الدفة له لا عليه ، وذلك عندما قال للرشيد " يا أمير المؤمنين ، ما تقول في رجلين : أحدهما يراني أخاه ، والآخر يراني عبده ، أيهما أحب إلي؟ قال : الذي يراك أخاه . قلت فذاك أنت يا أمير المؤمنين . فقال لي : كيف ذاك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين إنكم ولد العباس وهم ولد علي ، ونحن بنو المطلب ، فأنتم ولد العباس ترونا إخوانكم وهم يرونا عبيدهم . قال : فسرى ما كان به"[6] .

---

(١) مقاتل الطالبيين ٥٠٦ .

(٢) نفسه ٤٩٨ .

(٣) نفسه ٤٩٥ - ٤٩٦ .

(٤) نفسه ٤٩٢ - ٤٩٤ .

(٥) نفسه ٤٩٧ .

(٦) معجم الأدباء ١٧/٢٨٧ - ٢٨٨ .

هكـذا استخدم الشـافعى المنطق فـى امتصـاص غضـب الرشـيد ، نتيجـة لرفعه منزلـة الرشيد وأهلـه ، وحسـن معـاملتهم لقومـه ، مـع التقليـل مـن شـأن العلويين ، فكـان ذلـك سـبباً فـى عـدم الإيقـاع بـه ، بعـد أن تم ضـرب رقـاب التسعة الذيـن سبقوه .

ويتعقب أيضـاً أمر حـاضر داعيـة أحمـد بـن عيسـى بـن زيـد الخـارج عليه والطـامع فـى الخلافـة ، ويـدور بينهمـا هـذا الحـوار الـذى انتهـى بقتلـه نتيجـة إخفائـه أمـر أحمـد ، وعـدم البـوح بسـره ، وذلـك عندمـا قـال لـه " هيـه صـاحب يحيـى بـن عبـد الله بـالحيل ، عفـوت عنـك وأمنتـك ثـم صـرت تسـعى علـى مـع أحمـد بـن عيسـى ، تنقلـه مـن مصـر إلى مصـر ، ومـن دار إلى دار كمـا تنقـل السـنور أولادهـا ، والله لتجيئنـى بـه أو لأقتلنـك .

قال : يا أمير المؤمنـين ، بلغـك عنـى غـير الحق .

قـال : والله لتـأتينى بـه أو لأضربـن عنقـك .

قـال إذاً أخـاصمك بـين يـدى الله .

قال : والله لتجيئنـى بـه أو لأقتلنـك وإلاّ فأنـا نفـى مـن المهـدى .

قال : والله لو كـان تحـت قدمـى مـا رفعتهـا لـك عنـه ، أنـا أجيئـك بـابن رسـول الله ﷺ وآله حتى تقتلـه ؟ افعـل مـا بـدا لـك .

فـأمر هرثمـة فضربـت عنقـه ، وصلـب مـع الحـازمى ببغـداد " [١] .

ونتيجـة لهـذا الصـراع انقسـم الشـعراء إلى قسـمين قسـم يؤيـد حـق العباسيين فى الخلافـة وهـذا مـا عرضنـا لـه فـى بدايـة هـذه الصفحـات ، والقسـم

---

(١) مقاتل الطالبيين ٦٢٤ - ٦٢٥ .

الآخر وقف يناصر شيعة على ، حيث تحركت مشاعرهم تجاههم ، فجاءت أشعارهم ناعية عليهم ما تحملوه من تنكيل وتعذيب ليس لهم فيه ذنب سوى أنهم طالبوا بحقهم.

وكان فى زمن الرشيد من تشيع من الشعراء وأخفى أمره ، حتى لا تناله أياديه ، التى تعقبت الشيعة وأنصارهم فى كل مكان ، على أن الغريب أن من شعرائه المقربين من كان يناصرهم أيضاً دون علم له بذلك ، مما يجعلنا نفسر هذا على وجهين : الأول منهما هو الخوف من بطش الرشيد ، والآخر مرده إلى التكسب الذى كان يجبر الشاعر على فعل أشياء لا تروق له ، ومن هؤلاء الشعراء منصور النمرى ، صاحب القصائد السابقة التى أشادت بحق العباسيين ، ونفت مطالب العلويين بالخلافة ، هذا الشاعر نفسه هو الذى نظم هذه الأبيات التى تدور حول أنواع التنكيل التى تعرضت لها ذرية النبى عليه الصلاة والسلام ،فدل بها على مذهبه فى التشيع حيث قال:

شاء من الناس راتع هامل | يعللون النفوس بالباطل [1]
تقتل ذرية النبى وير | جون جنان الخلود للقاتل
ويلك يا قاتل الحسين لقد | نؤت بحمل ينوء بالحامل
أى حباء حبوت أحمد فى | حفرته من حرارة الثاكل
بأى وجه تلقى النبى وقد | دخلت فى قتله مع الداخل
هلم فاطلب غداً شفاعته | أوْلا فرد حوضه مع الناهل
ما الشك عندى فى حال قاتله | لكننى قد أشك فى الخاذل
نفسى فداء الحسين حين غدا | إلى المنايا غُدُوَّ لا قافل

---

(١) الراتع : الذى يأكل ما شاء فى رغد . الهامل : المتروك سدى ولا يعمها .

ذلك يـوم أنحـى بشفرتـه على سنام الإسلام والكاهل

وهذه قصيدة طويلة اكتفينا منها بهذا القدر للوقوف على مذهب الرجل . ولقد استمع الرشيد لهذه القصيدة ، فامتلأ غيظا ، وطلب من أحد خاصته أن يتوجه لتوه إلى النمرى ليسل لسانه ويفصل أعضاءه ، ثم يقطع عنقه . إلا أن الموت حال دون ما يريد حيث بلغه نبأ وفاة الشاعر ، على أن ذلك لم يشف غليله أيضاً، بل هم لينبش قبره ليحرقه [١] .

ولعل موقف الرشيد هذا حيال الشاعر حتى بعد موته ، يكشف لنا مدى العداء الشديد الذى يكنه الرشيد لشيعة على ومن يناصرهم .

وقال أيضاً النمرى فى رثاء آل النبى :

آل النبى ومن يحبهم يتطامنون مخافة القتل

أمنوا النصارى واليهود وهم من أمة التوحيد [٢] فى أزل [٣]

ومن الذين تشيعوا من شعراء الرشيد أيضاً دعبل الخزاعى ، وكان الرشيد قد أعجب بشعره فقربه إليه ، وجعله من خاصته ، لكنه بعد أن علم دعبل وفاة الرشيد قال هذه القصيدة التى هجاه فيها ، وأشاد من خلالها بمحاسن أهل البيت ، إثر وقوفه على قبر على بن موسى الرضا ، متعجباً عبر شعره من موقف العباسيين مع العلويين ، ففى الوقت الذى تجمعهما فيه قرابة واحدة لانحدارهما من بيت هاشمى واحد يفعل العباسيون ما يحلو لهم من تنكيل

---

(١) الشعر والشعراء ٨٦٠/٢ ، طبقات الشعراء ٢٤١ - ٢٤٣ ، الأغانى ١٩/١٢ - ٢٠ .
أمالى المرتضى ١٨٦/٤ - ١٨٧ ، ٦٣/٣ - ٦٤ .

(٢) الأزل : الشدة والضيق . يتطامنون : يذلون ويتواضعون .

(٣) الشعر والشعراء ٨٦٠/٢ ، طبقات الشعراء ٢٤٦ ، زهر الآداب ٧٠٥/٣ .

وتبديد للعلويين ، بينما لا يتعجب الشاعر من موقف الأمويين منهم ، بل لا يجد في تصرفاتهم حرجاً بالقياس إلى مبدأ القرابة السابقة ،ولقد صاغ تصوراته تلك من خلال قوله:

وليس حي من الأحياء نعلمه ... من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم ... كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة ... فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين إن قتلوا ... ولا أرى لبني العباس من عذر
أربع بطوس على قبر الزكي بها ... إن كنت تربع من دين على وطر[1]
قبران في طوس:خير الناس كلهم ... وقبر شرهم ، هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا ... على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرئ رهن بما كسبت ... له يداه ، فخذ ما شئت أو فذر[2]

وإذا كان دعبل قد وصف قبر هارون بالرجس بجوار قبر علي الرضا ، فلم يتورع هنا بالتهكم من كنيته ونسكه ، وذلك من خلال نظمه لهذه الأبيات التي ينعي فيها موت علي بن موسى بالسم ، وموقف خلفاء بني العباس من الدعوة العلوية بصفة عامة ، قائلاً :

وعاثت بنو العباس في الدين عيثة ... تحكم فيه ظالم وظنين
وسموا رشيداً ليس فيهم لرشده ... وها ذاك مأمون وذاك أمين
فما قبلت بالرشد منهم رعاية ... ولا لولي بالأمانة دين
رشيدهم غاو وطفلاه بعده ... لهذا رزايا دون ذاك مجون

(١) يقصد بالقبرين : قبر الرشيد والأخر لعلي بن موسى الرضا .

(٢) ديوان دعبل ١٩٧ .

ألا أيهـا القبـر الغريب محلـه بطوس عليك الساريات هتون
شككت فما أدرى أمسقى بشربة فأبكيك أم ريب الردى فيهون ؟
وأيهما ما قلت إن قلت شربة وإن قلت موت إنه لقمين [١]

ومن شعراء الرشيد أيضاً الذين كانت لهم قصائد فى الشيعة أشجع السلمى الذى نظم قصيدة فى رثاء على بن موسى ، وذكر أنها لما شاعت غير ألفاظها فجعلها فى الرشيد ، وأبياتها هى :

حقاً بأن الرضا أودى الزمان به ما يطلب إلا كل منفوس
ذا اللحظتين وذا اليومين مفترش رمساً كآخر فى يومين مرموس
بمطلع الشمس وافته منيته ما كان يوم الردى عنه بمحبوس [٢]

والأبيات التالية ضجر من خلالها صاحبها بما يحل بالبيت العلوى من كوارث على مر الأيام ، جاعلاً من حبس الرشيد لموسى بن جعفر النواة التى انفجرت عبرها كلماته لتصور هذا الأمر قائلاً :

كلما قلنا أتتنا دولة أذهبت عسراً وجاءت بيسر
عطف الخوف علينا والردى وصفاء الدهر رهن بكدر
صاروا لله علينا مالنا إن هذا لبلاء مستمر
نزع الشيطان فيما بيننا فأتانا من جهات الخير شر [٣]

ومن القصائد الجيدة التى حوتها كتب الأدب ، ما نظمه أبوفراس الحمدانى فى مدح آل البيت ، من خلال معارضته لقصيدة محمد بن عبد الله بن

---

(١) مقاتل الطالبين ٥٧٠ - ٥٧١ .

(٢) نفسه ٥٧٠ - ٥٧١ .

(٣) معجم الشعراء ١٣٧ .

سكرة التى يفتخر بها على العباسيين ، والمسماة بالشافية ، ولقد بدأ أبو فراس قصيدته بهذا البيت :

الدين مخترم ، والحق مهتضم ... وفئ آل رسول الله مقتسم

ولطولها لا نستطيع إيرادها كاملة ، لكننا سنوجز القول فيها ، ونتخير منها أبياتاً تعرض لما نبغيه ، فالشاعر أراد أن يعود بالأصل المغتصب إلى أصحابه ، فأشاد بالعلويين ووضعهم فى مقارنة بالعباسيين ، أولئك الذين استأثروا بالخلافة دون حق لهم ، ولم يكتفوا بذلك ، بل افتخروا عليهم ، من هنا هاجم هذا الموقف ، معددا بعده مآثر العلويين ومواقفهم التى تؤهلهم لولاية أمر المسلمين ، ثم ذكر ضعف موقف آل عباس ، وكيف أنهم لو كانوا أهلاً للخلافة ما تقدم إليها أبو بكر ولا عمر .

ثم سار بهذا الأمر حتى وصل إلى الرشيد وتنكيله بيحيى وغدره به فاضحاً أمر العباسيين ، مستخدماً الرشيد علامة على ذلك قائلاً :

يا جاهداً فى مساويهم يكتمها ... غدر الرشيد بيحيى كيف ينكتم

ليس الرشيد كموسى فى القياس ولا ... مأمونكم كالرضا إن أنصف الحكم

وظل على هذا فى قصيدته من تعديد لخلال آل البيت ومدحه لفعالهم وانتقاصه من أمر أعدائهم حتى أنهاها بهذا البيت :

صلى الإله عليهم أينما ذكروا ... لأنهم للورى كهف ومعتصم [1]

وهكذا لم يعدم الشيعة من يقف بجوارهم من الشعراء ويدافع عن موقفهم ويساندهم عبر شعره .

---

(١) ديوانه ٢٥٥ - ٢٥٩ .

وبعد ، ففذلكة القول أن الصراع كان شديداً بين الرشيد وشيعة على ، ذلك الصراع الذى أسفر عن تعقبه لكل من ينتمى إلى شيعة على وانتسب إلى الرسول ﷺ وحدثته نفسه بالخروج من أجل المطالبة بحقه فى الخلافة ، فأدى به الإقدام على مثل هذا الصنيع على أن ينال منه بصورة لم تكن فيها شفقة ولا رحمة ، حيث مات معظمهم على يديه أو بواسطة أحد رجاله ، إما بالسجن أو بالسم أو بالتعذيب ، والرشيد بذلك مطمئن يناصره شعراؤه أولئك الذين جعلوا من شعرهم بوقاً آخر فى وجه العلويين وسلاحاً من أسلحة الرشيد المستخدمة فى الصراع ، يذكرهم بضعف حجتهم ومدى تمكن حكم العباسيين القائم على اختيار الله ، والقرابة اللصيقة برسول الله ، وطبيعة الحكام أنفسهم التى كانت تؤهلهم لولاية أمر المسلمين .

على أن العلويين لم يعدموا من يناصرهم من الشعراء ، أولئك الذين عبروا عن حزنهم لما آلت إليه أحوال آل بيت النبى وكيف أن الخلفاء تفننوا فى تعذيبهم والتنكيل بهم . ولقد كان من شعراء الرشيد من يناصرهم ، ويقف عبر شعره معهم ، فى الوقت الذى كان يقف فيه مع الرشيد .

وفى النهاية ، ومع كل إنسان يلقى حتفه من آل على أو من يناصره ، كان الرشيد يبشر نفسه بمزيد من الاستقرار والدعة والشعور بالغبطة فى ملكه الذى لا يألو جهداً فى الدفاع عنه بكل ما يمتلك من رتخص وغال ، محاولاً الحفاظ عليه من تلك الأيدى التى تمتد لتنال منه حتى لو كان لها الحق فى ذلك.

ثالثاً : نكبة الرشيد للبرامكة :

موقف الرشيد من البرامكة صورة جديدة من صور الصراع السياسى بينه وبين من يحاول أن ينفرد دونه بالحكم. وتعد نكبتهم من أهم الأحداث السياسية التى شهدها حكمه بخاصة ، وعرفتها الدولة العباسية بعامة .

والبرامكة هم أسرة فارسية ، ينسبون إلى برمك ، ولا ينسحب مدلول التسمية على اسم شخص ، بل هو منصب دينى وراثى ، يطلق على الموبذ فى " نوبهار " ، ولقد كانت الأراضى الملحقة بالمعبد فى يد هذه الأسرة [١].

وجدهم برمك كان من مجوس بلخ ، وقد اشتهر وبنوه بسدانة هذا البيت [٢]، ولقد نالت هذه الأسرة من الحظوة وذيوع الصيت ، الدرجة الكبيرة فى عهد الدولة العباسية منذ قيامها حتى زمن الرشيد[٣].

ولقد اختلفت الروايات حول المنبع الأصلى لهذه العائلة ، فإذا كان هناك من أرجع نسبهم إلى الفرس ، فإن آخر قد أرجعه إلى بنى بهراء بن عمرو بن حافى بن قضاعة [٤]، على حين تفرد مؤلف هندى برد نسبهم إلى الهند بدلاً من فارس ، كما هو متعارف عليه ، واستشهد على ذلك

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٥٤٧/٦ .

(٢) وفيات الأعيان ٢١٩/٦ .

(٣) دائرة معارف القرن العشرين ١٥٣/٢ .

(٤) صبح الأعشى ٣١٧/١ .

بمجموعة من الحجج والبراهين ليثبت بها هذه الحقيقة [١] ، والتي لا تعني من وجهة نظري إلا نعرة قومية أراد المؤلف أن ينسب فضائل البرامكة

---

(١) ثقافة الهند ، المجلد الحادي عشر ، العدد الرابع ، والمؤلف هو احتشام الندوي ، ولندرة هذا الرأي، سأسوق حجج المؤلف وبراهينه ، علها تكون مفتاحاً لمناقشات أخرى تدور حول أصل هذه العائلة ، التي عرف عنها الجميع بأنها من أصل فارسي مع الإحاطة بأن المجلة مترجمة إلى العربية ، فجاءت عربيتها ركيكة ضعيفة يقول المؤلف عبر براهينه التي عددها على النحو التالي مستشهداً على صدق مقولته :

١- لم يكن أي معبد من معابد الفرس الذي يسمى " نوبهار " ولكن تجد كثيراً من معبد بوذه يسمى " نوبهار " حتى كان في السند نوبهار للبوذة في العصر الذي كان نوبهار المذكور في بلخ .

٢- إن الأحوال والتفاصيل التي بينها مؤرخو العرب عن نوبهار في بلخ ، تطابق عن معبد بوذة مطابقة تامة .

٣- قد كتب عن ذلك المعبد " نوبهار " مؤرخ صيني هو أن گنگ ، وأظن أن عصر هوان لنكّ يوافق بالزمان الذي بلغت العرب فيه السند أو كانت تستعد لشن الهجوم عليها .

٤- كتب المسعودي في نوبهار فقال " كان مكتوباً على باب نوبهار بالفارسية من أقوال بوذا سف ، أن أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة خصال العقل ، والصبر ، والمال ، وكان مكتوباً تحته باللغة العربية أن بوذا سف قد أخطأ في قوله لأن من توجد فيه أية خصلة منها قلما يذهب إلى باب الملوك ، وقد قيل إن العرب تقول " البودة " ، بوذاسف ، فلو لم يكن هذا المعبد للبوذة لماذا كان قوله مكتوباً ببابه ؟

٥- البلخ هو بلد من خراسان ، وقد اتفق المؤرخون على أن دين أهل البلخ كان قبل الإسلام " الديانة البودة " ، وكتب ابن النديم نقلاً عن كتاب قديم أن أهل خراسان كانوا يدينون بدين بودة .

٦- وكتب المؤرخون " أن دين عابدى نوبهار كان دين الهند والصين والترك ، وكل امرئ يعلم أن دين الهند والصين والترك لم يكن عبادة النار بل كانوا يقتنون الديانة البودة .

٧- قد نقل ياقوت عن مؤرخ قديم وهو عمرو بن أزرق ، وأظن أن هذا المؤرخ قد عاش فى القرنين الثالث والرابع لأنى أجد فى كتابه عبارة مثل عبارته فى كتاب ابن فقيه ، بأن بلخاً لما افتتحت فى زمن عثمان – رضى الله عنه – ، تقدم رئيس نوبهار إلى عثمان بن عفان – رضى الله عنه – وأسلم أمامه بمحض إرادته وبرغبة منه فلما رجع إلى بلخ سخط الناس عليه وعلى إسلامه فأقالوه وعينوا ابنه خلفاً له فى منصبه . وكتب إليه ملك الترك " ينزل طرخان " أن يرتد عن الإسلام ويرجع إلى دينه القديم . فكتب الرئيس إليه " إنى أسلمت بما أحبه برغبة من نفسى ، وأعتقد أنه من أحسن الأديان ، ولست بتاركه أبداً . فأراد طرخان أن يهجم عليه ولكنه خاف من قوة البرامكة ، ولكن بعد زمن قليل قتله غيلة كما قتل معه عشرة من أبنائه خدعة . فلم يبق فى أسرة هذا الرئيس إلا ولده الأصغر . وإن كان نوبهار معبدا للمجوس وكانت البرامكة تدين بالديانة المجوسية ، فلماذا غضب عليه ملك الترك الذى كان يعتنق بديانة " البودة " ؟!.

٨- وبعد قتل هذا الرئيس وأولاده ، هربت امرأته مع ولده الأصغر من بلخ إلى كاشمير والتجئت إليها : فشب هذا الولد وترعرع فى كاشمير ودرس علم النجوم والطب والهندية الأخرى ، وكان هذا الولد بديانة آبائه ، فاتفق مرة أن شاع الطاعون فى بلخ ، فحسب الناس أن الطاعون قد فشا فيهم لأنهم تركوا دينهم فدعوا هذا الولد من كاشمير وجددوا روح دينهم وجعلوا هذا الشاب إماماً لهم .

٩- وإنى أظن أن هجرة امرأة الرئيس من بلخ إلى كاشمير يرمز إلى أن البرامكة كانت لهم علاقة خاصة بهم ، فيثبت بذلك أنهم كانوا بودة ، وكانت كاشمير مركزاً من مراكز البودة . ولو لم يكن الأمر كذلك لكان أسهل لها أن تلوذ إلى المسلمين أو إلى الفرس . وكيف كان يمكن أن يربى ولد مجوسى فى كاشمير تربية حسنة توافق دينهم ؟ .

المدونة فى كتب الأدب والتاريخ ، إلى الهند بدلاً من فارس ، وعلى أى حال فقد دخل البرامكة فى الإسلام وحسن إسلامهم [١] ، وقد اعتلوا مناصب الوزارة منذ أيام المنصور ، الذى جعل الأمر فى يد خالد بن برمك[٢]،واحتذى به الرشيد فأسند الوزارة ليحيى بن خالد على أن الرشيد جمعته بهم ألفة شديدة وأواصر قوية ، حيث وضع فى حجر يحيى منذ صغره وتربى على يديه حتى كان يناديه بأبت [٣] ، وولد فى شهر واحد مع الفضل ، وكلاهما رضع بلبان أم الآخر ، حتى قال فى ذلك سلم الخاسر :

أصبح الفضل والخليفة هارو ... ن رضيعى لبان خير النساء [٤]

ولندرة هذا الأمر وتفرده ، قال فيه هذا الشاعر متوجهاً بكلامه إلى الفضل :

كفى لك فضلاً أن أفضل حرة ... غذتك بثدى والخليفة واحد [٥]

١٠- ووقعت هذه الواقعة قبل الإسلام ، أما البرامكة بعد إسلامهم فقد أوثقوا هذه الصلة بالهند ودعوا علماء الهندوس إلى العراق وقررت أطباء الهند والبراهمة فى دار الترجمة والمستشفى وبعث وفد إلى الهند لتفتيش الأديان والأدوية . وقد كتب ابن النديم فى كتابه " الفهرست " أن من العرب من أولع بعلوم الهند منهم يحيى بن خالد البرمكى ، وكانت البرامكة تمتاز بحنيتها إلى الهند وعلومها وعلمائها ، فدعوهم إلى بغداد . فلو كانت البرامكة من المجوس لكان لوعهم بفارس لا بالهند .

والآن أثبت أن البرامكة أصلهم من الهند وليس أصلهم من الفرس .

(١) الوزراء والكتاب ١٤٥ .

(٢) نفسه ١٤٥ .

(٣) وفيات الأعيان ٢٢١/٦ .

(٤) الكامل ٥٨٦/٦ .

(٥) نفسه ٥٨٦/٦ ، الفخرى ١٤٩ .

ونشأ الرشيد بين ولدى يحيى الفضل وجعفر ، وقرب منه جعفراً إلى حد أنه كان يدخله معه فى ثوبه ويناديه بأخى [١] ، ولقد تخوف يحيى من أمر هذه الصداقة الوطيدة ، خشية العواقب التى لن تحمد عقباها ، لمعرفته سرعة تقلب السلطان [٢] ، على أن الرشيد استمر على هذه الصلة ، وكثيراً ما صرح بأمر هذا الميل ليحيى ، الذى كان يقول له دائما " أنت للفضل ، وأنا لجعفر " [٣] .

وأراد جعفر أن يخلد علاقته بالرشيد ، فطلب من ابن مناذر الشاعر أن يصورها نظماً فكتب له :

قد تقطع الرحم القريب وتكفر النعمى ولا كتقارب القلبين

يدنى الهوى هذا ويدنى ذا الهوى فإذا هما نفس ترى نفسين [٤]

ولقد تجلت أسمى معانى الصداقة بينهما فى مواقف كثيرة ، منها مثلاً عندما أحس جعفر بضيق الرشيد ، إثر سماعه بنبوءة منجم يهودى أخبره فيها بموته ، فهرع إليه سريعاً ، مستخدماً فطنته فى إزاحة كربة الرشيد ، قائلاً لليهودى " وأنت كم عمرك ؟ قال : كذا وكذا ، أمداً طويلاً ، فقال للرشيد : اقتله حتى تعلم أنه كذب فى أمدك ، كما كذب فى أمده ، فقتله وذهب ما كان بالرشيد من الغم وشكره على ذلك ، وأمر بصلب اليهودى ، فقال أشجع السلمى فى ذلك :

---

(١) الوزراء والكتاب ٢٠٤ .

(٢) نفسه ٢٢٤ - ٢٢٥ ، جمهرة رسائل العرب ٢١٩/٣ - ٢٢٠ .

(٣) نفسه ١٨٩ .

(٤) الأغانى ٢٦/١٧ .

سل الراكب الموفى على الجزع هل رأى ... لراكبه نجماً بدا غير أعور

ولو كان نجم مخبراً عن منية ... لأخبره عن رأسه المتحير

يعرفنا موت الإمام كأنه ... يعرفنا أنباء كسرى وقيصر

أتخبر عن نحس لغيرك شؤمه ... ونجمك بادى الشر يا شر مخبر[1]

وإذا كانت حادثة كهذه تظهر لنا مدى حرص جعفر على سلامة الرشيد وسروره ، وتظهر مدى العلاقة التى تجمع بينهما ، فهناك ما هو أكبر منها بكثير ، ولعل حكاية جعفر مع عبد الملك بن صالح تعطى لنا مثالاً أكثر وضوحاً على مدى تمكن جعفر من الرشيد والارتباط به حتى إنه يمتلك حق التصرف فى شئونه الخاصة . فقد طلب الرجل منه صفح الرشيد عنه ، ويدفع له أربعة آلاف درهم من ماله ، وأن يزوج ولده من ابنته ، ويوليه مصر ، كل هذه الأمور طلبت من الرشيد عبر جعفر ، الذى رفعها إليه بعد أن طمأن الرجل بشأن تنفيذها جميعاً وطابق وعده سرعة موافقة الرشيد على كل ما وعد به ، الأمر الذى أصاب الحاضرين بدهشة شديدة لتجرؤ جعفر عليه إلى هذا الحد اللافت للنظر[2] .

وإذا كان الرشيد قد أحب جعفراً إلى هذه الصورة التى رأيناها ، فقد كان أيضاً يكن مزيداً من الاحترام والتقدير إلى يحيى البرمكى ؛ الذى لولاه لقتل الرشيد وأخذت منه البيعة ، فلحنكته السياسية ، وأسلوبه المنطقى

---

(١) مرآة الجنان ١/٤٠٥ .

(٢) الوزراء والكتاب ٢١٢ ، العقد الفريد ٥/٣٠١ ، الأغانى ٥/١١١ ، وفيات الأعيان ٣٣٠ ، الفخرى ١٥٢ ، مرآة الجنان ١/٤٠٥ .

الفضل الأول فى إقناع الهادى بالإقلاع عن فكرته بتولية العهد من بعده لابنه وخلع الرشيد - كما قلنا من قبل - فحفظ له بذلك حقه فى الخلافة.

لذا كان من المنطقى أن يكون أول قراراته بعد أن اعتلى خلافة المسلمين وتسلم مقاليد الأمور فى مملكته إحضار يحيى قائلاً له " يا أبت ، أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك ، وحسن تدبيرك وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت ، وافرض من رأيت ، وأسقط من رأيت ، فإنى غير ناظر معك فى شئ " (١) .

هكذا ألقاها الرشيد تبعة ثقيلة على والده البرمكى ، مطلقاً يده فى كل شئ من شئون الخلافة ، إلا أن يحيى أشرك ولديه فى العمل فأصبحت الوزارة برمكية شكلاً وموضوعاً ، ولشدة تعلق الرشيد بجعفر زاد له مع الوزارة خاتم الملك وقال له " يا أخى يا جعفر ، قد أمرت لك بمقصورة فى دارى ، وما يصلح لها من الفرش وعشر جوار ، .. ثم انصرف جعفر وقد خلع عليه وحمل بين يديه مائة بدرة دنانير ومائة بدرة دراهم ، وأمر الناس بالركوب إليه ، والسلام عليه ، وأعطاه خاتم الملك وأمره أن يختم به كيف أراد بأمره ورضاه " (٢) .

ولقد بذل يحيى وولداه مزيداً من الجهد من أجل الإخلاص للرشيد ومملكته ، حتى إنهم كانوا " يجلسون للناس جلوساً عاماً فى كل يوم إلى انتصاف النهار ، ينظرون فى أمور الناس وحوائجهم ، لا يحجب عنهم أحد

---

(١) تاريخ الطبرى ٢٣٣/٨ - ٢٣٤ ، الوزراء والكتاب ١٧٧ .

(٢) النبراس ٣٨ - ٣٩ .

ولا يلقى لهم ستر "[١] وقد استطاعوا القيام بأعمال جليلة وبخاصة يحيى الذى " سد الثغور ، وتدارك الخلل ، وجبى الأموال وعمر الأطراف وأظهر رونق الخلافة ، وتصدى لمهمات المملكة "[٢] كل هذه الأمور جعلت الرشيد يثنى عليه وعلى أعماله ويلقبه بالسلطان وهو اسم خاص بالملوك إلا أنه أطلقه عليه تعظيماً له ، وإكبارا لجليل أعماله ، التى اتجهت لصالح المملكه وإعلاء لاسم الحاكم الجديد ، وهذا الاسم هو الأول من نوعه ، فلم يعرف أن أحداً أطلق عليه ذلك من قبل خالد بن برمك[٣] .

ولقد أشاد أبو القاسم بن يوسف بأعمال يحيى وجهوده ونصائحه المخلصة للخليفة فقال :

رفع الله بالخليفة يحيى	وبيحيى كسا الخلافة نورا
رجل ناصح أمين على الملـ	ـك يجيد التمييز والتدبيرا
بسط الله بالعطايا يديه	فحبا معدماً وأغنى فقيرا
ليس يبقى على الزمان سوى الذكـ	ـر فلازلت بالندى مذكورا
نصح الله والخليفة يحيى	وبرفق منه يمشى الأمورا[٤]

وعلى الرغم من كل الأعمال الجليلة التى قام بها يحيى وولداه ، والألفة التى تجمع بين الرشيد وجعفر والتى وصلت إلى حد كبير ، إلا أن الرشيد وبدون

---

(١) الوزراء والكتاب ١٧٧ .

(٢) الفخرى ١٤٦ .

(٣) صبح الأعشى ٥/٤٤٧ .

(٤) الأوراق ١٥٦ .

سابق إنذار أنزل سخطه وغضبه على البرامكة ومن والاهم ، الأمر الذى تحير على إثره الجميع.

وتبدأ النكبة بهواجس بين الرشيد ونفسه ، أثناء تعلقه بأستار الكعبة حيث سمعه مسرور الخادم ، وهو يناجى ربه قائلاً " اللهم إنى أستخيرك فى قتل جعفر بن يحيى " [١] ولحيرته وقلقه بدأت تظهر عليه علامات التعب والعزوف عن الطعام ، حتى تحير طبيبه فى أمره [٢].

بيد أنه بدأ يفكر فى أمر البرامكة بصورة جدية قبل سنة من إقدامه على نكبتهم ، وقد باح بأول خيوط سره إلى السندى بن شاهك والى الجسرين ببغداد ، قائلاً له عندما استقدمه " إذا كان بعد سنة من يومك هذا فوكل بدور البرامكة وأسبابهم سراً " [٣] ، على أنه لم يظهر تغيراً يذكر فى تعامله مع جعفر ، بل ظل على حاله معه من الود والألفة حتى يوم مقتله الذى أنهاه بالاعتذار له لمفارقته من أجل خلوه بحريمه ، طالباً منه الرحيل من ساعته على أمل فى لقاء باكر ، إلا أنه أرسل عقبه مسرور الخادم ليجتذ رأسه ، بينما وقف جعفر موقف المتأمل غير المصدق ، طالباً من مسرور التحقق من الأمر حتى لا يأخذه بغير ذنب إلا أن مسروراً لم يمتثل لكلامه ، وضرب عنقه ، وأتى بها للرشيد ، وذلك فى سنة سبع وثمانين ومائة [٤]. ثم

---

(١) التاج فى أخلاق الملوك ٦٦ .

(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ١٩٦ .

(٣) الوزراء والكتاب ٢٣٦ .

(٤) الوزراء والكتاب ٢٣٤ - ٢٣٥ ، الأغانى ٥٢/١١ ، العقد الفريد ٢٩٦/٥ ، الكامل ١٧٧/٦ ، تاريخ المسلمين ١١٧ ، وفيات الأعيان ٣٣٧/١ ، تاريخ ابن خلدون ٤٧٢/٣ .

أنفذ الرشيد بعد ذلك من قبض مال البرامكة وعقاراتهم وضياعهم بالعراق وكانت مدتهم فى الوزارة سبع عشرة سنة [١] ، ولم يكتف بذلك بل أمر بالتنكيل بجثة جعفر ونصب رأسه على جسر بغداد بعد تقطيع بدنه قطعتين مع حبس يحيى والفضل ، ثم أمر بعد عودته إلى العراق بإحراق جثة جعفر [٢] .

وتحدث النكبة المفاجئة بلبلة فكرية بين المؤرخين وأهل الأدب والمعاصرين للرشيد ، أولئك الذين شاهدوا مجد البرامكة ، وعرفوا الأواصر القوية التى كانت تربط الرشيد بهم ، مما أوقعهم فى حيرة لمقابلة الرشيد إخلاصهم بالتنكيل والتبديد ، دون أن يظهر لذلك أسباباً من هنا تخبطت آراؤهم ، واختلفت وجهات نظرهم ، فكل حاول أن يجد مبرراً شافياً لتصرف الرشيد هذا ، وبخاصة مع جعفر البرمكى صديقه الحميم .

ولكى يصبح الموضوع أكثر وضوحاً ، سنسوق الآراء التى قيلت حول هذه النكبة ، ثم نناقشها بعد ذلك من أجل محاولة الوصول إلى الأسباب الحقيقية التى كانت وراء صنيع الرشيد هذا .

يرى أصحاب الرأى الأول أن الرشيد نكب البرامكة بسبب أخته العباسة التى كان يحبها ، ويطيل المكث معها ، ولكونه لا يطيق فراق جعفر فإذا به يجمع بينهما بالزواج ، حتى يستطيع أن يجمعهما فى مجلسه الذى لن يتحمل غياب واحد منهما عنه ، وكان أمر الزواج على شريطة ألا يقرب

---

(١) الكامل ١٧٨/٦ ، تاريخ المسلمين ١١٧ .

(٢) نفسه ١٩٢/٦ .

جعفر العباسة ، بل يحل له النظر إليها فقط ، على أن جعفراً قد أخل بالشرط فجامع العباسة ، فأنجبت منه ولداً ، ولخوفها من بطش الرشيد ، أخفته عند حاضنة لها بمكة ، إلا أن الموضوع برمته قد وصل إليه ، ففتك بجعفر بخاصة والبرامكة بعامة[١] ، ويقال إن العباسة قد أرسلت إلى جعفر بهذه الأبيات قبل مواقعته إياها فأغرته بها على مجامعتها قائلة ومعترفة بحبها له :

عزمت على قلبى بأن يكتم الهوى فصاح ونادى إننى غير فاعل
فإن لم تصلنى بحت بالسر عنوة وإن عنفنى فى هواك عواذلى
وإن كان موت لا أموت بغصتى وأقررت قبل الموت أنك قاتلى[٢]

وهناك من أرجع أمر نكبتهم إلى أن جعفراً قد أطلق سراح يحيى ابن عبد الله ابن الحسن وآمنه ، بعد أن دفعه إليه الرشيد وطلب منه حبسه لخطورته ، ثم سأله عنه إثر معرفته نبأ هربه ، فأنكر غيابه وأخبره بوجوده فى السجن فأضمرها له[٣] .

ويقال أيضاً إن من الأسباب القوية لنكبتهم ، ما سمع من يحيى البرمكى وهو متعلق بأستار الكعبة ، متوجهاً إلى الله قائلاً " اللهم إن كان رضاك أن تسلبنى نعمتك عندى فاسلبنى ، اللهم إن كان رضاك أن تسلبنى

---

(١) الكامل ١٧٥/٦ ، وفيات الأعيان ٣٣٢/١ ، مرآة الجنان ٤٠٨/١ .

(٢) شذرات الذهب ٣١١/١ .

(٣) الكامل ١٧٥/٦ ، تاريخ المسلمين ١١٦ ، وفيات الأعيان ٣٣٤/١ ، الفخرى ١٥٥ ، مرآة الجنان ٤١٠/١ .

مالى وأهلى وولدى فاسلبنى ، إلا الفضل ، ثم ولى "[١] .

وهناك من أرجع نكبتهم إلى زندقتهم ، وعدم احتفالهم بالإسلام وتعاليمه[٢] ، ويقال أيضاً إن الرشيد رغب فى شراء جارية ، فحجب عنه يحيى المال لغلو ثمنها ، فأضمرها فى نفسه ، واعتبرها جرأة عليه وكانت من أسباب نكبتهم[٣] ، وهناك من أرجعها لوشاية الفضل بهم عند الرشيد[٤] ، ويقال أيضاً إنهم أظهروا الإدلال بصورة لا تحتملها الملوك فجاءت نكبيتهم[٥] .

هذه هى الآراء التى قيلت حول نكبة البرامكة ، والتى حاول المؤرخون من خلالها إيجاد مبرر واضح لنكبتهم ، ولعل أمر هذه الكثرة يوحى لنا بمدى التعثر البادى عليهم جميعاً ، فى محاولة جادة لإيجاد منفذ يدلهم على سبب من أسباب النكبة ، مما يدعو إلى القول بأن أمر النكبة قد حاطه سرية كاملة ، لذا تعددت المذاهب وتفرقت للبحث عن سبب عله يطابق الواقع .

لكننا لو حاولنا مناقشة هذه الأمور ، لوجدناها تبتعد كثيراً عن الأسباب الحقيقية وراء هذه النكبة ، فبالنسبة للأمر الأول ، وهو تزويج الرشيد لأخته العباسة من جعفر - هذه النقطة بالتحديد - وقف منها

---

(١) الكامل ١٧٥/٦ ، وفيات الأعيان ٣٣٦/١ .

(٢) الفهرست ٤٧٣ ، دائرة المعارف الإسلامية ٥٥١/٦ .

(٣) تاريخ الطبرى ١٣٢/٣ .

(٤) الوزراء والكتاب ٢٤٩ ، وفيات الأعيان ٣٧/٤ .

(٥) الفخرى ١٥٦ ، المخلاه ١٥٨ .

المحدثون والقدماء ما بين مؤيد ومعارض ، وممن أيدها فى عصرنا المستشرق رينولد نكلسن وأقام تأييده على أن أمر القتل لم يقع إلا على جعفر فقط ، من هنا فالنكبة كانت مدبرة من أجله لفعلته تلك مع العباسة [1] .

بينما وقف فى الطرف المقابل ابن خلدون ، الذى دافع عن العباسة ضمن حديثه عن الحكايات المدخولة للمؤرخين ، والتى يتناقلونها دون تمحيص ودراسة ، حيث قال متوجهاً بكلامه إليهم ، مصححاً نقلهم بصدد هذا الموضوع هيهات ذلك فى منصب العباسة فى دينها وأبويها وجلالها ، وأنها بنت عبد الله ابن عباس ، ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال ، هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده . والعباسة بنت محمد المهدى بن عبد الله أبى جعفر بن أبى جعفر المنصور ابن محمد السجاد بن على أبى الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ~~ابن العباس عم النبى ﷺ~~ . ابنة خليفة أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإقامة الملة ونور الوحى ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهد ببداوة العروبية وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ، وموانع الفواحش فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ، وأين توجد الطهارة والذكاء إذا فقد من بيتها ، أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى ، وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم ... وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى مولى الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه ، ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف ، وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها

---

(١) انظر ذلك فى تاريخ الأدب العباسى .

عن مثله مع مولى من موالى دولتها فى سلطان قومها ، واستنكره ولج فى تكذيبه ، وأين قدر العباسة والرشيد من الناس " (١) .

يتضح لنا عبر هذا الدفاع أن ابن خلدون قد أقام دعواه على دعامتين : إحداهما دينية ، والأخرى عرقية نسبية ، حيث أدرك أن العباسة بما تملكه من تسلسل نسبى دينى يصل إلى العباس عم الرسول وولاية أجدادها أمور المسلمين من الصعب عليها الإقدام على هذا الخطأ الفاحش ، يضاف إلى ذلك عراقة العربية بداخلها ، التى تمنعها من أن تدنس شرفها العربى بالزواج من أعجمى ، على أن ابن خلدون قد نسى شيئاً هو أن غريزة الحب والجنس ، هما السيادة على أشياء كثيرة منها عراقة النسب والأصل ، حيث نفى عن العباسة بدفاعه السابق ، كونها امرأة تمتلك مشاعر أنثى ، تبحث من خلالها عن الحب .

وإذا كنت أتفق معه فى جانب من دفاعه ، فإننى أضيف أن الرشيد - فى اعتقادى - يمتلك رجاحة من العقل ونضجاً فى التفكير يفوق كثيرا هذا التصرف الصبيانى البعيد عن المنطق تماماً ، فمن له دراية بالفقه وتعمق فى الدين كالرشيد ، لا يعقد زواجاً على هذه الصورة ، التى إن دلت على شئ فإنما تدل على ضعف عقلى وسوء تصرف . ولقد نفى مسرور الكبير ، وهو أقرب ما يكون إلى الرشيد أن يكون سبب نكبة البرامكة راجعاً إلى العباسة ، وذلك عندما سئل عن هذا الموضوع أيام المتوكل بعد أن عمر حتى استخلافه (٢) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون الجزء الأول ١٥ .

(٢) الوزراء والكتاب ٢٥٤ .

أما بالنسبة لقولهم بأن نكبة البرامكة تعود إلى موقف جعفر بن يحيى ابن عبد الله وإطلاق سراحه ، فمن المعروف عبر حديثنا الماضى الذى عرضنا فيه لموقف الرشيد من شيعة على ، أنه أسند أمر يحيى إلى الفضل وليس إلى جعفر ، وأن الفضل عقد معه أماناً أشهد عليه الناس والفقهاء ، وعاد به إلى الرشيد الذى أكرمه عند استقدامه ، ثم نقض أمانه معه وقتله بعد ذلك .

أما ما يعود لدعاء يحيى بالكعبة ، فأعتقد أنه من الأشياء التى تستدعى الغرابة والتهكم ، لا الحزم وإبداء الرأى ، فهل وصل يحيى إلى هذه الدرجة من النقاء مع الله حتى يتقبل منه الدعاء بهذه السرعة ، وعلى هذا الوجه المطابق لواقع النكبة تماماً ، إن النحل ظاهر جداً فى هذا الدعاء ، حيث استطاع الواضع أن يصوغ دعاء ، يغلف يحيى بالطهارة والنقاء ، بالإضافة إلى أنه استثنى من أمر هذا الدعاء الفضل ، الذى لم يقتل كجعفر.

على أننا نفترض صحة ما سبق ، وأن الله قد استجاب ليحيى فما السر فى أنه عبر دعائه طلب سلب النعمة عنه مستثنياً منها الفضل ؟ هل هذا يعنى أنه كان يحب ولداً دون آخر ، فمن المعروف عنه أنه كان كثير الفخر بأولاده والحب لهم ، وماذا فعل له جعفر حتى يذهب ضحية ذنوبه؟!

أما ما يعود إلى زندقتهم وعدم احتفالهم بالإسلام وتعاليمه ، فهذا لن يكون بعيد المنال عن عين الرشيد ، فمن المعروف عنه أنه كان شديداً مع الخارجين على الدين ، وسيظهر لنا ذلك فى حديثنا عن الجانب الدينى عنده ، ولو عرف عنهم ذلك ما تركهم سبعة عشر عاماً وهم على هذا الداء .

وبالنسبة لطلبه جارية وإعراض يحيى عن ذلك ، أعتقد أن أمر النكبة أكبر بكثير من أن تكون جارية سبباً لحدوثه ، ونكبة عائلة بأسرها ما بين قتل وسجن وتبديد للأموال والضياع وتعقب للمناصرين لهم .

أما موقف الفضل بن الربيع منهم ، وإيقاعه بهم عند الرشيد ، فلا يعقل أن الرشيد كان بهذه السذاجة ، حتى يصدق ما يقال له عن أسرة تفانت فى خدمته ، وازدهرت الدولة على يديها ، وكل ذلك ظاهر رأى العين مما يجعل من الوشاية سبباً واهياً لا يعتد به .

وعلى هذا فالباحث يرى أن هناك أسباباً حقيقية تختلف عما سبق ، وكانت وراء هذه النكبة التى حلت بالبرامكة ، والتى تبدأ منذ أن اعتلى الرشيد حكم البلاد ، ثم تسليمه الوزارة للبرامكة بموجب نص مؤداه أن يحكم يحيى بما يرى دون الرجوع إليه ، وأن يستعمل على البلاد من يشاء ويعزل من يشاء ، وهو مطلق اليد .

وعهد كهذا كفيل بأن يحرك فى نفس يحيى أشياء لم يكن يتوقعها الرشيد فى بادئ الأمر ، حيث أحس فى بداية حكمه بأنه يسلم البلاد لشخص يثق به ، بعد تلك المواقف العظيمة التى جمعتهما ، وتشهد على مدى حرصه عليه إلا أنه شعر بعد ذلك بفداحة صنيعه هذا ، بعد أن أدرك أن مقاليد الأمور لم تصبح فى متناول يديه ، بل أصبح يحيى ونسله هم كل شئ فى الوقت الذى أصبح هو فيه لا شئ ، بل أصبح غريباً فى مملكة من المفروض أنه حاكمها الفعلى وأصبح البرامكة هم أصحاب الحق الفعلى فى إدارة البلاد وحكمها ، ومن نماذج ذلك أن ديوان الخراج كان يؤرخ باسم

يحيى بن خالد [١] وامتلأت مناصب الدولة بأقاربه وكأنه يعد العدة حتى تصبح الوزارة وراثية [٢] ، وبدأ ينظر في أمور الناس التي توافدت عليه ليفصل في مظالمها دون الرشيد ؛ الذي شعر بحرج الموقف وهانت عليه نفسه ، فبث شكواه إلى طبيبه بعد أن سب يحيى قائلاً عنه " استبد بالأمر دوني وأمضاها على غير رأيي ، وعمل بما أحبه دون محبتي " [٣] ، يضاف إلى ما سبق أنه امتلك وأهله من الأموال والضياع ما ليس للرشيد مثلها حتى بلغت غلته وابنه جعفر ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة [٤] في الوقت الذي كان يحتاج فيه الرشيد للمال اليسير فلا يقدر عليه [٥] .

وكثرة هذه الأموال والضياع قد تركت في نفسه شيئاً ليس بالقليل فقد علم بأن يحيى بنى لنفسه قصراً وكذلك الفضل [٦] ، وابتنى جعفر داراً غرم عليها عشرين ألف ألف درهم [٧] وكان كلما مر بمكان أثناء سفره ، فيه ضيعة أو بستان إلا قيل له هذا لجعفر [٨] حتى أنه ضجر بهذا كله معلناً

---

(١) السابق ١٧٨ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٥٥٦/٦ .

(٣) الفخرى ١٥٥ .

(٤) تاريخ التمدن الإسلامي ١٠٢/٥ .

(٥) مروج الذهب ٣٦٨/٣ .

(٦) الوزراء والكتاب ١٨٩ .

(٧) الكامل ١٧٦/٦ ، تاريخ المسلمين ١١٦ ، النجوم الزاهرة ١١٥/٢ .

(٨) وفيات الأعيان ٤٧٣/١ .

سخطه عليه قائلاً لرفيقه في السفر " انظر إلى البرامكة أغنيناهم وأفقرنا أولادنا وأغفلنا أمرهم " [١].

ولم يقف جعفر عند حد بناء القصور وامتلاكها ، بل كان يضرب دنانير عليها صورة وجهه ، وكأنه هو الخليفة ، حتى قال في ذلك أبو العتاهية :

وأصفر من ضرب دار الملوك يلوح على وجهه جعفر
يزيد على مائة واحداً متى تعطيه معسراً يوسر [٢]

ولعل أمر هذا المال وتلك الثروة التي كان يمتلكها البرامكة ، كانت هي الشاغل الأول للرشيد ، سواء في حياتهم أو بعد نكبتهم ، فبعد أن قتل جعفراً وسجن يحيى والفضل ، أرسل مسروراً إلى الفضل في سجنه ليعرف منه مقدار ما يمتلكونه من مال [٣] ، وكم انتابته الدهشة عندما علم منه أنه لم يجد في خزانتهم شيئاً ، فإذا به يصيح قائلاً " وكيف وقد نهبوا مالي ، وذهبوا بخزائني " [٤].

ويبدو أن العامة قد عرفت هذه الأشياء ، وتناقلتها فيما بينهم ، ويقال إن قصة رفعت إليه تحمل هذه المعاني دون ذكر صاحبها ؛ الذي

---

(١) إعلام الناس ٩١ .

(٢) تاريخ بغداد ١٥٦/٧ .

(٣) وفيات الأعيان ٣٣/٤ ، مرآة الجنان ٤٤٠/١ .

(٤) الوزراء والكتاب ٢٤٢ .

توجه بحديثه إليه عبر أبياته موضحاً له موقف يحيى من الحكم ، وكيف آلت إليه البلاد ، وأصبح هو الحاكم الفعلى ، بالإضافة إلى ماله من ضياع وديار ، ناصحاً فى النهاية ومحذراً الرشيد من الآثار التى ستترتب على هذا إذ ترك الموقف على ما هو عليه قائلاً :

قل لأمين الله فى أرضه ... ومن إليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا ... مثلك ، ما بينكما حد
أمرك مردود إلى أمره ... وأمره ليس له رد
وقد بنى الدار التى ما بنى الـ ... ـفرس لها مثلاً ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها ... وتربها العنبر والند
ونحن نخشى أنه وارث ... ملكك إن غيبك اللحد
ولن يباهى العبد أربابه ... إلا إذا ما بطر العبد [١]

ألا يكفى ما سبق كله فى أن ينكب الرشيد البرامكة ، على أن كل ما تعرضنا له كانت صورتهم التى ظهرت له فى مجال السياسة ، حيث وضح أمامه كيف قسموا بينهم الوظائف وامتلكوا زمام الحكم ، وابتنوا لأنفسهم الديار ، وورثوا الضياع ، وكيف أنه استاء لذلك كله ، وبخاصة بعد أن أحس أن العامة قد عرفت أن خليفتهم لم يعد إلا خيال ظل ، ليس له فى الحكم إلا الكرسى والقصر.

ولقد هال الرشيد أيضاً حياتهم الاجتماعية ، بقدر ما هاله مواقفهم من الحكم واستئثارهم به ، حيث قربوا إليهم الشعراء ، أولئك الذين كانوا يتسارعون إلى دورهم لمدحهم ، والنيل من عطاياهم ، ولو كان الأمر

(١) وفيات الأعيان ١/ ٣٣٥ - ٣٣٦ ، مرآة الجنان ١/ ٤١١ ، شذرات الذهب ١/ ٣١٢.

مقتصرا على شاعر واحد ما راعه هذا ، وما جعله يحس فى داخله بالغيرة الشديدة منهم ، بل تعدى إلى أبعد من ذلك ، حيث مدحهم نخبة من شعراء عصره كمسلم بن الوليد ، وأبان بن عبد الحميد والرقاشى ، وابن مناذر ، وأبى محمد عبد الله بن أيوب ، وسلم بن عمرو الخاسر ، ومروان ابن أبى حفصة ، ونصيب ، وأبى حفص الشطرنجى ، وهؤلاء جميعا كانوا يمدحونه أيضاً ، مما جعله يحس بأنه ليس هو الممدوح الوحيد فى مملكته ، بل هناك من يشاركه فى أمر هذا المدح ، ويأخذ من حقه مالا يستحق من العظمة والرفعة ، حيث من المعروف عنه أنه كان يحب المدح ويطلبه .

وإذا كانت هذه الكوكبة من الشعراء قد مدحتهم بعامة ، فهناك منهم من اختص بمدح واحد من آل برمك دون غيره ، كسلم الخاسر الذى غلب على الفضل بن يحيى ، ونظم قصائد عديدة فى مدحه [١] ، وأبان الذى مدح جعفراً ويحيى بن خالد ، حتى قلده يحيى ديوان الشعر [٢] .

ولقد زاد الرشيد ضيقاً تلك العطايا التى كان البرامكة يهبونها للشعراء ، حيث كان مجموع ما وصل سلم الخاسر من مديحهم عشرين ألف دينار [٣] ، وما أخذه أبان عن نظمه كتاب كليلة ودمنة شعراً مئة ألف درهم [٤] ، حتى حسده مروان شاعر الرشيد ، وشكا لبعض إخوانه إمساك

---

(١) الوزراء والكتاب ٢٠٤ .

(٢) نفسه ٢١١ .

(٣) الأغانى ٢١/٧٧ .

(٤) الوزراء والكتاب ٢١١ .

يد الرشيد عنه ، ضارباً المثل بمقدار ما يحصله هو في مقابل ما يأخذه أبان من البرامكة [١] .

ولقد كان الشعراء يدخلون عليهم بقصائدهم التي يطلبون عبرها العطاء فيستمعون إليهم ، ثم يزيدون على ما يريدون ، ومن أمثلة ذلك ما أعطاه يحيى لشاعر تعرض له طالباً هبته ، بعد أن علم أن يحيى كان يصل كل من يتعرض له بمائتي درهم ، بيد أنه كان في حاجة إلى أكثر من ذلك ، فصاغ له هذا شعراً قائلاً له :

يا سمي الحصور يحيى أتيحت ... لك من فضل ربنا جنتان

كل من مر في الطريق عليكم ... فله من نوالكم مائتان

مائتا درهم لمثلي قليل ... هي منكم للقابس العجلان

فصدقه يحيى ، وعلم منه أنه مقبل على زواج ، فأمر له بأربعة آلاف للمهر ومثلها لثمن المنزل ، وأخرى لما يحتاجه المنزل ، ورابعة للبنية ، وخامسة يستظهر بها فكان مجموع ما أخذ عشرين ألفا [٢] .

ويدخل أبو قابوس النصراني الحيري في يوم عيده على جعفر ، شارحاً له وطالباً منه إجابة مطالبه التي ضمنها شعره بصورة ذكية لطيفة قائلاً :

أبا الفضل لو أبصرتنا يوم عيدنا ... رأيت مباهاة لنا في الكنائس

فلو كان هذا المطرف الخَزُّجَبَّةً ... لباهيت أصحابي به في المجالس

فلابد لي من جبة من جبابكم ... ومن طيلسان من جياد الطيالس

---

(١) الأوراق ٦ ، الأغاني ٧٣/٢٠ .

(٢) وفيات الأعيان ٢٢٣/٦ .

ومن ثوب قوهي وثوب غلالة ... ولا بأس لو أتبعت ذاك بخامس

إذا تمت الأثواب في العيد خمسة ... كفتك فلم تحتج إلى لبس سادس

لعمرك ما أفرطت فيما سألته ... ولا كنت لو أفرطت فيه بيائس

وذاك لأن الشعر يزداد جده ... إذا ما البلى أبلى جديد الملابس

فإذا به يوجه إليه عشر قطع من كل صنف مما ذكر في القصيدة [١] .

وإذا كانت العطايا السخية هي ما ميز البرامكة ، لذا أطنب الشعراء في مدحهم بالكرم والجود والسخاء ، واتجهت هذه القصائدالى سمتهم جميعا بهذه الصفات ، يضاف إليها إظهار ما هم من سداد في الرأي ، وقوة الشكيمة ، وحسن الإدارة ، إلى غير ذلك من الصفات التي كان يمدح بها الرشيد ، والذي كان يزداد ضغينة إثر سماعه بأخبار هذا المديح ، ومن أمثلة ذلك ما قيل في جود الفضل على لسان أحد الشعراء :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ... ترك الناس كلهم شعراء [٢]

وما قيل في جعفر وتفرده بالعطايا ، التي لا يصل حتى إليها الملوك ، على لسان أشجع السلمي :

يحب الملوك ندى جعفر ... ولا يصنعون كما يصنع

وليس بأوسعهم في الغنى ... ولكن معروفه أوسع

وكيف ينالون غاياته ... وهم يجمعون ولا يجمع [٣]

---

(١) الوزراء والكتاب ٢١٠ .

(٢) نفسه ١٩٥ ، ثمار القلوب ٢٠٣ .

(٣) نفسه ٢١٥ ، وفيات الأعيان ٤٧٥/١ .

وما قاله أشجع فيه أيضاً ، مؤكداً جوده ، مثنياً على سمات أخرى فيه ، كمنطقه العذب ، ورجاحة عقله ، مبشراً بصلاحيته لسياة الناس بعد الرشيد ، وذلك من خلال قوله :

ذهبت مكارم جعفر وفعاله   فى الناس مثل مذاهب الشمس

ملك تسوس له المعانى نفسه   والعقل خير سياسة النفس

فإذا تراءته الملوك تراجعوا   جهر الكلام بمنطق همس

ساد البرامك جعفر وهم الأولى   - بعد الخليفة - سادة الأنس [(١)]

وأيضاً ما قاله فى جود يحيى ، وكيف أنه متوارث وليس بجديد عليه ، وذلك عندما أنشده :

سألت الندى هل أنت حر فقال لا   ولكننى عبد ليحيى بن خالد

فقلت شراء قال لا بل وراثة   توارثنى من والد بعد والد[(٢)]

ولأن أمر هذه القصائد كان يصل إلى الرشيد فكان يزداد على إثرها حزناً ، لأنه أحس أن البرامكة من خلال شعر الشعراء جاءوا سادة كراما ، اتسمت عطاياهم بالكثرة وارتفع لذلك صيتهم وذاع ، حتى عندما كان يجتمع معهم فى مكان واحد تتجه الأشعار إلى مدح صنائعهم وإظهار عطاياهم ، ويظل هو على هامش الصورة ، كشخصية ثانوية بجوار أبطال .

فعندما حج معهم ، قيل فيهم من الشعر الكثير ، كقول ابن مناذر الذى تناولهم عبر شعره بالمديح والثناء :

---

(١) الأوراق ٧٨ .

(٢) ثمرات الأوراق ١٢٧/١ ، المخلاه ٩٤ .

أتانـا بنـو الأمـلاك من آل برمـك ... فياطيب أخبـار ، ويا حسن منظر
لهـم رحلـة فى كل عـام إلى العدا ... وأخرى إلى البيت العتيق المشـهر
فتظلـم بغـداد ويجلـو لنـا الدجى ... بمكـة مـا حجـوا ثلاثـة أقمـر
إذا نزلـوا بطحـاء مكـة أشرقـت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعـفر
فما خلقـت إلا لجـود أكفهـم ... وأقدامهـم إلا لأعـواد منبـر
إذا راض يحيى الأمر ذلت صعابـه ... وحسبـك من راع لـه ومدبـر[(١)]

وعندما استطاع الفضل أن يعقد أمانا مع يحيى بن عبد الله اتجهت الأشعار تمدح الرشيد فى ظاهرها ، مع أنها فى الأغلب الأعم تشيد بصنيع الفضل وبأسه وشكيمته[(٢)] . وتهيج العصبية بالشام ، فيرسل الرشيد جعفراً ؛ الذى استطاع إعادة الأمن إليها من جديد ، بعد أن شخص إليها فى جملة من القواد وأصلح بين الناس ، فإذا الأشعار تتجه إليه ، مادحة موقفه هذا ، وإذا نظرنا إلى قصيدة نظمها مسلم بن الوليدفى مدح جعفر ، وحاولنا أن نحصى عدد أبياتها التى مدحت الرشيد بالقياس إلى جعفر ، نجد فارقاً واضحاً نؤكد به كلامنا هذا[(٣)] .

وعلى هذا المنوال صار الوضع بالنسبة للبرامكة ، فى الوقت الذى ظل فيه الرشيد على مدار سبعة عشر عاماً يحصى أعمالهم ويسجلها ، حتى وجد نفسه بين حجرى رحى ، إما أن يستسلم للوضع الذى أمامه ويصبح خليفة ليس له من الخلافة سوى الاسم ، وإما أن يثأر لنفسه فيأتى عليهم جميعاً بعد أن تبين له أن مقاليد الأمور أصبحت فى أيديهم ، وأنهم جمعوا

---

(١) زهر الآداب ٤٢٤/٢ ، الفخرى ١٤٨ - ١٤٩ ، المستطرف ٢٣٥/١ .

(٢) انظر فى ذلك الأوراق من ص ١٥ - ٢١ .

(٣) شرح ديوان صريع الغوانى ٢٤٩ - ٢٥٢ .

الأموال واكتنزوها دونه ، وأقاموا لأنفسهم الدور والضياع وتركوه ، ومدحوا كما يمدح ، واتجه إليهم الشعراء كما يتجه إليه ، وعرضوه للحرج من كثرة عطاياهم ، من هنا تحرك سريعاً ، فجاء قاسياً شديداً ، فنظر إلى جعفر الممدوح السابق والمؤهل على لسان الشعراء بالخلافة وسيادة الناس من بعده فقتله ، وسجن يحيى وولده الفضل ، حيث أحس أن خطرهما أقل شأناً من جعفر ، وحصل أموالهم وضياعهم ، مستريحاً بذلك من عناء لازمه طوال فترة حكمهم واعتقد أن هذه كانت وراء الأسباب الحقيقية للنكبة .

على أن ما شغل باله بعد ذلك هو رأى العامة ، أولئك الذين شاهدوا جثة جعفر على الجسر دون أن يعرفوا ما هى الأسباب الحقيقية وراء هذا الصلب ، ولأن الرشيد كان من الصعب عليه أن يخبرهم بالأسباب الفعلية تحرجاً من موقفه ، حيث كان من الصعوبة بمكان أن يصرح بأنه ثأر لنفسه بعد أن أحس بأنه بجرد خيال ظل ، خشية الاستخفاف به ، لذا أودع سره فى نفسه ولم يصرح به حتى لأقرب المقربين إليه كأخته علية ، التى سألته عن سر نكبته للبرامكة فأجابها نافياً " لو علمت أن قميصى يعلم السبب فى ذلك لمزقته " [١] . ولعل هذه الإجابة تثبت صحة ما قلناه ، فليس الرشيد على هذه الغفلة حتى يقدم على ما صنع دون أن يدرى ما هو الهدف منه ، ولكن إذا كان الهدف إخفاء حرج ، فمن المعقول قبول ما قاله لأخته .

ولأمر هذا الإخفاء جاء التخبط الذى أوردناه فى صدارة هذه الصفحات على لسان المؤرخين وأهل الأدب والمعاصرين لزمنه ، فى محاولة

---

(١) وفيات الأعيان ١/٣٣٦ ، مرآة الجنان ١/٤١١ .

متعثرة للبحث عن أسباب تقترب من عالم الواقع وتكون معللة لنكبة البرامكة ، والتى على إثرها مباشرة بدأ الرشيد يستعيد مع نفسه أسبابها ووقائعها ، والتىَ لخصها للأصمعى فى هذه الأبيات عندما أرسل فى طلبه قائلاً له :

لو أن جعفر خاف أسباب الردى ... لنجا بمهجته طمر ملجم

ولكان من حذر المنون بحيث لا ... يرجو اللحاق به العقاب القشعم

لكنه لما تقارب يومه ... لم يدفع الحدثان عنه منجم [(١)]

وقال أيضاً متذكراً صنيعه مع البرامكة ، وفضائله الكثيرة عليهم ، وكيف أنهم لم يحفظوا الأمانة ، فجاء عقابهم بما يتناسب مع خديعتهم له والاستئثار بالأمر دونه ، وذلك من خلال قوله :

من لم يؤدبه الجميـ ... ـل ففى عقوبته صلاحه [(٢)]

على أنه ظل يعلق بذهنه دائماً أمر العامة - كما قلنا من قبل - لذا بدأ يسأل من يحيط حوله من خاصته ، عما يدور بينهم من حديث حول نكبته للبرامكة ، من مثل سؤاله إسحق الموصلى قائلاً " بأى شئ يتحدث الناس قلت : يتحدثون بأنك تقبض على البرامكة ، وتولى الفضل بن الربيع الوزارة فغضب وصاح بى وقال : وما أنت وذاك ؟ فامسكت ، فلما كان بعد أيام دعانى ، فكان أول شئ غنيته :

إذا نحن صدقناك ... فضر عندك الصدق

---

(١) الوزراء والكتاب ٢٣٧ - ٢٣٨ ، مروج الذهب ٣/٣٨٠ ، معجم الشعراء ٤٦٢ .

(٢) الإمامة والسياسة ٢/١٦٨ ، العقد الفريد ٥/٢٩١ .

طلبنـــا النفـــع بالباطـــــــل إذ لـم ينفـع الحـــق

فلــو قـــدم صبـًّـا فـــى هــواه الصبــر والرفـــق

لقـــد مت على النـــاس ولكـــن الهـــوى رزق [(١)]

هكذا أصبح الرشيد في حالة من التوتر إثر نكبته للبرامكة ، وهذا أمر طبعي لحدث كبير زلزل أرجاء المملكة ككل ، بالإضافة إلى محاولته البحث عمن يسد هذا الفراغ الكبير ، الذى تركه يحيى وأولاده إثر نكبتهم ، على أنه لم يصل إلى حد الندم ، كما أورد الكتاب والمؤرخون ، فيقال إنه استدعى أحد خاصته وسأله عن جعفر ، وهل كان ينوى به غدراً ، فأجابه بالنفى ، فقال " يا أسفى عليك يا جعفر "[(٢)] هذه صورة من صور أوردها المؤرخون وأهل الأدب للرشيد إثر نكبته للبرامكة ، وكلتا أجمعت على أنه انتابته حالة من الندم الشديد ، وأقول ثانياً : إنه ربما شعر بذلك ، ولكن من منطلق ما قلت من قبل من حيث عظم النكبة ، ومحاولته البحث عمن يشغل فراغهم .

ومن أين يأتى له الندم على فقدانهم بعد أن استرد ملكه وسلطانه اللذين فقدهما على مدار سبع عشرة سنة ، ولو ندم كما يقولون لاستجاب لتلك الرسائل التى نظمت ورفعت إليه طلباً للصفح عن يحيى وابنه ، فقد كتب إليه يحيى معترفاً بذنبه طالباً منه الصفح عبر كتابه هذا الذى بعثه إليه من حبسه قائلاً فيه " لأمير المؤمنين " وخليفة المهديين ، وخليفة رب العالمين من عبد أسلمته عيوبه وأوبقته ذنوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ،

(٢) الوزراء والكتاب ٢٦٠ - ٢٦١ .

ومال به الزمان ، ونزل به الحدثان ، وحل به الضيق بعد السعة ، والشقاء بعد السعادة ، وعالج البؤس بعد الدعة ، وليس البلاء بعد الرخاء ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهود وفقد الهجود ، ساعته شهر ، وليلته دهر ، قد عاين الموت ، وشارف الفوت ، جزعاً يا أمير المؤمنين - قدمني الله قبلك - من موجدتك وأسفاً على ما حرمته من قربك ، لا على شئ من المواهب ، لأن الأهل والمال إنما كانا لك ، وعارية في يدى منك ، والعارية لابد مردودة ، فأما ما اقتصصته من ولدى فبذنبه ، وعاقبته بجرمه وجريرته على نفسه ، فإنما كان عبداً من عبيدك ، لا أخاف عليك الخطأ في أمره ، ولا أن تكون تجاوزت به فوق ما كان أهله ، ولا كان مع ذلك بقاؤه أحب إلى من موافقتك ، فتذكر أمير المؤمنين - جعلني الله فداءك وحجب عنى فقدك - كبر سنى وضعف قوتى ، وارحم شيبتى ، وهب لى رضاك عنى ، ولتمن على بغفران ذنبى فمن مثلى يا أمير المؤمنين الزلل ، ومن مثلك الإقالة ، لست أعتذر إليك بما يجب الإقرار به حتى ترضى ، فإذا رضيت رجوت أن يظهر لك من أمرى وبراءة ساحتى ، مالا يتعاظمك معه ما مننت به من رأفتك بى وعفوك عنى ورحمتك لى"[١] .

ولم يقف يحيى عند هذا الحد ، لعلمه بأن ما اقترفه من ذنب قد زاد عن المتعارف عليه ، ولا تكفيه هذه السطور فى محو ما رصده الرشيد على مدار سبع عشرة سنة ، فإذا به يشفع رسالته السابقة بأبيات نظمها ، يسرد له من خلالها حالهم بعد أن وشى بهم عنده ، وكيف كانوا فى نعمة انقلبت إلى نقمة ، وطلب منه الصفح بعد أن أوشك على الموت فى سجنه

(١) المحاسن والمساوئ ٣٣٨/٢ ، العقد الفريد ٢٩٧/٥ ، جمهرة رسائل العرب ٢٢١ .

مذكراً إياه بما أخذه على نفسه من عهد لحمايته وذلك من خلال قوله :

قل للخليفة ذى الصنيـ ـعة والعطايا الفاشيه

وابن الخلائف من قريـ ـش والملوك العاليه

إن البرامكة الذيـ ـن رموا لديك بداهيه

صفر الوجوه عليهم خلع المذلة باديه

فكأنهم مما بهم أعجاز نخل خاويه

عمتهم لك سخطة لم تبق منهم باقيه

بعد الإمارة والوزا رة والأمور الساميه

ومنازل كانت لهم فوق المنازل عاليه

أضحوا وجل مناهم منك الرضا والعافيه

يا من يود لى الردى يكفيك منى ما بيه

يكفيك ما أبصرت من ذلى وذل مكانيه

وبكاء فاطمة الكئيـ ـبة والمدامع جاريه

ومقالها بتوجع يا سوءتى وشقائيه

من لى وقد غضب الزما ن على جميع رجاليه ؟

يا لهف نفسى لهفها ما للزمان وماليه ؟

يا عطفة الملك الرضا عودى علينا ثانيه

على أن هذه الأبيات بما حوته من طلب للصفح ، ومزيد من الضراعة لم تشكل عند الرشيد أهمية تذكر ، فقد اكتفى بقراءة الكتاب والأشعار و لم يعطه جواباً مطلقاً [١] . ويقال فى رواية أخرى إنه أرسل إليه هذا الرد " إن

---

(١) العقد الفريد ٥/٢٩٨ ، جمهرة رسائل العرب ٣/٢٢٣ - ٢٢٦ .

أمير المؤمنين لم يأت على ولدك اللعين ، ومن رأيه ترك الباقين، و لم يأمر بحبسك وهو يريد بقاء نفسك ، وإنما أخرك وإياهم لتعالج البؤس بعد النعيم ، ثم تصير إلى العذاب الأليم ، فأبشر أيها المخادع الزنديق والمخالف الفسيق [١] ، بما أعدّ لك أمير المؤمنين من تبديد شملك ، وخمول ذكرك ، وإطفاء أمرك ، فتوقعه صباحاً ومساء"[٢] .

وعلى أى إذا كان الرشيد قد اكتفى بالرد أو التزم الصمت فكلاهما يعبر عن مدلول واحد ، هو عدم الإذعان لأمر الشفاعة ، ويكفى اقتباسه التالى الذى وقع به على نهاية رسالته ، والذى استمده من القرآن الكريم ، وجعله خاتمة القول فى هذا الأمر المرفوع إليه من يحيى ، دليلاً على أن أمر النكبة إنما كان لاستئثار البرامكة بالحكم ، وأن قراره بالعفو لن يصدر لفداحة الذنب ، حيث وقع قائلاً " وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون"[٣].

وإذا كان يحيى لم يحالفه الصواب فى جولته الأولى ، فقد استعان فى المرة الثانية بشفيع ربما أدرك من خلاله نيل العفو والحرية ، ألا وهو محمد الأمين بن زبيدة ، والذي كتب إليه بهذه الأبيات ، طالباً منه التوسط لإصلاح ذات البين قائلاً ومستغيثاً به :

---

(١) رجل فاسق وفسيق : كسكير ، وفسيق : دائم الفسق .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٢٢٣/٣ .

(٣) نفسه ٢٢٣/٣ .

يا ملاذى وعصمتى وعمـادى ... وبجيرى من الخطوب الشـداد

بك قـام الرجـاء فى كـل قلب ... زاد فيـه البـلاء كـل مـزاد

إنمـا أنت نعمـة أعقبتهـا ... نعـم نفعهـا لكـل العبـاد

وعد مـولاك أتممـه فأبهى الـد ... رمـا زيـد حسنـه بانعقـاد

مـا أظلت سحـائب اليأس إلا ... كـان فى كشفهـا عليك اعتمادى

إن تراخـت يـداك عنى فواقـاً ... أكلتنـى الأيـام أكـل الجـراد

على أن محمداً أحس أنـه برغـم مكانتـه عنـد والـده فلـن يستطيع أن يجـد فـى قلبـه بصيصاً من رحمة ، فأرسـل بالأبيـات إلى أمـه علهـا تكـون أكـثر قربـاً مـن الرشـيد ، إلا أنهـا هـى الأخـرى دستها لـه فـى موضـع لذتـه وإقبـال أريحيتـه فلمـا فرغ مـن قراءتهـا ، وقـع فـى أسـفلها مؤكـداً إصـراره علـى عـدم الصفـح ملخصـاً مـا كـان مـن أمـر يحيـى وولديـه كاتبـاً " عظـم ذنبـك أمـات خواطـر العفـو عنـك"(١) .

ويبـدو أن يحيى البـرمكى رفـض مبـدأ الاستسـلام لمـا هـو عليـه – برغـم كل ما قوبـل بـه مـن نفـور واستهجان عـبر ردود الرشيد عليـه – فـإذا بـه يرسـل إليـه فـى هـذه المرة زوجتـه ؛ أم الرشـيد فـى الرضـاع ، علهـا تنـال قـرار العفـو ، وقـد كـان يعلـم أن الرشـيد يحترمهـا ويحبهـا ، ومـا استشـفعته فـى أحـد إلا شـفعها ، بيـد أنهـا دخلـت عليـه هـذه المرة ، وهـى تعلـم صعوبـة الأمـر المقدمـة عليـه ، مـن ثـم دار بينهمـا حديـث طويـل ، استخدمت فيـه كـل السـبل لاسـترقاق قلـب الرشـيد ، على حين استخدم هـو أيضـاً كافـة الطـرق لإقناعهـا بعظـم ذنـب زوجهـا وولديـه ، وأن قـراره لا رحمـة فيـه ، مسـتعيناً فـى حديثـه

---

(١) العقد الفريد ٥/٣٩٥ .

بآيات من القرآن ، وأبيات الشعر ، لكى تكون معبراً لتوصيل ما يريد إليها ، والتى بدأت حديثها بقولها إليه " يا أمير المؤمنين أيعدو علينا الزمان ، ويجفونا خوفاً لك الأعوان ، ويحردك [١] بناالبهتان وقد ربيتك فى حجرى ، وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودهرى؟ فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ، قالت : ظئرك يحيى ، وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين ، من نصيحته ، وإشفاقه عليه ، وتعرضه للحتف فى شأن موسى أخيه ، قال لها : يا أم الرشيد ، أمر سبق ، وقضاء حُمَّ ، وغضب من الله نفذ ، قالت : يا أمير المؤمنين " يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب " قال : صدقت فهذا مما لم يمحه الله ، فقالت : الغيب محجوب عن التبيين ، فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ فأطرق الرشيد ملياً ، ثم قال :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فقالت بغير روية : ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين ، وقد قال الأول:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل " والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين " . فأطرق هرون ملياً ، ثم قال : يا أم الرشيد أقول :

إذا انصرفت نفسى عن الشئ لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تقبل

فقالت يا أمير المؤمنين وأقول :

ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى يمينك فانظر أى كف تبدل

---

(١) يحردك : يغضبك

قال هرون : رضيت ، قالت : فهبه لى يا أمير المؤمنين ، فقد قال رسول الله ﷺ " من ترك شيئاً لله ، لم يوجده الله لفقده ، " فأكب هرون ملياً ، ثم رفع رأسه يقول : " لله الأمر من قبل ومن بعد " قالت يا أمير المؤمنين : " يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم " ، واذكر يا أمير المؤمنين أليتك أن لا شفعت لمقترف ذنباً ، فلما رأته صرح بمنعها ، ولاذ عن مطلبها ، فأخرجت حُقًّا من زمردة خضراء ، فوضعته بين يديه ، فقال الرشيد : ما هذا ؟ ففتحت عنه قفلاً من ذهب ، فأخرجت منه خفضته وذوائبه وثناياه ، قد غمست جميع ذلك في المسك ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، أستشفع إليك وأستعين بالله عليك ، وبما صار معى من كريم جسدك ، وطيب جوارحك ، ليحيى عبدك ، فأخذ هرون ذلك فلثمه ، ثم استعبر وبكى بكاء شديدا ، وبكى أهل المجلس ، ومر البشير إلى يحيى ، وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ، ورجوع عنه فلما أفاق رمى جميع ذلك فى الحق ، وقال لها : لحسن ما حفظت الوديعة ، فقالت : وأهل للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين ، فسكت وأقفل الحق ، ودفعه إليها وقال : " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها " قالت : والله يقول : " وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " ويقول : " وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ثم قال : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت : أوما أقسمت لى به ألا تحجبنى ولا تمتهنى ؟ قال : أحب يا أم الرشيد أن نشتريه محكمة فيه . قالت : أنصفت يا أمير المؤمنين ، وقد فعلت غير مستقبلة لك ، ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عمن لم يسخطك ، قال :يا أم الرشيد أما لى عليك من الحق مثل الذى لهم ؟ قالت : بلى يا أمير المؤمنين ، أنت أعز على ،

وهم أحب إلى ، قال : فتحكمي في ثمنية بغيرهم ، قالت : بلى قد وهبتكه ، وجعلتك في حل منه "[١] .

هكذا قطع الرشيد أمراً لا يقبل النقاش ، ولعل إيرادى هذا الحوار كاملاً لعِلَّة مؤداها إظهار مدى تصميم الرشيد على موقفه ، الأمر الذى نستشعر معه عظم ذنب البرامكة عنده ، وأن كنه عدم الرجعة ، نابع من تأثر نفسي بموقفهم حياله ، وما فعلوه معه طيلة المدة السابقة . من هنا لم يقف عند حد التنكيل بجعفر ، وتعذيب يحيى والفضل وخذلان من أرضعته ، بل حرم على الناس ذكر البرامكة ، وتعقب أنصارهم في كل مكان وأينما ظهروا ليذيقهم من العذاب ، ما يكمل به شفاء نفسه العليلة والمجروحة من سادتهم ، لذا قتل أنس بن شيخ لأنه كان كاتباً لجعفر [٢] ، وإبراهيم بن عثمان بن نهيك ، لأنه ذكرهم بعد نكبتهم متحسراً وجزعاً على صلب جعفر وقتله [٣] ، ووقع عقوبة شديدة على ابن مناذر الشاعر لقوله الشعر فيهم ومدحه إياهم[٤] وحبس ثمامة بن أشرس لاختصاصه بهم[٥] ، وعندما سمع أبيات الرقاشي التي نظمها رثاء لجعفر ، والتي يقول فيها :

---

(١) العقد الفريد ٥/٢٩٣ - ٢٩٥ ، جمهرة خطب العرب ٣/٨٥ - ٨٩ .

(٢) الوزراء والكتاب ٢٣٩ ، العقد الفريد ٢/٤٥ .

(٣) الكامل ٦/١٨٦ ، النجوم الزاهرة ٢/١٢١ .

(٤) الأغاني ١٧/٢٥ .

أمـا واللــه لولا خــوف واش وعيــن للخليفـة لا تنـام
لطفنـا حـول جذعـك واستلمنـا كمـا للناس بالحجر استلام
فمـا أبصرت قبلك يا ابن يحيـى حسامـاً فله السيف الحسام
علـى اللـذات والدنيـا جميعـاً لدولـة آل برمـك السـلام

فـأمر بإحضـاره ، معنفـاً إياه على نظمه هــذه الأبيـات ، التـى عللهـا الشـاعر بأنهـا تذكـره نعـم البرامكـة ، فـإذا بـه يلجـأ فـى هـذه المرة إلى الحيلـة بـدلاً مـن العنف حتى يقتطب الرجل ، فـأمر لـه بـأن يعطـى فـى كـل سنة ألـف دينـار كمـا كـان يدفـع لـه آل برمـك [1] . ويكـاد يوقـع بإسـحاق الموصلى لأنـــه تذكـر أنـه غنـى للفضـل بـن يحيـى ببغـداد فـى الوقـت الـذى كـان فيـه بالرقـة ، فمـا صفـح عنه إلا بعد أن حلف لـه بـرأس المهـدى بأنـه مـا فعـل هـذا [2] .

وبعـد ، فهـذا هـو موقـف الرشيد مـن البرامكــة ، ذلـك الموقـف الـذى أعتقـد أنـه خلـده فـى التـاريخ كمـا خلـد البرامكـة ، فلقـد أحدثـت نكبتهـم دويـاً شـديداً واستفسـارات متعـددة فـى كـل الأوسـاط وعلـى مختلـف العصـور ، محاولة الإجابة عن سـؤال حـائر مـؤداه : مـا السـر فـى نكبتهـم ؟

علـى أننـا نقـول فـى النهايـة : إن نكبتهـم كـانت ضروريـة وحتميـة بالنسبة للرشيد ، الـذى أحـس بتضـاؤل شـخصيته بجانب هـؤلاء العظـام .

علـى أن وجودهـم فـى الحكـم ، كـان سـلاحاً ذا حديـن بالنسبـة للرشيد ، فلقـد كـان مفيـداً لـه مـن حيـث إنـه استراح مـن أعبـاء الحيـاة السياسية

---

(١) تاريخ بغداد ١٥٨/٧ ، محاضرات الأدباء ٥٣٢/٤ ، شذرات الذهب ٣١٤/١ .

(٢) الأغانى ١٠٤/٥ .

التى كانوا أعلاماً عليها ، بينما كرس هو وقته للسماع والطرب والغناء والبحث عن المرأة المثال - لما يعانيه من فراغ سياسى - وقرض الشعر وشغف بمجالس العلم ، وجميع ذلك ابتعد به عن دائرة الضوء السياسى بالمفهوم المتعارف عليه ، حيث كان خليفة من حيث الشكل ، مجرداً من كل الاختصاصات التى تتصل بالخلافة.

لذا أستطيع أن أجزم دون شك - حسب معطيات النتائج السابقة - بأن حكم الرشيد كرجل سياسة ودولة لم يتعد أكثر من ست سنوات ، تلك التى أخذ فيها بمقاليد الحكم بين يديه بعد أن نكب البرامكة ، وحتى وفاته .

على أن البرامكة لم يذهبوا ويطوهم النسيان بنكبتهم ، بل ارتبطت صورتهم فى أذهان العامة بالرخاء والنماء والسيادة ، واتضح ذلك فى مجموعة القصائد التى قيلت ترثى الدنيا بعدهم ، ومنها قول صالح بن طريف فيهم :

يا بنى برمك واهاً لكم ... ولأيامكم المقتبله
كانت الدنيا عروساً بكم ... وهى اليوم ثكول أرمله[1]

وقال فيهم أبو نواس ناعياً ما قدموه للخلق :

إن البرامكة الذين تعلموا ... فعل الملوك فعلموه الناسا
كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنوا ... لم يهدموا لبنائهم أساسا
وإذا هم صنعوا الصنيعة فى الورى ... جعلوا لها طول البقاء لباسا[2]

---

(١) وفيات الأعيان : ٣٤١/١ .

(٢) ديوانه ص ٤١٦ .

وقال فيهم هـذا الشاعر باكياً فقدان الخير بعدهم :

ليس نبكى عليكم يا بنى بر مك أن زال ملككم فتقصى
بل نبكيكم لنا ولأنا لم نر الخير بعدكم حل أرضا [(١)]

ولعل هـذا يظهر لنا مدى تعاطف الناس معهم ، ويعطى لنا مؤشراً بأن مخاوف الرشيد كانت تقترب من الواقع ، لذا جاءت النكبة شديدة قاسية ، معبرة عن استشراف سياسى ومكملة لسلسلة مواقف الرشيد المتكررة تجاه أولئك الذين يحاولون النيل منه عبر أخذهم حقاً ليس لهم .

---

(١) الوزراء والكتاب ٢٦١ - ٢٦٢ .

رابعاً : صولاته العسكرية :

إذا كان الرشيد دائم الحرص على استقرار ملكه فى الداخل ، كما اتضح لنا فى الصور السابقة ، فقد كان أشد حرصاً على تأمين حدود بلاده من الخارج ، حيث كان عالمه حينئذ يضم كوكبة من الدول الكبرى ، كان من أهمها وأشدها خطراً عليه ، دولة الروم الشرقية بالقسطنطينية ، نظراً لاقترابها من الممالك الإسلامية ، ولتاريخها العسكرى المعروف عنها ، الأمر الذى يتطلب معه وجود حاكم تتوافر فيه السمات الحربية ، إلى جانب الحنكة السياسية ، حتى يذود عن البلاد ، ويقف أمام الخطر فى حينه . ولقد تمتع الرشيد بهذه السمات مما ساعده على الوقوف أمام الروم ، لما عرف عنه من حب للغزو ، فمنذ أن كان وليا للعهد ، كان يقود الحملات العسكرية ، التى تتجه غازية بلاد الروم فى عهد أبيه ، ولقد كان النصر حليفه على مدار ثلاثة حروب متتابعة ، استطاع من خلالها تأمين البلاد ، بعد أن عقد صلحاً مع ملكتهم ؛ التى ارتضت أن تدفع للعرب مبلغاً طائلاً كجزية ، يقيها ويلات الحروب معهم فيما بعد[١] .

ولقد مدح الرشيد لانتصاراته تلك ، ومن الشعراء الذين مدحوه مروان بن أبى حفصة ، الذى قال واصفاً ما حل بالروم من ذل وهوان بعد انتصار الرشيد ، وذكر أمر الجزية قائلاً :

أطفت بقسطنطينة الروم مسنداً   إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها

وما رمتها [٢] حتى أتتك ملوكها   بجزيتها والحرب تغلى قدرها[٣]

---

(١) انظر فى ذلك تاريخ الطبرى ١٤٤/٨ ، ١٥٢ ، ١٥٤ .

(٢) رمتها : فارقتها .

(٣) شعر مروان بن أبى حفصة ص ٦٠ .

وعندما تولى الرشيد أمر البلاد بعد أخيه ، أصبح لغزواته شأن آخر ، حيث كان للوازع الدينى بجانب موقفه كحاكم سياسى ، أثره الكبير فى حروبه العسكرية بعد ذلك ، حيث أدرك أن واجبه يحتم عليه حماية بلاد المسلمين من الخطر ، بالإضافة إلى التوسع فى دائرة ملكة كسابقيه من الخلفاء ، جامعاً بذلك بين انتصارين : أحدهما سياسى ، والآخر دينى ، مؤداه نشر الدعوة الإسلامية ، أو حماية بلاد المسلمين من الخطر

ولقد جاءت أبيات الشعراء تحمل فى طياتها التعبير عن المعنيين ، عبر مدحهم له ، كقول أشجع السلمى :

ألف الحج والجهاد فما ينـ ـفك من سفرتين فى كل عام

سفر للجهاد نحو عدو والمطايا لسفرة الإحرام

طلب الله فهو يسعى إليه بالمطايا وبالجياد السوام

فيداه يد بمكة تدعو ه وأخرى فى دعوة الإسلام [1]

وتبدأ الصورة بعد ذلك فى الدوران على ألسنة الشعراء ، لكونها أصبحت عرفاً فى حياة الرشيد ، الذى قسم حياته بين أمرين : إما غازياً أو حاجاً ، حتى إن الباحث عنه يستطيع العثور عليه فى هذين المكانين فقط ، وذلك ما صوره هذا الشاعر عندما قال عن الرشيد :

فمن يطلب لقاءك أو يرده فبالحرمين أو أقصى الثغور

ففى أرض العدو على طمر وفى أرض البنية فوق طور

وما جاز الثغور سواك خلق من المستخلفين على الأمور [2]

ويقول أيضاً أبو نواس ، على غرار المعانى السابقة :

---

(١) الأغانى ١٧/٤٩ .

(٢) تاريخ بغداد ص ٦ .

يلقى جميع الأمر وهو مقسم   بين المناسك والعدو الموفق
حتى إذا أمضى عزيمة رأيه   أخذت بسمع عدوه والمنطق[(١)]

وقال فيه داود بن رازين ، ملخصاً ما سبق في بيت شعرى واحد :

إمام بذات الله أصبح شغله   وأكثر ما يعنى به الغزو والحج[(٢)]

وإذا كانت النماذج السابقة قد جمعت بين أمرين فى وصف الرشيد ، ما بين غزو وحج ، فلقد جاءت هذه الأبيات مفسرة سابقتها ، حيث مدح الشعراء الرشيد بأنه حامى حمى الإسلام ، المدافع عنه إذا حل بالبلاد الخطر ، وكأنهم هنا حاولوا أن يصبغوا صولاته بالصيغة الدينية الخالصة ، وأعتقد أن أمر الجمع بين الغزو ونشر الدعوة ، مرده أن الشعراء أدركوا أن كلا الأمرين متجه إلى الله ، الذى يثيب على زيارة بيته ، كما يساعد على انتصار رجل يعمل على نشر دينه ، والدعوة إلى الإيمان به ، لذا قال أبو نواس فى أمر الرشيد الذى يخرج مدافعاً عن الإسلام مرة فى كل عام غازياً

براك الله للإسلام عزاً   وحصناً دون بيضته حصينا
لقد أرهبت أهل الشرك حتى   تركتهم وما يتذمرونا
تزورهم بنفسك كل عام   زيارة واصل للقاطعينا
ولو شئت اكتفيت إلى نعيم   وقاسى الأمر دونك آخرونا[(٣)]

ويصف أبو العتاهية موقف الرشيد عندما ينكب الإسلام ، بنكبة قائلاً :

إذا نكب الإسلام يوماً بنكبة   فهارون من بين البرية ثائره [(٤)]

---

(١) ديوان أبى نواس ٦٢ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢٣٤/٨ .

(٣) ديوان أبى نواس ١٠٦ .

(٤) الأنوار الزاهية ٣١٣ .

وإذا كان الشعراء قد وصفوا الرشيد بأنه رجل غزو ، وأنه يتجه بغزواته تلك للدفاع عن الإسلام ، فقد أوردوا له أيضاً صفات متعددة ، توضح بأن أمر هذا الإقدام الذى لا يمتلكه إلا القلائل ، لم يأت من فراغ ، وإنما كان فيه من السمات التى تساعده على الغزو والانتصار فى الحرب ، كمهابته ، وشجاعته ، وبأسه إلى غير ذلك من الصفات التى لابد أن تتوافر فى رجل حرب . ومن ذلك قول أشجع السلمى مصوراً مهابة الرشيد ، عبر أبياته التى عدها أبو هلال العسكرى أبلغ ما قيل فى المهابة ، حيث قال :

وعلى عدوك يا ابن عم محمد ... رصدان ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبه رعته وإذا هدى ... سلت عليه سيوفك الأحلام [١]

ويصل أبو نواس فى تصوير مهابة الرشيد إلى حد المبالغة ، وذلك من خلال قوله:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ... لتخافك النطف التى لم تخلق [٢]

ويصور أبو العتاهية شجاعته قائلاً :

بنو المصطفى هارون بين سريره ... فخير قيام حوله وقعود
تقلب ألحاظ المهابة بينهم ... عيون ظباء فى قلوب أسود [٣]

ويعرض أيضاً النمرى لبأسه فى الحرب قائلاً :

هو الملك المأمول للبر والتقى ... وصولاته لا يستطاع خطارها [٤]

---

(١) ديوان المعانى ١/١٤٥ .

(٢) الموشح ٤١٦ .

(٣) ديوان المعانى ١/ ٢٠ .

(٤) تاريخ الطبرى ٨/٢٦٣ .

وإذا كانت هذه هى صورة الرشيد العسكرية فى عرف الشعراء فقد جاء الواقع مطابقاً لهذه المعانى ، حيث غزا ثلاث مرات بعد أن تولى الخلافة وكلها اتجهت إلى بلاد الروم فى محاولة جادة لتأمين حدود البلاد .

وبدأت هذه الحروب منذ ولى أمر المسلمين ، حيث خرج فى الأولى حتى غزا أطراف الروم [١] ، والثانية اتجه فيها إلى فتح حصن الصفصاف ؛ الذى قال فى شأنه مروان بن محمد ، مصوراً ما أبلاه فيه الرشيد ، والحال التى تركها عليه :

إن أمير المؤمنين المصطفى قد ترك الصفصاف قاعا صفصفا[٢]

ولقد قال أيضاً فى أمر هذه الواقعة مروان بن أبى حفصة ، الذى أشاد بالرشيد ومقدرته على أن يؤمن حدود بلاد المسلمين ، ويأخذ الجزية لغلبته على الروم ، مصوراً شجاعته التى أدت إلى هذا الانتصار ، وذلك من خلال قوله :

سدت بهارون الثغور فأحكمت به من أمور المسلمين المرائر

وما انفك معقوداً بنصر لواؤه له عسكر عنه تشظى العساكر

وكل ملوك الروم أعطاه جزية على الرغم قسراً عن يد وهو صاغر

لقد ترك الصفصاف هارون صفصفاً كأن لم يدمنه من الناس حاضر

أناخ على الصفصاف حتى استباحه فكابره فيها ألج مكابر [٣]

---

(١) تاريخ الخلفاء ٢٩٢ .

(٢) تاريخ الطبرى ٨/٢٦٨ .

(٣) نفسه ٨/٣٤٧ - ٣٤٨ .

ولقد كان الرشيد فى غزوته تلك ، قد عقد أمانا مع ملكة الروم ، فى مقابل دفعها الجزية ، إلا أن الحكم آل لغيرها بعد مقتلها وتولى أمر الروم رجل يدعى نقفوراً ، فنقض العهد مع الرشيد ، وأرسل إليه كتاباً شديد اللهجة يتوعده فيها بالويلات والحرب ، إذا لم يرد ما أخذه من الملكة السابقة قائلاً فى كتابه " من نقفور ملك الروم ، إلى هارون ملك العرب ، أما بعد ، فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق (١) ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها ، لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابى هذا فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك " (٢) .

ويمتلك الرشيد غضباً عارماً ، فأرسل إلى نقفور بهذه الكلمات الوجيزة متوعداً إياه بالفعل دون القول قائلاً " من هارون أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام" (٣) .

ولقد حاول الشعراء امتصاص غضب الرشيد ، وذلك من خلال نظمهم الأبيات التى تبشره بالنصر ، وتتوعد الروم وملكهم المغرور ، كقول أبى العتاهية ناعياً على الروم حالها لإقدامها على هذا النقض :

---

(١) الرخ والبيدق : من أدوات الشطرنج .

(٢) تاريخ الطبرى ٣٠٨/٨ ، رسل الملوك ٤١ - ٤٢ .

(٣) نفسه ٣٠٨/٨ .

ألا نـادت هرقلـة بالخـراب | مـن الملك الموفق للصـواب
غـدا هـارون يرعـد بالمنايـا | ويبرق بالمذكرة القضـاب[١]
ورايـات يحل النصر فيـها | تمـر كأنهـا مـر السحـاب
أمير المؤمنين ظفرت فاسـلم | وأبشـر بالغنيمـة والإيـاب[٢]

وقـال أيضاً ابـن منـاذر الشـاعر فـى نقـض نقفـور العهـد ، معمقـاً الصـورة الأولى ومضمنـاً أشعـاره تهديـداً لنقفـور ، الـذى لـن يحـدث نفسـه مـرة أخـرى بـالتجرؤ على الرشيد ، والنهايـة الحتميـة لـه ، عندمـا قـال للرشيد:

نقـض الـذى أعطيتـه نقفـور | وعليـه دائـرة البـوار تـدور
أبشـر أميـر المؤمنيـن فإنـه | غنـم أتـاك بـه الإلـه كبيـر
فلقـد تباشـرت الرعيـة أن أتـى | بالنقـض عنـه وافـد وبشيـر
ورجت بيمنـك أن تعجل غـزوة | تشفـى النفـوس نكالها مذكـور
أعطـاك جزيته وطأطأ خـده | حـذر الصوارم والردى محـذور
فأجرتـه مـن وقعها وكأنهـا | بأكفنـا شعـل الضـرام تطيـر
وصرفت بالطول العساكر قافلاً | عنـه وجـارك آمـن مسـرور
نقفـور إنـك حيـن تغدر إن نـأى | عنـك الإمـام لجاهـل مغـرور
أظننـت حين غدرت أنك مفلت | هبلتـك أمـك ما ظننت غـرور !
ألقـاك حينـك فى زواخـر بحره | فطمـت عليـك من الإمام بـحور
إن الإمـام على اقتسـارك قـادر | قربـت ديـارك أم نـأت بـك دور
ليس الإمـام وإن غفلنـا غافـلاً | عمـا يسـوس بحزمـه ويديـر
ملك تجـرد للجهـاد بنفسـه | فعـدوه أبـداً بـه مقهـور[٣]

---

(١) القضاب : الداهية الشديدة القاطعة .

(٢) الأنوار الزاهية ٣١٢ .

(٣) تاريخ الطبرى ٣٠٨/٨ - ٣٠٩ ، الأغانى ٤٥/١٧ - ٤٧ .

وهكذا استطاع الشعراء أن يشاركوا فى أمر هذه الحرب عبر نظمهم وتبشيرهم للرشيد بالنصر ؛ الذى تنتظره الأمة ؛ والذى لن يكون بعيد المنال ، فهو فى متناول يده لضعف شوكة عدوه ، فما كان منه بعد ذلك إلا أن اتجه إلى فتح هرقلة ، يسانده من العسكر الكثير ، مرتدياً قلنسوة كتب عليها حاج غاز ، وانتهت الحرب بنتيجتها المعروفة فى عرف الشعراء ، ودفع نقفور الجزية عن نفسه وولده وبطارقته وسائر أهل بلده " [(١)] .

ولقد صور الشعراء ضراوة هذه الحرب ، وموقف الرشيد منها وكيف استطاع قهر ملكها كقول العمانى الراجز ، الذى أرجع سقوط هرقلة إلى استخدام الرشيد للكبريت والنفط ، الذى كان يضعه عساكره فى داخل معداتهم وأدى إلى إشعال النار فى كل مكان ، فاستسلم على إثره الروم وطلبوا الأمان لعجزهم عن مواصلة القتال ، وذلك عندما قال :

هوت هرقلة لما أن رأت عجباً   حوائماً ترتمى بالنفط والنار

كأن نيراننا فى جنب قلعتهم   مصبغات على أرسان قصار [(٢)]

وقد جرت العادة بين الشعراء أن يقابلوا الملك المنتصر بالحفاوة البالغة والترحيب والإشادة بالنصر عبر قصائدهم ، وهذا ما كان يحدث أيضاً مع الرشيد عند رجوعه يحالفه النصر ، ومن القصائد التى نظمت لهذا الغرض ، ما قاله أشجع السلمى للرشيد بعد انصرافه من غزوته بهرقلة ، مشيداً ببطولته فى الحرب وبأسه بها قائلاً :

---

(١) السابق ٣٢٠/٨ .

(٢) الأغانى ٨٢/١٧ ، سمط اللآلى ٨٢٤/٢ - ٨٢٥ .

لازلت تنشر أعياداً وتطويها ... تمضى بها لك أيام وتثنيها
مستقبلاً جدة الدنيا وبهجتها ... أيامها لك نظم فى لياليها
العيد والعيد والأيام بينهما ... موصولة لك لا تفنى وتفنيها
وليهنك النصر والأيام مقبلة ... إليك بالفتح معقوداً نواصيها [١]

ويستقبله شاعر آخر بالترحاب والسرور على إثر حرب أعقبها انتصاره مظهراً مدى ما داخل المسلمين من فرح حيال نصره قائلاً :

قرت عيون المسلميـ ... ـن بمقدم الملك الرشيدْ
قرت به عين القريـ ... ـب من الرعية والبعيدْ
بين المنابر والمجا ... لس والمدائح والنشيدْ [٢]

وقال له أيضاً أبو الشيص مادحاً ، إثر فتحه الروم :

شددت أمير المؤمنين قوى الملك ... صدعت بفتح الروم أفئدة الترك
فريت سيوف الله هام عدوه ... وطأطأت للإسلام ناصية الشرك
فأصبحت مسروراً ولا يغى ضاحكاً ... وأصبح نقفور على ملكه يبكى [٣]

---

(١) الشعر والشعراء ٢/٨٨٤ ، بينما وردت فى الأغانى مع اختلاف فى الأبيات بعض الكلمات من مثل :

لازلت تنشر أعياداً وتطويها ... تمضى بها لك أيام وتثنيها
مستقبلاً زينة الدنيا وبهجتها ... أيامنا لك لا تفنى وتفنيها
ولا تقضت بك الدنيا ولا برحت ... يطوى لك الدهر أياماً وتطويها
وليهنك الفتح والأيام مقبلة ... إليك بالنصر معقوداً نواصيها

(٢) طبقات الشعراء ١٥١ .

(٣) أشعار أبى الشيص ٨٥ ، تاريخ بغداد ٥/٤٠١ - ٤٠٢ .

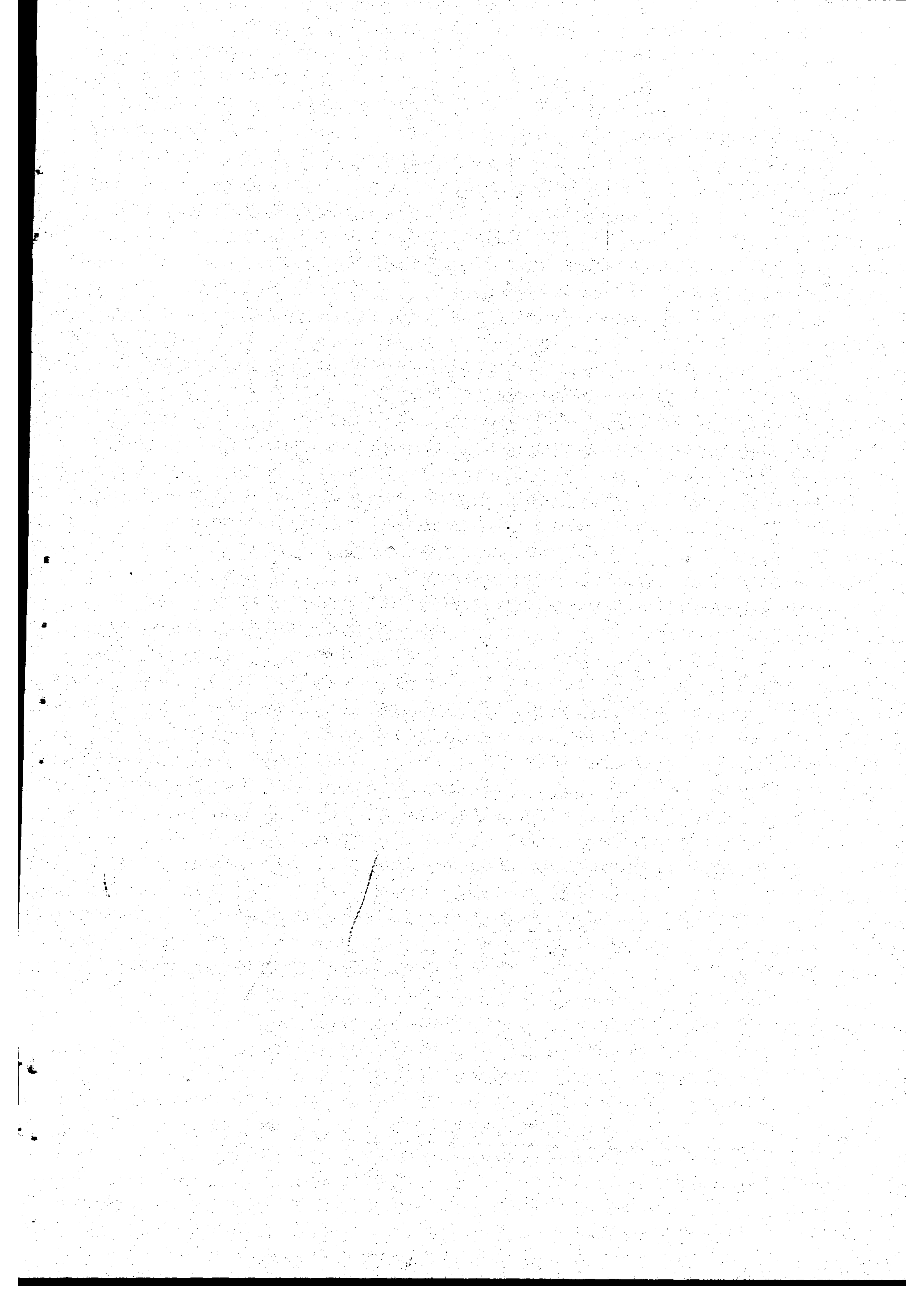
وإذا كان الرشيد قد مدح على انتصاراته تلك التى أعقبت غزواته وقام بها بنفسه ، فقد كانت هناك غزوات أخرى فى عهده أيضاً ، حيث لم يقصر أمر الغزو عليه ، بل كان فى السنة التى لا يخرج فيها يرسل من ينوب عنه فى أمر هذه الصوائف ، وأعتقد أن هذا هو السبب فى قول المؤرخين بأن الرشيد كان يغزو عاماً بعد عام ، فمن الواضح أنه لم يغز سوى ثلاث مرات فقط على مدار حكمه ، أما الباقى فجاء على أيدى قواده وأبنائه أولئك الذين شاركوه شرف صنع النصر وتأمين البلاد ، ونشر دين الإسلام.

وفذلكة القول ، إن الرشيد استطاع أيضاً أن يحافظ على مملكته من الاقتطاع والتجزؤ ، وذلك من خلال إرساله الحملات العسكرية التى اتجهت غازية بلاد الروم فى كل عام ، من أجل إضعافها حتى لا تهدد مملكته ، الأمر الذى كان يشعره بمزيد من الاطمئنان وهو على كرسى العرش .

على أن غزواته كان لها طابعها الدينى ، وظهر ذلك واضحاً فى شعر الشعراء ، حيث ربطوا بين حجه وغزوه فى مدحهم له داخل أبياتهم ، من منطلق أن الحاكم الإسلامى لابد وأن يدافع ويذود عن مملكته . من هنا جاءت انتصاراته تجمع بين انتصارين : أحدهما سياسى ، وآخر دينى مؤداه نشر الدين وأخذ الجزية. ولقد أظهرت الصورة مدى شجاعته وبأسه ، حتى لقب "بجبار بنى العباس" (١) .

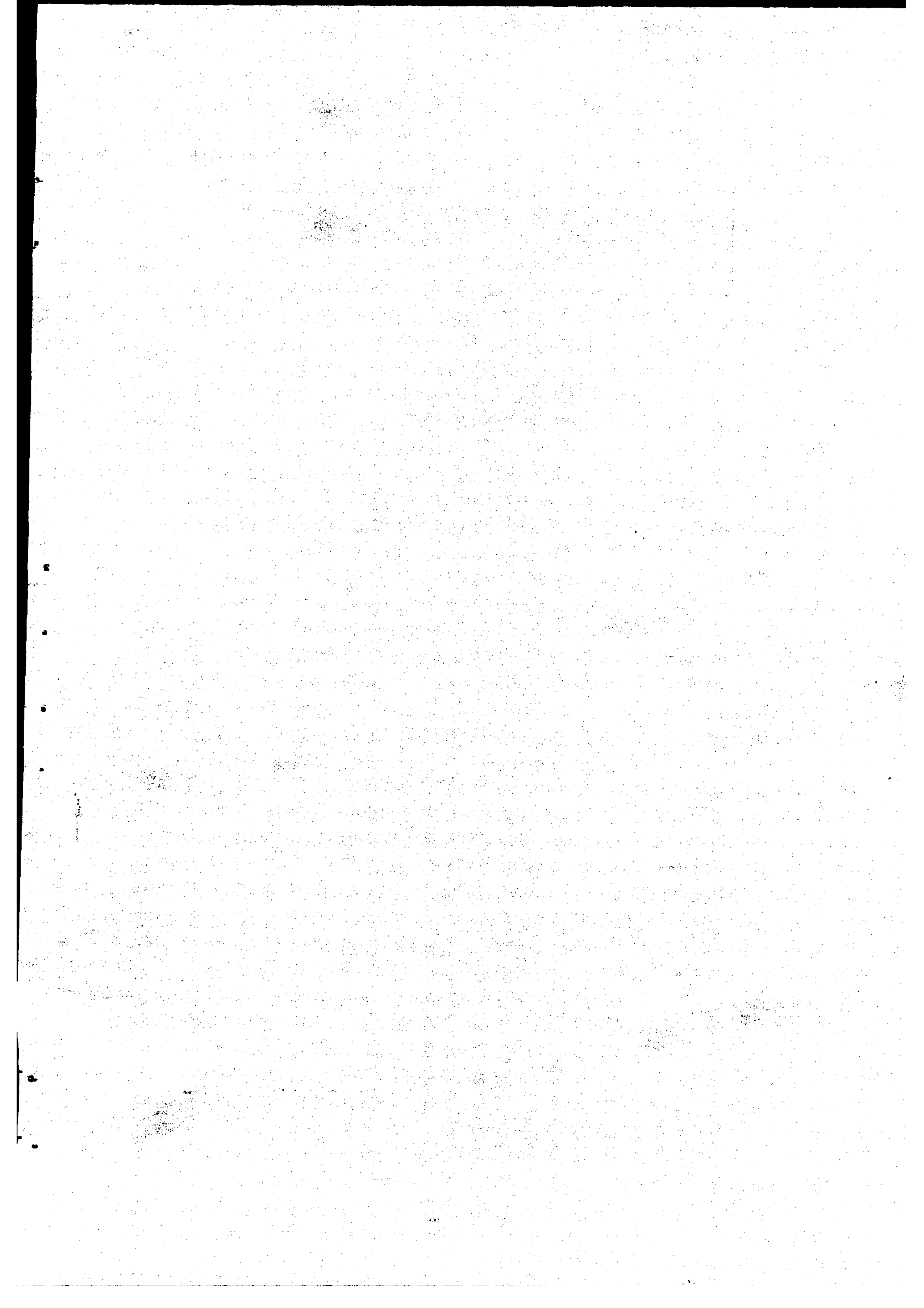
---

(١) ثمار القلوب ١١٣ .



الفصل الثاني

الجانب الاجتماعي لصورة الرشيد



أولاً : الرشيد والمرأة :

مزاج خاص ذلك الذى كان يربط الرشيد بالمرأة ، فالمرأة فى حياته زوجة مختارة ، أو جارية محبوبة ، وهو فى ارتباطه كان ينشد امرأة مثالاً ، تتناسب وهوى نفسه التواقة إلى البحث عن امرأة متكاملة. ولما كان من الصعب وجود امرأة واحدة تحمل كل صفات المثال المعهود بالمقاييس البشرية ، تعددت لذلك علاقاته النسائية ، التى تكشف فى كل واحدة منها عن الفوز بجانب من جوانب هذه المرأة المثال .

ولقد كان أسمى أنواع الارتباط لديه القائم على الوفاق الأدبى لجارية أو امرأة تمتلك ناصية الأدب أو الشعر ، من هنا أرسل إلى الأصمعى فى إحدى المرات قائلاً له " يا عبد الملك وجهت إليك بسبب جاريتين أهديتا إلى ، وقد أخذتا طرفاً من الأدب ، أحببت أن تبور ما عندهما ، وتشير علىَّ فيهما بما هو الصواب عندك ، ثم قال : ليمض إلى عاتكة فيقال لها إحضرى الجاريتين ، فحضرت جاريتان ما رأيت مثلهما قط ، فقلت لأجلهما : ما اسمك ؟ قالت فلانة ، قلت ما عندك من العلم ؟ قالت ما أمر الله به فى كتابه ، ثم ما ينظر الناس فيه من الأشعار ، والآداب ، والأخبار فسألتها عن حروف من القرآن فأجابتنى كأنها تقرأ الجواب من كتاب ، وسألتها عن النحو والعروض والأخبار فما قصرت ، فقلت بارك الله فيك فما قصرت فى جوابى فى كل فن أخذت فيه ، فإن كنت تقرضين الشعر فأنشدينا شيئاً ، فاندفعت فى هذا الشعر :

يا غياث البلاد فى كل محل ... ما يريد العباد إلا رضاكا

لا ومن شرف الإمام وأعلى ... ما أطاع الإله عبد عصاكا

ومرت فى الشعر إلى آخره . فقلت يا أمير المؤمنين ما رأيت امرأة فى مسك رجل مثلها ، وقالت الأخرى فوجدتها دونها ، فقلت ما تبلغ هذه منزلتها إلا أنها وإن وظب عليها لحقتها ، فقال يا عباسى فقال الفضل : لبيك يا أمير المؤمنين فقال ليردا إلى عاتكة ، ويقال لها تصنع هذه التى وصفتها بالكمال لتحمل إلى الليلة " (١) .

فالرشيد هنا وضع يده على جانب من جوانب المرأة المثال ، فالمراة هنا متعددة المعارف ، ما بين علم بكتاب الله ، ومعرفة بالنحو والعروض والأخبار ، ثم الشعر ، وهو الفيصل فى النهاية للوصول إلى قصر الخليفة .

ولقد ظل الشعر دائماً يمثل عند الرشيد المعبر الأساسى للوصول إلى قلبه وقصره معاً ، فقد عرضت عليه جارية ليشتريها ، وقد طلب البائع فيها مبلغاً طائلاً فرد عليه قائلاً " أنا أعرض عليها بيتاً إن أجابت عنه أعطيتك ما تقول وزدتك والتفت إليها وقال :

ماذا تقولين فيمن شفه أرق ... من أجل حبك حتى صار حيرانا

فقالت بديها :

إذا رأينا محباً قد أضرَّبه ... أمر الصبابة أوليناه إحسانا

فأعجبه جوابها واشتراها " (٢) .

ثم كان للفصاحة والملاحة إلى جانب الشعر ، صورة مطلوبة لامرأة تصلح لمزاج الرشيد ، كتلك الجارية التى بهرته بحسن ردها عليه عندما

---

(١) تاريخ بغداد ٤١١/١٠ - ٤١٢ ، نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) ثمرات الأوراق ٢٧٨/٢ .

أقدم على طلبها فتأملها ، فاكتشف ما بها من كلف بالوجه وخنس بالأنف فأعرض عنها فالتفتت إليه قائلة :

ما سلم الظبى على حسنه   كلا ولا البدر الذى يوصف

الظبى فيه خنس بين   والبدر فيه كلف يعرف[١]

فتغاضى الرشيد عما بها من معايب ، والتفت إلى ظاهرة بهرته ، ومسته من الداخل ، هى ما لدى هذه المرأة من فصاحة ، وحسن بيان ، ومالديه من هوى بالبلاغة والأدب فإذا به يأمر بشرائها .

وللذكاء الحاد ، والقدرة على استخدام المنطق ، والحجة فى الرد وسرعة التخلص الذى لا يقبل نقاشاً ، نموذج لامرأة تستهوى الرشيد وتشده إليها ، فقد نقل إليه الفضل بن الربيع ، ما حدث بين فرج الرخجى وامرأة على قدر كبير من الجمال والبهاء أثناء وجودهما بمكة حيث عرض عليها الرخجى الزواج ، وكان دميما قبيحا فردت عليه قائلة " تقرأ شيئاً من كتاب الله ؟ قال : نعم ، قالت : أفتؤمن به ؟ قال : نعم ، قالت : فإن الله يقول " ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا " ، إن هذا الرد الذكى اللبق قد أعجب الرشيد ، فأمر بإحضارها وحملها إلى مدينة السلام " [٢] .

وربما كانت لمسة وفاء من زوجة مات زوجها ، سبباً فى أن يميل الرشيد لامرأة من هذا النوع ، فقد طلب من الأصمعى أن ينزل إلى بادية البصرة ليأخذ من تحف كلامهم ، وطرف حديثهم ، ليعود إليه بعد ذلك وقد حمل موروثا كبيراً يصلح لمسامرة الخليفة بعد ذلك ، إلا أنه عاد ، يخبره

---

(١) المستطرف ١/٥٤ .

(٢) المحاسن والأضداد ٢/٢٨ .

بنبأ امراة كانت تقف بمقابر البصرة وهى تبكى أحر بكاء بينما يرقبها وصديق له تنعى زوجها وتقول :

فإن تسألانى فيم حزنى ؟ فإننى رهينة هذا القبر يا فتيان

أهابك إجلالاً ، وإن كنت فى الثرى مخافة يوم أن يسؤك مكانى

وإنى لأستحييك ، والترب بيننا كما كنت استحييك حين ترانى

فقلنا لها : ما رأينا أكثر من التفاوت بين زيك وحزنك ، فأخبرى بشأنك فأنشأت تقول :

يا صاحب القبر يا من كان يؤنسنى حيًّاً ، ويكثر فى الدنيا مواساتى

أزور قبرك فى حلى وفى حلل كأننى لست من أهل المصيبات

فمن رآنى ، رأى عبرى مفجعة مشهورة الزى تبكى بين أمواتى

فقلنا لها : وما الرجل منك : قالت بعلى ، وكان يجب أن يرانى فى مثل هذا الزى ، فلما سمع الرشيد بالقصة طلبها للزواج [١] .

إن الرشيد فى اختياراته هذه ، كأنما يسعى لجمع فضائل عدة لأكثر من امرأة بحثاً عن امرأة متكاملة ، تفرقت صورها بين أكثر من واحدة ، فما بين شاعرة وأديبة ووفية ومخلصة ، إلى غير ذلك من الصور، فالاختيار هنا اختيار قيم وليس اختيار جسد .

وغالبا ما ارتبط اسم الرشيد ، بجارية من جواريه عشقها وأحبها ليكشف لنا بذلك عن نفس شابة تعشق وتحب ، على أن ارتباط اسمه بالجوارى ليس بالأمر الغريب فقد كانت " الجوارى أقرب النساء إلى قلوب الخلفاء " [٢] وهو فى حبه هذا إنما يكمل سلسلة البحث عن ضالته المنشودة

---

(١) أخبار النساء ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) الموشى أو الظرف والظرفاء ص (م) مقدمة المحقق .

في جمع أكبر عدد ممكن من الصفات التى تستهوى مزاجه عبر مجموعة من النساء ، فالمعشوقة هنا شاعرة أديبة ، بارعة الأدب ، سريعة البديهة ، يساجلها فحول الشعراء فتتفوق عليهم ، إنها " عنان جارية الناطفى " وإذا كنا تحدثنا في أول الأمر عن أن المرأة الشاعرة الأديبة كانت تمتلك قلب الرشيد ، وتهيمن على عقله ، فلا ضير ونحن نجد الرشيد يسعى من أجل الحصول على هذه الجارية . فقد أرسل مسروراً الخادم يتزايد فيها مع الناس بمائتى ألف وخمسين ألفاً حتى اشتراها " [1] ولقد تزوجها الرشيد بعد ذلك وأولدها ولدين ماتا صغيرين " [2] .

والبداية الأولى لمعرفة الرشيد بها حين وصل إلى مسامعه ماقاله فيها أبو نواس من شعر عندما بادرها قائلاً :

عنان يا من تشبه العينا   أنتم على الحب تلومونا

حسنك حسن لا يرى مثله   قد ترك الناس مجانينا

فردت عليه بنظم شعرى أخجله وأفحمه [3] .

وإن كان الرشيد قد سمع عن مساجلتها الشعرية لأبى نواس ، فإنه لم يقدم على شرائها إلا بعد أن تأكد من مقدرتها الشعرية بنفسه ، فمنذ أن سمع أحد مغنيه يتغنى بأبيات جرير قائلاً :

إن الذين غدوا بلبك غادروا   وشلاً بعينك لا يزال معينا

أعجب بالأبيات ، وطلب من جلسائه إجازتها بمثلها ، فلم يتمكن أحد من ذلك ، حتى أجازتها عنان بأبيات أرسلتها إليه تقول فيها :

---

(١) سمط اللآلى ١/٥٠٠ .

(٢) نفسه ص ٥٠٠ .

(٣) المحاسن والأضداد ٢/٦ .

هيجت بالقول الذى قد قلته[١] داء بقلبـى مايـزال كمينـا

قـد أينعـت ثمراتـه فـى طيبـها وسقين من ماء الهوى فروينـا

كـذب الذيـن تقولـوا يـا سيدى إن القلـوب إذا هوين هوينا

فـإذا بـه بعـد سماعـه الأبيـات يقـول : خلعـت الخلافـة عـن عنقـى إن بـاتت إلا عنـدى"[٢] .

إن الرشـيد بإقدامـه علـى شـراء عنـان جاريـة النـاطفى ، لم يكـن يسـعى مـن أجـل إشبـاع شـهوة ، أو تحقيـق رغبـة فـى الامتـلاك ، وإنمـا كـان يقـدر قيمـة شعرية خاصـة ، وكأنـه مـن المغرمين باقتنـاء كـل مـا هـو غـال ونفيـس . إن الخلافـة كلهـا توضـع فـى مقـابل أن تبيـت عنـده عنـان الشـاعرة الأديبـةالأمر الذى يؤكد مقدار ما بداخلـه مـن محاولـة جمع صورة المرأة المثال لديه .

إن هـذه المـرأة الأديبـة الشـاعرة هـى التـى تحرك فىنفس الرشيد شـيطان الشعر علـى مـا يـروى الأصمعـى ، حيـث يقـول " مـا رأيـت الرشيد مبتـذلاً قـط إلا مرة ، كتبت إليـه عنـان جاريـة النـاطفى رقعـة فيهـا :

كنت فـى ظل نعمة بهـواكـا آمنـاً منـك لا أخـاف جفاكـا

فسعـى بيننا الوشـاة فـأقـرر ت عيـون الوشـاة بـى فهناكـا

ولعمـرى لغير ذا كان أولـى بـك فى الحق يا جعلت فداكـا

قـال : فـأخذ الرقعـة بـين يديـه وعنـده أبـو جعفـر الشـطرنجى ، فقـال : أيكـم يشـير إلى المعنـى الـذى فـى نفسـى فيقـول فيـه شـعراً ، ولـه عشـرة آلاف درهـم ، فظننت أنه وقع بقلبـه أمـر عنـان ، فبـدر أبـو جعفـر :

---

(١) هذه الكلمة فى الأصل (قولته) فصححناها فى المتن ، وأوردناها كما كتبت فى الهامش

(٢) العقد الفريد ٧/٥٢ - ٥٣ .

مجلس ينتسب السرور إليـه لمحـب ريحـانه ذكراكـا

فقال : يا غلام بدرة ! قال الأصمعى : وقلت

لم ينلك الرجاء أن تحضرينى وتجافت أمنيتى عن سواكا

قال : أحسنت والله يا أصمعى ، لها ولك بهذا البيت عشرون ألفاً .

قال جرير :

كلما دارت الزجاجة والكأ س أعارتـه صبوة فبكاكـا

فقال : أنا اشعركم حيث أقول :

قد تمنيت أن يغشينى اللـ ـه نعاسا لعل عينى تراكـا

قلنا له : صدقت والله يا أمير المؤمنين [١] . ولقد أضاف على هذه الرواية صاحب نور القبس فى نهاية كلام الأصمعى حيث قال " أنت أشعرنا فخذ جوائزنا " [٢] وأعتقد أن الرشيد إذا وصل إلى هذه الدرجة ، فقد نال من علاقته مارغب فيها .

ويبدو أن الرشيد كانت تعجبه المرأة التى يثار حولها دوى خاص ، من مثل ذات الخال ، التى كانت من أجمل النساء وأكملهن ، وشهرتها نابعة من عشق إبراهيم الموصلى لها ، وغنائه فيها ، فاشتراها الرشيد بسبعين ألف درهم [٣] .

ولكن بعد أن يشبع الرشيد نفسه النهمة من جراء البحث عن كل ما هو نادر ، تثور فى نفسه حمية التفرد ، حيث كشف بذكائه صورة

---

(١) السابق ٥٣/٧ - ٥٤ .

(٢) نور القبس ١٣٦ .

(٣) الأغانى ٧٦/١٥ ، ونهاية الأرب ٩١/٥ ، ٩٢ .

العلاقـة التـى تربـط بـين ذات الخـال وإبراهيـم الموصلـى عندمـا بـادره قـائلاً " هـات بعض مـا قلت مـن شـعر فـى ذات الخـال وغننـى بـه ، فـاندفع إبراهيـم يغنى:

يا ليت شعرى كيف ذات الخـال	أم أين تحسب حالها من حالـى
هـل أنكرت فمها وضمت مـرة	رأسـى إليهـا ثـم قالـت : مالـى
ألـزلة أقصيتنـى ، نفسـى فـدا	ؤك أم أطعـت مقالـة العـذال ؟
والله ما استحسنت شيئاً مونقـاً	ألتـذه إلا خطـرت ببـالـى

فتجهـم الرشيد وقـال : أصحيـح هـذا يـا إبراهيـم ؟ قـال : هـو لـك يـا أمـير المؤمنين ثم قـال الرشـيد : هـات وغننـى :

يـا ليت شعـرى والنسـاء غـوادر	خلـف الوعـود بهـن غير قليـل
هـل وصل ذات الخال يوماً عائـد	فتـزول لوعاتى وحـر غليلـى؟
أم قـد تناسـت عهدنـا وأخالهـا	عـن ذاك حالت دون كل خليلى

فهز الرشـيد رأسـه وقـال : صدقـت يـا إبراهيـم [١] .

هكـذا اتضحـت الصـورة فـى رأس الرشـيد ، فدبـت الغـيرة فـى داخلـه ، فعلـى إثـر هـذا فاجأهـا قـائلاً " أسـألك عـن شـئ فـإن صدقتنـى وإلا صدقنـى غـيرك وكذبتـك ، قـالت لـه : بـل أصدقـك ، قـال : هـل كـان بينـك وبـين إبراهيـم الموصلـى شئ قـط وأنـا أحلفـه أن يصدقنـى ، قـال : فتلكـأت سـاعة ثـم قالت نعـم مـرة واحـدة " [٢] .

---

(١) السابق ١٥/٧٧ .

(٢) نفسه ١٥/٧٦ .

إن هذه المرة الواحدة كانت كفيلة بأن يبغضها الرشيد ، فإحساسه كملك ، كان دائماً وراء شعوره بأنه لابد أن يكون هو الأول في كل شئ ، حتى في قلب المرأة التي تعرفه ، الأمر الذي دفعه إلى القول في مجلسه " أيكم لا يبالي أن يكون كشخاناً [١] ، حتى أهب له ذات الخال ، فبكر حمويه الوصيف ، فقال : له انا فوهبها له"[٢] .

على أن الرشيد إذا أنكرها محبة ، فلم ينكرها كقيمة فنية كبيرة، فهي مغنية على درجة عالية من الجودة ، من هنا اشتاق لسماعها بعد أن وهبها لحمويه فأخرجها إلى الرشيد واستأجر لها من بعض الجواهر ما يليق ومكانة الخليفة [٣]، فبلغت من نفسه مبلغاً كبيراً حتى إنه أقسم يوماً أنها لا تسأل شيئاً إلا قضاه لها ، فطلبت منه أن يولى أحد المقربين إليها الحرب والخراج بفارس سبع سنين ، فامتثل لها وكتب عهداً به ، وشرط على ولى العهد بعده أن يتمها له إن لم تتم في حياته[٤] .

هكذا كان الرشيد مطواعاً ليناً للمرأة التي تعطيه جزءاً من صورة المثال التي ينشدها ، ولطالما أحس بتجربة حب صادقة فعايشها وتعايش معها وانتهت بالزواج كما حدث مع ماردة بنت شبيب أم أبي إسحاق [٥].

والرشيد عندما يعشق تتحرك بداخله عناصر التجربة الشعرية فنجده يصور حبه ومعشوقته وما بينهما من تباعد وتباغض ، عبر أبيات تفيض

---

(١) الكشخان : الديوث .

(٢) الأغاني ٧٦/١٥ .

(٣) الموشى أو الظرف والظرفاء مقدمة المحقق .

(٤) الأغاني ٧٦/١٥ .

(٥) أبو إسحاق هو المعتصم بن هارون الرشيد .

بالرقة والحس المرهف ، يقول في وصف ماردة مصوراً محاسنها وما لها من فتنة :

وتنال منك بحد مقلتها ... مالا ينال بحده النصل
شغلتك ، وهي لكل ذي بصر ... لافي محاسن وجهها شغل
فلقلبها حلم يباعدها ... عن ذي الهوى ولطرفها جهل
وإذا نظرت إلى محاسنها ... فلكل موضع نظرة قتل[١]

وكما قلنا فإن الرشيد في تجربة حبه يصور كل شئ ، فهنا يصور لنا ما دب من خصام بينه وبين جاريته فغضب عليها وتمادى الهجر بينهما ، الأمر الذى ظهر عليه بصورة ملحوظة - وأعتقد أنه كان يحب بصدق ، فيعيش التجربة كواقع لا محال تغييره مهما كانت صورة هذا الواقع ومهما شغله الحكم بأعبائه ومتطلباته - هالت وزيره جعفر البرمكى ، الذى تحرك لإعادة الصلح بين المتخاصمين ، فأرسل إلى العباس بن الأحنف الشاعر ليعمل في ذلك شيئاً فقال :

راجع أحبتك الذين هجرتهم ... إن المتيم قلما يتجنب
إن التجنب إن تطاول منكما ... دب السلو له فعز المطلب[٢]

---

(١) الورقة ص ١٩ ، ولقد وردت هذه الأبيات في الديارات بطريقة أخرى حيث جاءت على النحو التالى :

وإذا نظرت إلى محاسنها ... فلكل موضع نظرة نبل
وتنال منك بحد ناظرها ... مالا تنال بحدة النصل
شغلتك ، وهي لكل ذي بصر ... لافي محاسن وجهها شغل
فلقلبها حلم يباعدها عن ... ذي الهوى ولطرفها جهل
ولوجهها من وجهها قمر ... ولعينها من عينها كحل

(٢) الأغانى ٥/٣٨ ، وفيات الأعيان ٣/٢١ ، مرآة الجنان ١/٤٢٠ ، شذور الذهب ١/٣١٩

وقد نظم لـه أيضاً :

لابـد للعاشـق مـن وقفـة　　تكـون بين الوصل والصـرم

حتى إذا الهجر تمادى بـه　　راجع من يهوى على رغـم[١]

وتحـرك الأبيـات الرشـيد فيقـوم سـريعاً إلى مـاردة فيصلهـا ، ويجـزل العطـاء للشـاعر.

والرشيد فى قصص عشقه تجد فيه كل سمات العاشـق ، فهـو يحسب لسبب استهواه فى محبوبتـه ، فيهيم بهـا ، ويعشـقها ، وهـو فـى تجربتـه هـذه كما قلنـا يتخاصم ويتصالح ، كمـا حدث بينه وبين ماردة ، وكمـا تكـرر مرة أخرى معهمـا عندمـا كـانت تظهر لـه الكراهيـة وتضمـر المحبـة ، فتفـاعل مـع الموقف مصوراً ما أحـس منهـا وصـادق واقعـه الـذى يعيش معهـا فيـه :

تبدى صدوداً وتخفى تحته صلة　　فالنفس راضية والطـرف غضبـان

يا من وضعت له خـدى فذلله　　وليس فوقى سوى الرحمن سلطان[٢]

وعلى إثر ذلك يزمع الرشيد السـفر إلى مدينـة السـلام تاركـاً مـاردة بالرقـة فيشـتاقها اشـتياق المحب الـذى تـرك محبوبتـه فتـدور بينهمـا هـذه المسـاجلة الشعرية على لسـانه ولسـان شـاعرها والتى بدأهـا عندمـا قـال :

سـلام على النازح المغتـرب　　تحيـة صـب بـه مكتئـب

غـزاله مـراتعـة بـالبليـخ　　إلى ديـر زكى فقصر الخشب

أيـا مـن أعـان علـى نفسـه　　بتخليفـه طـائعـاً مـن أحـب

---

(١) الشعر والشعراء ٨٣١/٢ ، طبقات الشعراء ٢٥٥ ، العقد الفريد ٨٦/٨ - ٨٧ ، معاهد التنصيص ٢٦ .

(٢) العقد الفريد ١٠/٥ .

سأستر ، والستر من شيمتى هوى من أحب بمن لا أحب

فلما ورد كتابه عليها أمرت أبا حفص الشطرنجى ، صاحب علية فأجاب عن لسانها متوجهاً إلى الرشيد بهذه الأبيات التى تصور مدى صدق تجربة الحب والوجد بين الطرفين قائلاً :

أتانى كتابك يا سيدى وفيه العجائب كل العجب

أتزعم أنك لى عاشق وأنك بى مستهام وصب

فلو كان هذا كذا ، لم تكن لتتركنى نهزة للكرب

وأنت ببغداد ترعى بها نبات اللذاذة مع من تحب

فيا من جفانى ولم أجفه ويا من شجانى بما فى الكتب

كتابك قد زادنى صبوة وأسعر قلبى بحر اللهب

فهبنى نعم قد كتمت الهوى فكيف بكتمان دمع سرب

ولولا اتقاؤك يا سيدى لوافتك بى الناجيات النجب [١]

هذه صورة من صور العشق التى جمعت بين الرشيد وإحدى جواريه ، التى أنجب منها ابنه المعتصم خليفة المسلمين فيما بعد .

وتتكرر صورة الارتباط مرة أخرى بين الرشيد وجواريه ، إلا أن بعضاً منها لا تذكر كتب الأدب أسباباً له ولا بدايات لحدوثه ، وإنما اكتفت بذكر اسم صاحبها أو عدم ذكره ، يصاحب هذا الاسم أبيات من الشعر قالها الرشيد ، وأرجع إلى ما قلته من قبل وهو أن الرشيد فى علاقاته هذه إنما كان ينشد حبه للشعر عبر حبه لجواريه ، فكل علاقة من هذه العلاقات العاطفية قد صاحبتها أبيات تصفها عبرت عن تجربة شعورية خاصة بها ، فأنتجت لنا فى النهاية مجموعة شعرية صاحبت اسم الرشيد ،

---

(١) الأغانى ١٩/٧٠ - ٧١ ، الديارات ١٤٤ ، ١٤٥ ، الورقة ٢٠ .

معلنة عن خليفة اتسم برقة الحس والمشاعر ، ومن هذه الصور ما قاله في جاريته صرف التي ملكته بحبها :

قل لمن يملك الملو ... ك وإن كان قد ملكْ

قد شريناك مدة ... وبعثنا إليك بكْ[1]

ويظهر أن الرشيد كان يحس دائماً بأنه الأضعف أمام الحبيب وأن سلطانه الذى لا حدود له ليس إلا سلطاناً وهمياً أمام عظمة وسلطان الحب ، فأضحى يكرر هذا المعنى فى كثير من أبياته كقوله :

ملكت من أصبح لى مالكاً ... لكنه فى ملكه ظالم

لو شئت لاشتاقته لى قدرة ... لكن حكم الحب لى لازم

أحببته من بين هذا الورى ... وهو بحبى خير عالم[2]

ويقول على غرار المعنى السابق مخاطباً إحدى جواريه :

يا ربة المنزل بالفرك ... وربة السلطان والملك

ترفقى بالله فى قتلنا ... لسنا من الديلم والترك[3]

وقال أيضاً :

صَدَّ عنى إذ رآنى مفتتن ... وأطال الصد لما أن فطنْ

كان مملوكى فأضحى مالكى ... إن هذا من أعاجيب الزمن[4]

ومن شعره فى جواريه ، ما قاله فى جاريته سحر التى طالما طلبها لتصير إليه فاعتلت فى يومها بعلة ، ثم جاءته من الغد ، فقال معبراً ومصوراً وقع هذه

---

(١) الورقة ٢٠ .

(٢) الديارات ١٤٥ - ١٤٦ .

(٣) تاريخ الخلفاء ٢٩٦ .

(٤) الأغانى ١٥٧/٣ ، تاريخ الخلفاء ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

الفعلة على نفسه معلناً أنه لن يقابل هذا الفعل إلا بمثله يقول :

أيا من رد ودى أمـ ـس لا أعطيكه اليوما
ولا والله لا أعطيـ ـك إلا الصد واللوما
وإن كان بقلبى منـ ـك حب يمنع النوما
أيا من سمته الوصل فأغلى المهر والسوما

ولقد شغف حباً بجاريته " جنان " فعمل فيها بيتاً من الشعر ، ورام أن يشفعه بآخر فامتنع القول عليه فأرسل للعباس بن الأحنف ليشاركه البحث عن شيطان شعره ، إلا أن الرشيد بدأ بيته فقال :

جنان قد رأيناها ولم نر مثلها بشرا

فقال العباس بن الأحنف :

يزيدك وجهها حسناً إذا ما زدته نظرا

فقال : زدنى ، فقال :

إذا ما الليل سال عليـ ـك بالإظلام واعتكرا
ودج فلم تر قمراً فأبرزها ترقمرا

عند هذا البيت وصل الرشيد إلى ما يريد ، فأمر للشاعر بصلة [(١)] وقال أيضاً فى جاريته " عارية " التى حرم من مشاهدتها ، ولكنه أبصرها بعينى رسوله:

إن تشق عينى بها فقد سعدت عينا رسولى وفزت بالخبر
وكلما جاءنى الرسول لها رددت عمداً فى عينه نظرى
خذ مقلتى يا رسول عارية فانظر بها واحتكم على بصرى[(٢)]

---

(١) وفيات الأعيان ٣/٢٢ .

(٢) نفسه ٣/٢٢ ، ٢٣ .

علـى أن جـل شعر الرشـيد وعشـقه كـان لجواريـه الثـلاث شـجو [١] وضيـاء وخنـث ، فقـد قـال فيهـن شعراً كثيراً ، مـن مثـل قولـه متوجهـاً بـالحديث فـى النهايـة إلى شـجو :

إننـــى وزعـت حبـى طائعـاً بيـن شجـو وضيـاء وخنث
يتنازعن الهوى من ذى هــوى آمنـــات عقـــدة لا تنتكـث
وإذا شجـــو أتـــت زائـــرة كشفت عنـى شجو كل بث [٢]

ويبـدو أن شـجواً هـذه كـانت تحتـل مكانـة خاصـة فـى قلبـه حتـى إنـه أعلـن عـن ذلك قـائلاً :

إن سحـراً وضيـاء وخنـــث هنَّ سحـر وضيـاء وخنـث
أخـذت سحر ولا ذنب لهـــا ثلثـى قلبى وترباها الثلث [٣]

ولقـد وصـل الرشـيد فـى حبـه لجواريـه الثـلاث إلى مرحلـة اعـترف فيهـا بضعـف سلطانه أمام سـلطان الهـوى كسـابقه ومـدى تمكـن جواريـه مـن قلبـه فقـال :

ملـك الثـلاث الآنسات عنـانى وحللـن من قلبى بكل مكان
مالـى تطاوعنـى البرية كلهـــا وأطيعهن وهـن فى عصيانـى
مـاذاك إلا أن سلطان الهـــوى وبـه غلبـن أعز من سلطانى [٤]

---

(١) فى بعض الروايات الأخرى وردت سحر ، كما سيأتى فى النص التالى .

(٢) الديارات ١٤٦ .

(٣) الأغانى ١٥/١٧ ، الورقة ١٨ .

(٤) الورقة ص ١٨ ، محاضرات الأدباء ٤٢/٣ ، تاريخ بغـداد ١٢/١٤ ، النـبراس ٣٦ ، ٣٧ ، نهاية الأرب ١٤٤/٢ ، فوات الوفيات ٢٢٦/٤ .

وتناقل الناس أمر الرشيد وجواريه ، حتى أنهم كانوا ينشدون له فيهن، قائلين على لسانه :

ثلاث قد حللن حمى فؤادى ويعطين الرغائب فى ودادى

نظمت قلوبهن بخيط قلبى فهن قرابتى حتى التنادى

فمن يك حل من قلب محلاً فهن من النواظر والسواد[١]

ولقد كان لكثرة تجارب العشق التى عاشها الرشيد أثر فعال فى أن يشغل نفسه بأمره حتى أنه سأل الأصمعى قائلاً " فكرت فى العشق مم هو ، فلم أقف عليه ، فصفة لى حتى أخاله جسماً مجسماً ... قلت : نعم يا سيدى ، إذا تقاربت الأخلاق المشاكلة وتمازجت الأرواح المشابهة لمح نور ساطع يستضئ به العقل ، وتهتز لإشراقه طباع الحياة ، ويتصور من ذلك النور خلق خاص بالنفس متصل بجوهريتها يسمى العشق "[٢] . وأعاد عليه السؤال فى مرة أخرى فأجابه " أن يكون البصل منها أطيب من المسك من غيرها "[٣] .

وإذا كان الرشيد يسأل عن العشق فهو لم يعدم القول فيه ، فقد جمع بين التجربة والخبرة فقال " قلب العاشق عليه مع معشوقه " ، هذه المقولة استهوت موروث الأصمعى الشعرى فبادره قائلاً : هذا والله يا أمير المؤمنين أحسن من قول عروة بن حزام العذرى لعفراء :

أرانى لتعرونى لذكراك روعة لها بين جلدى والعظام دبيب

---

(١) الأغانى ١٥/٧٨ .

(٢) نهاية الأرب ٢/١٢٧ .

(٣) محاضرات الأدباء ٣/٤٩ .

وأصرف عن رأيي الذى كنت أرتئ ويعـزب عنى ذكره ويغيب
ويضمـر قلبـى عذرهـا ويعينهـا على فمالى فى الفؤاد نصيب

فقال الرشيد : مـن قـال هـذا وهمـاً فإنى أقولـه علمـاً " (١) .

ولقـد صـدق الرشيد فـى هـذا فكثير مـن تجـارب حبـه عاشـها ونظـم فيهـا شعراً دون ذكـر صاحبتهـا ، ولقـد شـهد لـه الأصمعى بذلـك عندمـا قـال " وكان الرشـيد يتمثـل بهذيـن البيتـين :

أكنى بغير اسمـها وقد علم اللـ ـه خفيـات كـل مكتتـم
مخـافـة الكاشـح المفتـش أن يظهر فينا عواثر الكـلـم(٢)

وعلـى قـدر حـب الرشـيد لجواريـه فـى حيـاتهن ، كـان وفـاؤه لهـن عنـد الممـات - وهـذا نـادر فـى أوقـات كثيرة - ، وكأنـه يريـد أن يصـل عـبر حبـه بالتجربـة الشـعرية إلى أكـبر قـدر ممكـن مـن التفـاعل جامعـاً بذلـك بـين الوفـاء وحـب الشـعر ، فعندمـا كـان يصـاب فـى جارية يهواهـا ، كـان يرثيهـا بـأسمى معـانى الوفـاء ، كمـا حـدث مـع هيلانـة جاريـة أخيـه الهـادى التـى أحبهـا حبـاً شـديداً وشـغف بهـا حتـى أنـه عندمـا خلفهـا فـى بعـض أسـفاره ببغـداد اشـتاقها فقال فيهـا هـذه الأبيـات :

أهدى الحبيب مع الجنوب سلامـه فاردد عليـه مـع الشمال سلاما
واعرف بقلبـك مـا تضمن قلبـه وتداولا بهـواكمـا الأيـامـا
مهمـا بكيـت لـه فأيقـن أنـه ستفيـض منـه الدمـوع سجاما
فاحبس دموعك رحمة لدموعـه إن كنت تحفظ أو تحوط ذماما(٣)

---

(١) نور القبس ص ١٤١ ، زهر الآداب ١٠١٩/٤ ، ديوان المعانى ٢٨١/١ - ٢٨٢ .
(٢) نور القبس ص ١٤٢ .
(٣) الديارات ١٤٦ .

وعندما ماتت ودعها بعمق ، ورثاها بشعره معبراً من خلاله عن مدى حزنه الذى سيلازمه طويلاً لفقدانها يقول :

أف للدنيا وللزيـ ـنة فيها والإناث
إذ حثا الترب على هيلا ن فى الحفرة حاث
فلها تبكى البواكى ولها تشجى المراثى
خلفت سقماً طويلاً جعلت ذاك تراثى[١]

وله فيها أيضاً ما يصور سأمه من العيش وبعده عن اللذات بعد فراقها يقول:

قاسيت أوجاعاً وأحزاناً لما استخص الموت هيلانا
فارقت عيشى حين فارقتها فما أبالى كيف ما كانا
كانت هى الدنيا فلما ثوت فى قبرها فارقت دنيانا
قد كثر الناس ولكننى لست أرى بعدك إنسانا
والله ما أنساك ما حركت ريح باعلى نجد أغصانا[٢]

و لم يقف الحد عند رثاء الرشيد لجاريته التى افتقدها ، بل امتد ليشمل أيضاً مشاركة الشعراء لهذا الحدث الجلل فمصاب الخليفة أصبح يمثل فاجعة لامثيل لها دهمت بغداد جميعها ، إنها مشاركة شعرية تكمل معايشة الرشيد تجربته ، وأول من شارك فيها أبان بن عبد الحميد بأكثر ومن قوله على لسان الرشيد :

---

(١) فوات الوفيات ٤/٢٢٦ .

(٢) تاريخ الخلفاء ٢٩٥ - ٢٩٦ .

لقد بنت يا هيلان منى فقيدة ورب قرين بان غير فقيد
سقى الله دهرا كان يجمع بيننا ويرغم فيه أنف كل حسود
تمر لنا طير الزمان سوانحا وأنجمه تجرى لها بسعود
ففقدك يا هيلان كدر عيشى وأخلق من دنياى كل جديد[١]

ومن قوله يرثيها :

بت ضجيع الحزن ما أغفى لحادث جل عن الوصف
حزنان حزن منهما ظاهر وأوجع الحزنين ما أخفى
أنت أهلت الترب من فوقها مواريا تحت الثرى إلفى !
لهفى على هيلان لو أنه يرد شيئا فائتا لهفى[٢]

وآخر ما قاله فيها :

أديل من السرور الحزن لما ثوت هيلان فى جدث ورمس
وأصبحت البلاد غداة ولت عليها وحشة من بعد أنس[٣]

ومن الذين شاركوا فى هذا التأبين الشعرى ، مواساة للخليفة شاعره العباس بن الأحنف الذى قال على لسان الرشيد يرثى هيلانة :

أتلقى "ضياء" بعد "هيلانة" البلى! أرانى ملقى من وفاة الحبائب
سأوحش قلبى بعدها من سروره وأونس عينى بالدموع السواكب
إذا ذرفت عينى لحر مصيبة تمثلت قول المبتلى بالمصائب
"أجدك ما تعفو كلوم مصيبة على صاحب إلا فجعت بصاحب"[٤]

---

(١) الأوراق ١٨ .

(٢) نفسه ١٩ .

(٣) نفسه ١٩ .

(٤) ديوان العباس بن الأحنف ٥٩ .

وقال فى رثاء ضيـاء جارية الرشيد ، التى حزن عليها الرشيد أيضاً :

ألا إن صفو العيش بعدك أكـدر   وكل نعيـم سـوف يقلـى ويهجر
لعمرى لنعم المستغـاث به البـكا   إذا فنـى الصبـر الذى كان يذخـر
سأبكى "ضياء" مستقلاً لها البـكا   ويسـعدنى يحيى وفضـل وجعفر[١]

وقال على لسان الرشيد يرثى جارية له ماتت لم يذكر لها اسماً :

يا من تباشرت القبور بموتـه   قصد الزمـان لمهلكى فرمـاك
أبغى الأنيس فلا أرى لى مؤنساً   إلا التـردد حيـث كنت أراك
ملك بكـاك فطال بعدك حزنه   لـو يستطيـع بملكـه لفداك
يحمى الفؤاد من النساء حفيظـة   كى لا يحل حمى الفؤاد سـواك[٢]

وعلى الرغم من المبالغات الموجودة فى الأشعار التى قيلت إلا أنها تدل على مدى الوفاء الذى يكنه الرشيد لجواريه بعد مماتهن ، والتى تدل على صدق تجربة الحب التى يعيشها مع كل جارية ، والشعراء فى رثائهم كانوا يصورون واقعاً يعيشه الخليفة فى حالة فقده من يحب ، لأنه من خلال الأشعار المطروحة ظهر لنا فاقد اللذة والرغبة فى المتع وعلى حالة من اليأس القاتل ، إن الشعراء قد استمدوا - على ما أعتقد - هذه الصورة من ملامح الخليفة نفسه الذى كان يظهر عليه بصورة واضحة وطبعية علامات الحزن والفقد ، إنها لفقد الحب وتجربة الشعر المعاشة .

وإذا كانت هذه هى صورة الرشيد مع جواريه ، فإنها تختلف قليلاً من حيث علاقته مع أهل بيته ، فهنا يبدو أكثر تحفظاً وأشد غيرة . ولا

---

(١) السابق ١٥٢ .

(٢) نفسه ٢٠٨ .

ننكر عليه أنه مر بتجربة حب مع زبيدة أم محمد الأمين ، إلا أنه لم يقل فيها شعراً على غرار عشقه لجواريه ، كما لم يستمع العامة بنبأ هذا الحب ، كما علم الناس بأمر عشقه لجواريه الثلاث فالعلاقة هنا تمس بيت الخلافة فهى محبوبة الخليفة وزوجته وابنة خليفة أيضاً فنسبها معروف ، إنها زبيدة المعروفة بام جعفر أمه العزيز بنت جعفر المنصور[١] أعرس بها الرشيد فى ذى الحجة بقصره المعروف بالخلد ، وقد حشد الناس من الآفاق ، وفرق فيهم الأموال ، وقد كان احتفالاً بهيجاً لم ير فى الإسلام مثله ، حيث بلغ ما أنفق فى هذا الغرض من بيت مال الخاصة وما أنفقه الرشيد من ماله خمسين ألف ألف درهم[٢].

ولقد أحبها الرشيد وكلف بها كلفاً شديداً ، وهذا الكلف لأنها الوحيدة من بين جواريه وزوجاته التى جمعت أكثر من صفة من صفات المرأة المثال لديه ، فقد عرف عنها حبها للخير والإفضال على أهل العلم والبر للفقراء والمساكين [٣] ، وقد كانت كثيرة الحج ولها آثار كثيرة فى طريق مكة كسقيها أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار وإسالتها الماء عشرة أميال بخط الجبال ، ونحوتها الصخر حتى غلغلته من الحل إلى الحرم [٤].

---

(١) تاريخ بغداد ٤٣٣/١٤ .

(٢) وفيات الأعيان٢/٣١٤ - ٣١٥ .

(٣) تاريخ بغداد ٤٣٣/١٤ .

(٤) وفيات الأعيان ٣١٤/٢ .

وامرأة على هذا المثال كان من الطبعى أن يكلف بها الرشيد ، بل يهيم بها ، ولقد كانت تحبه هى أيضاً ، فكثيراً ما كانت تغار عليه لحبها المفرط له ، فقد مالها شغفه بدنانير البرمكية ، فشكت إلى أهله وعمومته فعاتبوه على ذلك ، لكنها لم تهدأ إلا بعد علمها بأن إعجابه لها من أجل غنائها وليس نفسها [١] .

وقد شكت إلى علية أخته كلفه بجارية أهديت إليه على قدر كبير من الجمال والكمال فأرسلت إليها قائلة " لا يهولنك هذا فوا الله لأردنه إليك قد عزمت أن أصنع شعراً وأصوغ فيه لحناً وأطرحه على جوارى فلا تبقى عندك جارية إلا بعثت بها إلى وألبستهن ألوان الثياب ليأخذن الصوت مع جوارى ففعلت ... فلما جاء وقت العصر خرجت علية من حجرتها وأم جعفر من حجرتها معاً زهاء ألفى جارية من جواريها وسائر جوارى القصر عليهن غرائب اللباس وكلهن فى لحن واحد صنعته علية :

منفصل عنى وما قلبى عنه منفصل
يا قاطعى اليوم لمن نويت بعدى أن تصل

فطرب الرشيد وقام على رجله حتى استقبل أم جعفر وعلية ، وهى على غاية من السرور " [٢] . ولقد كان الرشيد لطيفاً معها فكثيراً ما كان يمازحها [٣] ، ولم يكن فى استطاعته أن يغضب منها أو يهجرها ، وإذا حدث ذلك كان هو البادى بالمصالحة ، كصنيعه عند سماعه شعر داود بن

---

(١) الأغانى ١٦/١٣١ - ١٣٢ .

(٢) نفسه ٩/٨٣ - ٨٤ ، نهاية الأرب ٤/٢١٤ - ٢١٥ .

(٣) نزهة الألباء ص ١١٩ ، نهاية الأرب ٥/٨٠ - ٨١ .

رزين أثناء خصام بينهما يطلب فيه الشاعر من الخليفة المبادرة بصلحها لما لها من مكانة مرتفعة ، يقول :

زمن طيب ويوم مطير هذه روضة وهذا غدير

إنما أم جعفر جنة الخلـ ـد رضاها والسخط منها السعير

أنت عبدٌ لها ومولى لهذا الـ ـخلق طراً وليس ذا نكير

فاعتذر يا خليفة الله في الأر ض إليها وترك ذاك كبير (١)

ويغضب منها مرة أخرى ويترضاها على عادته فيأخذها كبرياء المرأة فترفض فيبيت ليلة كاملة في حالة أرق حتى سمع شاعرا على نهر دجلة يغني :

جرى السيل فاستبكاني السيل إذجرى وفاضت له من مقلتي غروب

وما ذاك إلا حين خبرت أنه يمر بواد أنت منه قريب

يكون أجاجاً ماؤه فإذا انتهى إليكم تلقى طيبكم فيطيب

فيا ساكني شرقي دجلة كلكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

فيجعل هذه الأبيات ذريعة للصلح فترضى عنه (٢) .

فعلاقة الرشيد بزوجته أكثر وقاراً من سابقتها التي ظهر الرشيد فيها الفارس الأول في كل شئ ، بينما هنا يترضى ويطلب العفو ، فهنا الزوجة وهناك العشق .

ولقد كان الرشيد منصفاً مع نسائه مبجلاً عندهن حتى بعد انفصاله عنهن ، فقد طلق امرأة له فلما أرادت الارتحال قال لها " اسمعي وليسمع من حضر أني والله اعتمدتك برغبة وعاشرتك بمحبة ولم أجد منك زلة ولم

---

(١) وفيات الأعيان ٣١٥/٢ .

(٢) الأغاني ٧٧/١٧ .

يدخلنى عنك ملة ولكن القضاء كان غالبا ، فقالت المرأة : جزيت من صاحب ومصحوب خيرا فما استقللت خيرك ولا شكوت ضيرك ولا تمنيت غيرك ولا أجد لك فى الرجال شبيها وليس لقضاء الله مدفع ولا من حكمه علينا ممنع " [(١)]

ولقد كان الرشيد على درجة كبيرة من الغيرة على نساء بيته ، حتى إن أمر غيرته أصبح مألوفاً لكل من يعرفه عن قرب ، فقد طلب من الأصمعى أن يقبل رأس ابنته مواساة ، فتحايل الأصمعى على الموقف - لما يعرفه من غيرة الرشيد - ، بأن وضع كمه على رأسها ثم فمه على كمه فقبله فبادر الرشيد قائلاً " والله لو أخطأتها لقتلتك " [(٢)].

واستمع إلى أخته علية بصحبة جعفر البرمكى ؛ وقد كانت فى مجلس مغلق فلما انتهت من الغناء قال لجعفر " أعرفت هذه المرأة قلت : لا يا أمير المؤمنين ، قال : فأنى أعلم أنك ستسأل عنها ولا تكتم ذلك وأنا أخبرك إنها علية بنت المهدى ، والله لئن لفظت به بين يدى أحد وبلغنى لأقتلنك " [(٣)].

وعندما علم بنبأ هواها لخادمها طل ، وقد كانت تذكره فى شعرها ، فحلف عليها ألا تكلمه ولا تذكره فى شعرها ، ولشدة خوفها من الرشيد كانت تقرأ آخر سورة البقرة حتى بلغت إلى قوله عز وجل " فإن لم يصبها وابل " فأرادت أن تقول " فطل " فقالت : فالذى نهى عنه أمير المؤمنين" [(٤)]

---

(١) المستطرف فى كل فن مستظرف ٢/٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) نور القبس ص ١٣٩ .

(٣) الأغانى ٩/٨٧ - ٨٨ .

(٤) نهاية الأرب ٤/٢١٣ - ٢١٤ ، ثمرات الأوراق ٢/٢٢٦ .

وبعد ، فهذه الصور المجتمعة التى أوردناها فى حديثنا عن علاقة الرشيد بالمرأة تؤكد لنا أنها تبتعد عن الشهوة ، وأنه إنسان له مشاعر حساسة مرهفة ، جياشة ، عاطفى إلى درجة كبيرة ، حتى لتلحظ وأنت تعبر هذه الأسطر بأن حياته كلها حب ، وجل حبه هذا بحث عن صفات خاصة تتوافر فى المحبوبة ، لتعكس هوى نفسه التواقة للبحث عن المرأة المثال ، فالمرأة المعشوقة لديه هى المحبة للأدب والشعر العالمة بهما ، العازفة البارعة فى الغناء ، الزكية النبهة ، المخلصة الوفية كثيرة العطاء العلمى .

هذه هى صور المرأة التى وجدت مكانها فى قلب الرشيد ، فصفاتها انعكاس لصفاته ، بينما الزوجة والبنت والأخت فلهن وضع خاص عنده ، فهو المنبسط معهن ، الغيور عليهن .

وفى مقابل الصور السابقة التى تحمل بين طياتها أسمى معانى العفة فى علاقته بالمرأة يأتى الجانب الحسى كصورة مخالفة تماماً للأولى ، فلقد أسندت إليه صور أخرى لأخبار ماجنة كان هو بطلها. ولعل هذه الصور كانت أكثر التصاقاً فى أذهان العامة عن سابقتها وأعتقد أنها كانت من أحد أسباب ذيوع اسمه وانتشاره . والرشيد عبر هذه الأخبار يبحث عن اللذة أينما وجدت ، ولقد كان الشعر دائما هو الخيط الأول الذى يبدأ من خلاله نزواته فيقال إنه " قعد يوماً عند زبيدة . وعندها جواريها ، فنظر إلى جارية واقفة عند رأسها فأشار إليها أن تقبله فاعتلت بشفتيها ، فدعا بدواة وقرطاس فوقع فيه :

قبلته من بعيد   فاعتل من شفتيه

ثم ناولها القرطاس ، فوقعت فيه :

فما برحت مكانى   حتى وثبت عليه !

فلما قرأ مـا كتبت استوهبها من زبيدة ، فوهبتها له ، فمضى بها وأقام معها أسبوعا لا يدرى مكانهما ، فكتبت إليه زبيدة :

وعاشق صب بمعشوقه كأنما قلباهما قلب

روحاهما روح ونفساهما نفس ، كذا فليكن الحب[1]

وينتابه أرق فى إحدى الليالى ، فإذا به يتمشى داخل قصره ، فرأى جارية نائمة ، فداس رجلها ثم قال لها ناظماً عندما استيقظت :

قلت ضيف طارق فى أرضكم هل تضيفوه إلى وقت السحر

فأجابته ناظمة أيضاً :

بسرور وهناء سيدى أخدم الضيف بسمعى والبصر[2]

وينتقل من أمر هذه الجارية إلى أخرى أهديت إليه ، وكانت ماجنة شاعرة أديبة وكان يحضر مجلسهما إسحاق الموصلى ، فطلب منه الرشيد أن يقول شعرا فى جمال باقة ورد أمامه فقال :

كأنه خد موموق يقبله فم الحبيب وقد أبدى به خجلا

فإذا بالجارية تقطع عليه الشعر ، لتنظم قائلة :

كأنه لون خدى حين تدفعنى كف الرشيد لأمر يوجب الغسلا

فيأمر الرشيد الموصلى بالخروج بعد أن حركته الجارية [3] .

---

(١) العقد الفريد ١٠٣/٨ .

(٢) إعلام الناس ٥٤ .

(٣) العقد الفريد ٥٤ .

ويكمل سلسلة بحثه عن اللذة ، عندما اقتحم مقصورة جارية على غفلة منها على حين كانت تغتسل ، فلما رأته تجللت بشعرها ، فأعجب بذلك ونظم له أبو نواس هذا الحدث شعراً عندما قال :

نضت عنها القميص لصب ماء	فورد وجهها فرط الحياء
وقابلت الهواء وقد تعرت	بمعتدل أرق من الهواء
وقدت راحة كالماء منها	إلى ماء معد فى إناء
فلما أن قضت وطراً وهمت	على عجل إلى أخذ الرداء
رأت شخص الرقيب على التدانى	فأسبلت الظلام على الضياء
وغاب الصبح منها تحت ليل	وظل الماء يقطر فوق ماء
فسبحان الإله وقد براها	كأحسن ما يكون من النساء

وبعد ، فهاتان هما الصورتان اللتان وردتا فى كتب الأدب عن علاقة الرشيد بالمرأة ، والفرق واضح بينهما ، فإحداهما وصفته بالطهارة والعفاف ، والأخرى بالمجون والخلاعة ، وهناك صور أخرى وردت له من الصعب إيرادها لما حوته بين طياتها من الشعر الفاضح[1].

ولعل هذا يعطى لنا مؤشراً مؤداه ، أن شخصية الرشيد قد تعرضت لمجموعة من التحورات ، حيث انتقلت من مجالها الحقيقى الذى عرفت به داخل كتب التاريخ إلى مجال آخر هو الذيوع والانتشار ، الأمر الذى جعل منها مادة قصصية يُحملها الناس من طرفهم ما يجعلها صالحة للمسامرة ، لذا جاء فيها بعيداً عن صورة الملك المتعارف عليه ، فهو الماجن المتلصص ، الباحث عن الشهوة أينما وجدت ، وهذا هو أسلوب القاص الشعبى الذى

(١) انظر فى ذلك ما ورد فى العقد الفريد ٩٩/٨ ، وإعلام الناس ٥٥ ، نهاية الأرب ١٨/٤ ، أخبار أبى نواس ٢١٥ .

يفضل دائما أن يكون الخيال القاسم المشترك بينه وبين ما يروى ، وأن يجعل من مادته المعروضة صورة محببة للنفس مليئة بالظرف والندرة . وأعتقد أن هذه الصورة التي وردت للرشيد هي التي سبقت تعريفه عند من يجهله ، بل جعلته دوما في أذهان العامة ، و لم لا وقد تأثر بها كتاب الأدب الفصيح ، فجاءت على صفحاتهم لتشهد على صدق هذا التأثر .

ثانياً : الرشيد والغناء :

لم يكن الغناء بالنبتة الغريبة فى المجتمع العباسى ، بل شغف العرب به منذ عهد متقدم فقد " عرف عنهم أنهم كانوا يغنون من المهد إلى اللحد ويرقصون أطفالهم بالغناء ، ويبكون موتاهم بالنواح ، وهو ضرب حزين من ضروب الغناء"[١] .

ولقد استخدم العرب القيان فى غنائهم فى مدن الجزيرة العربية[٢] على أن الغناء عندهم لم تكن له قواعد وأصول مرسومة ، فالكل يغنى حسب شعوره وعواطفه ومقدار ما يؤثر فى سامعيه [٣] ، وقد شاع فن الغناء عند أهل المدينة فى العصر الجاهلى [٤] ، كما انتشر فى مكة واشترك فيه النساء والرجال [٥] .

ولقد كان لطبيعة العرب سواء من حيث النشأة أو التكوين ما حبب إليهم فن الغناء " فهدوء الصحراء واتساعها ، وفرحهم بالمطر والسحاب وتمجيدهم للناقة والفرس ، وغرامهم بالفروسية والبطولة ، ونشأتهم فى الحروب والعادات ، وتفاخرهم بالحب والنسب والكرم والمروءة وما إلى ذلك من الصفات الإنسانية العالية ، كل أولئك على ما بهم من سعة الخيال وحدة العواطف كانت دوافع حافزة على التغنى بالشعر فى

---

(١) الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية ص ٣٩ .

(٢) نفسه ص ٤٠ .

(٣) نفسه ص ٤١ .

(٤) نفسه ص ٤١ .

(٥) نفسه ص ١٨١ .

مجالسهم .... كذلك للأديرة التى كانت منتشرة بالجزيرة العربية والشام والحيرة الفضل الأول فى تسرب الغناء إلى العرب وتعشقهم إياه . كذلك كان للشراب فى الحياة الجاهلية أثر عميق فى استخفاف العربى وهيجة خواطره فحن إلى الغناء وطلبه وسافر إليه فى كل مكان . وحبهم للمرأة والسعى وراءها والحنين إليها واستمداد القوة الروحية منها ، ورحيلهم للتجارة أو التنقل بقوافل الإبل كان من أقوى الدوافع إلى تعشقهم الغناء كفن جميل فيه تنفيس وتفريج [١] .

وارتبط الغناء عند العرب بالشعر ، فإذا كان الشعر ديوانهم الأول ، فقد كان أيضاً مادة الغناء ، فجاء لذلك قديماً عريقاً عراقة الشعر وقدامته[٢] .

وجاء الإسلام فأحدث ثورة روحية واجتماعية وعقلية فى حياة العرب ، إلا أننا لم نسمع عن اندثار فن الغناء ، غير أنه انحسر فى عهدى أبى بكر وعمر بالمدينة لانشغالهما بالحروب والفتوح [٣] ، بينما وجد الغناء رواجاً فى عصر عثمان لما ألفه العرب من معيشة فخمة لينة فى عصره [٤] .

وفى عصر بنى أمية عنى الحجاز بالغناء عناية بالغة ، فى الوقت الذى لم تحفل به الشام ولا العراق فى أول الأمر [٥] ، على حين وصل فى

---

(١) الجوارى المغنيات ص١٠ .

(٢) نفسه ص ١٤ .

(٣) الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية ص ٤٤ .

(٤) نفسه ٤٤ – ٤٥ .

(٥) نفسه ٤٦ .

المدينـة إلى درجـة كبـيرة مــن التقــدم [١] ، ووقفــت معهــا مكــة علــى الدرجــة نفسـها [٢] وربمـا كـان لحيـاة السياسـة أثرهـا الكبـير فـى انشـغال قطـر دون الآخـر بفن الغنــاء .

وسـرعان مـا وصـل فـن الغنــاء إلى قمتــه فــى عهــد العباســيين ، حيــث كـان الغنـاء والشـراب أشـهى ضـروب اللهـو لديهـم ، فأســرفوا فــى الاســتمتاع بـه [٣] . ووصـل شـغفهم بالغنـاء إلى تعليمـه لجواريهـم فـارتفع علـى أيديهـن إلى أبعد صـورة مـن التقـدم والرقـى [٤] .

وهـذا أمـر طبعـى لمـا وصلـت إليـه البـلاد بعـد أن أفنـى السـفاح والمنصـور عمريهمـا فـى تأسيس الدولـة العباسـية بعـد زوال ملـك الأمويـين ،حيـث صرفـا كل جدهمـا لرعايـة الدولـة الناشئة وكبـح جمـاح الثـائرين [٥] .

ودائمـاً يرتبـط الغنــاء بمـدى الرقــى الحضــارى والاجتمــاعى للدولــة الموجـودة فلمـا وصلـت البـلاد - فـى عهـد العباسـيين - إلى حالـة مــن الهــدوء النسبى والاسـتقرار الاجتمــاعى ، كـان الغنــاء صــورة صادقــة لإشـباع ميـول ورغبـات العباسـيين ، والتـى كـانت مطابقـة للوضـع الجديـد فتحقــق لهـم بذلـك اللهـو والإسـراف فيـه [٦] على أن الإسـراف فـى اللـذة والتمتـع بهـا قــد زاد فــى

---

(١) السابق ٥٥ .

(٢) نفسه ١٨٣ .

(٣) الجوارى المغنيات ٢٢ .

(٤) الموشى . مقدمة المحقق ص (و) .

(٥) ضحى الإسلام ١٠٤/١ .

(٦) الجوارى المغنيات ٢٩ .

زمن الرشيد لزيادة دخل الدولة فى عهده ، وميله إلى الغناء والطرب ، وحب الفرس للهو والسرور [١] وما عرف عنهم من إتقان فى صناعة الألحان [٢] .

ولا غناء بلا منادمة ، فالغناء والمنادمة أمران متلازمان ، والرشيد فى منادمته جاء عكس سابقيه من خلفاء بنى أمية والعباس فى هذا المضمار ، فمعظم خلفاء بنى أمية قد فصل بينهم وبين ندمائهم بستارة ، ومكث السفاح - أول خليفة عباسى - سنة بين ندمائه ثم احتجب عنهم ، بينما آثر المنصور على نفسه ألا يظهر لنديم قط لما عرف عنه من كره للشراب والغناء [٣] بينما ظهر الرشيد لندمائه " فما كان يبالى أين قعد ، ومع من قعد ، ولو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب فرقها كلها وألقاها عن وجهه ، حتى يقعد حيث قعدوا " [٤] .

والرشيد والغناء طريق طويل يشهد له بذلك كتاب الأغانى بما فيه من أخبار ، فقد كان الرشيد محباً للغناء ، شغوفاً به ولا أدل على ذلك من كونه طلب من المغنيين فى عصره أن يجمعوا له مائة صوت من الألحان المختارة [٥] ، لأجل ذلك لم يكن الأمر غريباً ، عندما أحاط نفسه بجماعة من المغنيين شهد لهم بالبراعة وجودة الغناء سواء فى عصرهم أو العصور التى تلتهم وهم " إبراهيم الموصلى ، وابن جامع السهمى ، ومخارق ،

---

(١) ضحى الإسلام ١١١/١٠ - ١١٣ .

(٢) الجوارى المغنيات ص ١٨ .

(٣) عصر المامون ١٧٦/١ وما بعدها .

(٤) التاج فى أخلاق الملوك ص ٤٢ .

(٥) الأغانى ٤/١ .

وطبقة أخرى دونهم ، منهم زلزل ، وعمرو الغزال ، وعلوية ، وكان له زامر يقال له برصوما وكان إبراهيم أشدهم تصرفا فى الغناء ، وابن جامع أحلاهم نغمة " (١) .

على أن أقرب هؤلاء المغنيين إلى قلب وقصر الخليفة إبراهيم الموصلى ؛ الذى غالباً ما أحب الاستماع إليه بمفرده إعجاباً بفنه وشخصه فقد دعاه فى إحدى المرات قائلاً له " يا موصلى إنى اشتهيت أن أجلس فى هذا الصحن فلم يتفق لى إلا اليوم ، وأحببت أن لا يكون معى ومعك أحد ثم صاح بالخدام فوافاه مائة وصيف ، وإذا هم بالأروقة يستترون بالأساطين حتى لا يراهم ، فلما ناداهم جاءوا جميعاً فقال مقطعة لإبراهيم وكان هو أول من قطع المصليات فأتيت بمقعد فألقى لى تجاه وجهه بالقرب منه ودعا بعود فقال بحياتى أطربنى بما قدرت " (٢) .

ولقد وصلت درجة القرب هذه إلى أنه كان يشاركه فى طعامه وشرابه ولباسه ، فلما خرج معه فى غزو إلى الشام أطعمه وألبسه شيئاً من ثيابه ثم قال له " انظر يا إبراهيم كم من يد أوليتك إياها اليوم ! نادمتنى منفرداً وآكلتنى وخلعت عليك ثياباً من بدنى ، ووصلتك وأجلستك فى إيوان مسلمة بن عبد الملك " (٣) .

وشهد له الرشيد ببراعته وتفرده فى الغناء عندما سأله فى أحد الأيام عن كيفية صياغته للألحان فقال " يا أمير المؤمنين أخرج الهم من فكرى وأمثل الطرب بين عينى فيسرع لى مسالك الألحان فأسلكها بدليل

---

(١) العقد الفريد ٧/٢٨ .

(٢) الأغانى ٥/٣١ - ٣٢ .

(٣) نفسه ٥/٢٣ .

الإيقاع فأرجع مصيباً ظافراً بما أريد ، فقال : يحق لك يا إبراهيم أن تصيب وتفر وأن حسن وصفك لمشاكل حسن صنعتك وغنائك "[١]

ودون سبب ظاهر يغضب الرشيد على إبراهيم الموصلي فيأمر بحبسه في المطبق ، فيقول في ذلك أبو العتاهية معبراً عن حزنه لهذا الحدث الجلل ، - بعد أن أخبره سلم الخاسر - متوجهاً بحديثه إلى الرشيد :

سلم يا سلم ليس دونك ستر   حبس الموصلي فالعيش مر

ما استطاب اللذات مذ سكن المطـ   ـبق رأس اللذات في الناس حر

ترك الموصلي من خلق اللـ   ـه جميعا وعيشهم مقشعر

حبس اللهو والسرور فما في الـ   أرض شيء يلهي به أو يسر[٢]

فسرعان ما يكتشف فداحة الأمر الذي أقدم عليه ، وتبين أن مجلسه أصبح خاويا بعد غياب الموصلي ، فإذا به يخرجه من حبسه ، ويستمع إلى غنائه ، بعد أن وهب له الهنئ ، والمرئ [٣] ، وغناه الموصلي على إثر ذلك :

تضوع مسكاً بطن نعمان أن مشت   به زينب في نشوة خفرات[٤]

ويحس الرشيد بالألم عند شعوره بمرض إبراهيم الموصلي ، فعاده وسأله عن حاله فقال له " أنا والله يا سيدي كما قال الشاعر :

سقيم مل منه أقربوه   وأسلمه المداوي والحميم

فقال الرشيد إنا لله ! وخرج فلم يعد حتى سمع الناعية عليه "[٥] وعندما

---

(١) السابق ٥/٣٤ .

(٢) وفيات الأعيان ١/٤٣ .

(٣) الهنئ والمرئ : ضيعتان للرشيد .

(٤) الأغاني ٥/٧ وكذلك نهاية الأرب ٤/٣٣٣ ، الأغاني ٦/٢٩ .

(٥) نفسه ٥/٤٣ .

بلغه نبأ وفاة إبراهيم طلب من ابنه المأمون أن يصلى عليه احتراما وإجلالا لفنه [١].

ولم ينس الرشيد الموصلى عقب موته ، بل كان وفيا له ، ذاكرا لفنه فقد أدنى منه ابنه إسحق وقربه من مجلسه وجعله من خواصه ، فعند لقائه الأول به ، الذى أنشده فيه ذاكرا مصابه ، طالبا عوض الخليفة قائلاً :

فى بقاء الخليفة الميمون خلف من مصيبة المحزون

لا يضير المصاب رزء إذا ما كان ذا مفزع إلى هارون

رد عليه الرشيد " كذلك والله هو ولن تفقد من أبيك مادمت حياً " [٢].

والرشيد على هذه الصورة لم يكن رجل سماع لمجرد اللهو والترف فقط ، وإنما كان سماعه مشوباً بروح الإنسان المحسة الصادقة ، الأمر الذى يكشف لنا عن روح الأصالة لهذه الشخصية ، لما تحويه من وفاء لمن أسعدها فى وقت من الأوقات ، ناعياً على نفسه قيمة فنية كبيرة مستعيضاً عنها بابنه .

ولقد أحدث الرشيد تنظيرا جديداً للغناء والمغنين فى عصره ، فهو أول من جعل للمغنين مراتب وطبقات [٣] وجاء تقسيمه متأثراً بالفرس فلهم ما يماثل ذلك [٤] وجاء تقسيم الرشيد لمغنييه تبعاً لإجادة المغنى وحذقه بفنه وشهادة الناس له بذلك ، كما اعتمد على خبرته بالغناء وتذوقه الخاص له ، لذا جاء تقسيمه كالتالى " إبراهيم وابن جامع وزلزل فى الطبقة الأولى ،

---

(١) السابق ٥/٤٣ .

(٢) نفسه ٥/٤٥ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٩٥ .

(٤) التاج فى أخلاق الملوك ص ٣٧ .

وكان زلزل يضرب ويغنى هذان عليه والطبقة الثانية سليم بن سلام عمرو الغزال ومن أشبهمها.والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والونج والطنانير " [١]

وواكبت عطايا الرشيد وهباته لمغنيه تبعاً لطبقة كل واحد منهم، فكان " إذا وصل واحدٌ من الطبقة الأولى بالمال الكثير الخطير ، جعل لصاحبيه اللذين معه فى الطبقة نصيباً منه ، وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه أيضاً نصيبا . وإذا وصل واحداً فى الطبقتين الأخريين بصلة ، لم يقبل واحد من الطبقة العالية منه درهما ولا يجترئ أن يعرض ذلك عليه" [٢] .

على أن أمر هذا التنظير كان من الصعب خرقه أو اجتيازه حتى على الرشيد نفسه ، ففى الوقت الذى سمح فيه بأن تكون نوبة إبراهيم بن أخى سلمة مع إسحاق الموصلى فى آن واحد ، اعتبر إسحاق هذا الأمر إهانة موجهة له ولفنه ، فبادر بعرض الموقف على الفضل بن الربيع فرفعه للرشيد معبراً عن فداحة الموقف قائلاً " يا أمير المؤمنين إسحق وخدمته وحقوق أبيه عليك وعلى أمير المؤمنين المهدى تضع مقداره أن تجعله مضموما إلى إبراهيم بن أخى سلمة ، قال لا وا لله ما فعلت هذا . قال إنه قد جاءنى يبكى ويحلف إن جرى عليه هذا تاب من الغناء وتركه جملة ثم لو قتل لم يعد إليه " [٣] فإلى هذا الحد وصل الأمر من إسحق الموصلى الذى أزمع ترك الغناء ، واعتزاله لمجرد تفكير الرشيد فى أن يجعل نوبته مع من هو أقل منه قدرة وشأنا فى فنه ، فما كان من الرشيد إلا أن استجاب للطلب وأعاد الأمور إلى نصابها .

---

(١) السابق ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) نفسه ص ٣٩ .

(٣) الأغانى ٥/٩٩ .

ولفرط حب الرشيد للغناء ، كان دائم البحث عن الأصوات المتفردة ، وكأنه يقوم بدور المكتشف للمواهب فى عصرنا الحالى ، فبمجرد سماعه عن غلام يغنى :

هما فتاتان لما يعرفا خلقى وبالشباب على شيبى يدلان

أرسل إلى إبراهيم الموصلى حتى يوافيه بخبر هذا الصوت وصاحبه ، فإذا هو لغلام بالمدينة ، فأخذ منه الصوت ، وأسمعه الرشيد(١) . ولكم كانت سعادته بالغة عندما علم بخبر مغن غريب مجيد ، هو تلميذ إسحاق الموصلى يدعى زريابا ، فأمر بإحضاره سريعاً ، وسأله عن معرفته بالغناء فأجاب " أحسن منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه ، مما لا يحسن إلا عندك ولا يدخر إلا لك ، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك ، فأمر بإحضار عود أستاذه إسحاق فلما أدنى إليه وقف عن تناوله ، وقال : لى عود نحته بيدى وأرهفته بإحكامى ، ولا أرتضى غيره ، وهو بالباب ، فليأذن لى أمير المؤمنين فى استدعائه ، فأمر بإدخاله إليه فلما تأمله الرشيد وكان شبيها بالعود الذى دفعه ، قال له : ما منعك أن تستعمل عود أستاذك ؟ فقال : إن كان مولاى يرغب فى غناء أستاذى غنيته بعوده ، وإن كان يرغب فى غنائى فلابد لى من عودى ... ثم اندفع فغناه :

يا أيها الملك الميمون طائره هارون راح إليك الناس وابتكروا

فأتم النوبة " ، وطار الرشيد طربا ، وقال لإسحاق : والله لولا أنى أعلم من صدقك لى على كتمانه إياك لماعنده وتصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامى بشأنه " (٢) .

---

(١) السابق ١٠/١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) نفح الطيب ٣/١٢٢ - ١٢٣ .

هذا هو حال الرشيد عندما يحس بأن بين يديه قيمة فنية كبيرة ، كان سيفقدها بل كاد يعنف إسحاق لولا علمه بصدقه من أنه كان سيخفى عنه هذه الثروة التى يعتبرها قومية فى نظره ، من هنا كان دائب البحث والتنقيب عما يماثل هذه الصور ، لذا كان غضبه شديدا عندما سمع صوت غناء من جارية ، تغنى لعبد الله بن العباس الربيعى ، فانتهر جده الفضل لإخفائه أمره عنه قائلاً له " أيكون لك ابن يغنى ثم يبلغ فى الغناء الذى يمكنه أن يصنع صوتين يستحسنهما إسحاق وسائر المغنيين ويتداولهما جوارى القيان ولا تعلمنى بذلك ، كأنك رفعت قدره عن خدمتى فى هذا الشأن [١] !فقال له الفضل " وحق ولائك يا أمير المؤمنين ونعمتك وإلا فأنا برئ من بيعتك وعلىَّ العهد والميثاق والعتق والطلاق إن كنت علمت بشئ من هذا قط إلا منك الساعة " [٢] إن طريقة الدفاع هذه عن النفس ، تكاد تقترب من التخلص من جرم شديد اقترب من الجرم السياسى ، وهكذا علم حاشية الرشيد عن مدى تذوقه وحبه للغناء ، فدافعوا عن أنفسهم دفاع المستميت وقت الإحساس بغضب الخليفة ، على أن الرشيد لم يهدأ له بال إلا بمثول عبد الله بين يديه فأسمعه من غنائه وأطربه فحمل له عشرة آلاف دينار وثلاثين ثوبا من فاخر الثياب [٣] .

ويبدو أن عدوى البحث عن المواهب والأصوات الحسنة قد انتشرت بين خدم الرشيد ، فسرعان ما نقلوا إليه خبر وصول ابن جامع

---

(١) نهاية الأرب ٢٣/٥ .

(٢) نفسه ٢١/٥ .

(٣) نفسه ٢٥/٥ .

المغنى ، الذى انتقل بعياله إلى المدينة بعد أن أقعده الحال وضمه الدهر بمكة ، وكان الرشيد قد تشوق إليه عقب سماعه عنه ، فاستدعاه للغناء ويحكى ابن جامع تفاصيل هذا اللقاء الأول المثير بينه وبين الرشيد بعد أن غناه فأحسن الغناء فخرج عليه الرشيد قائلاً " متى كنت فى هذه البلدة ؟ قلت : آنفا ، دخلتها فى الوقت الذى علم بى أمير المؤمنين ، قال اجلس ويحك يا ابن جامع ومضى هو وجعفر فجلسا فى بعض تلك المجالس ، وقال لى أبشر وابسط أملك فدعوت له ، ثم قال غننى يا بن جامع فخطر بقلبى صوت الجارية الحميراء [1] فأمرت الرجل بإصلاح العود على ما أردت من الطبقة ، فعرف ما أردت فوزن العود وزنا وتعاهده حتى استقامت الأوتار وأخذت الدساتين مواضعها وانبعثت أغنى بصوت الجارية الحميراء فنظر الرشيد إلى جعفر وقال : أسمعت هكذا قط ؟ فقال لا والله ما خرق مسامعى قط مثله . فرفع الرشيد رأسه إلى الخادم بالقرب منه فدعا بكيس فيه ألف دينار فجاء به ، فرمى به إلى فصيرته تحت فخذى ودعوت لأمير المؤمنين . فقال : يا ابن جامع رد على أمير المؤمنين هذا الصوت ، فرددته وتزيدت فيه فقال له جعفر : يا سيدى ، أما تراه كيف يتزيد فى الغناء ! هذا خلاف ما سمعناه أولاً ، وإن كان الأمر فى اللحن واحداً ، قال فرفع الرشيد رأسه إلى الخادم فدعا بكيس آخر فيه ألف دينار ، فجاءنى به فصيرته تحت فخذى . وقال

---

(١) هى جارية قابلها ابن جامع فغنته هذا الصوت الذى غناه للرشيد :

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا ... فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا

إذا ما دنا الليل المضر لذى الهوى ... جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا

وذاك لأن النوم يغشى عيونهم ... سراعاً ولا يغشى لنا النوم أعينا

فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما ... نلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا

تغن يا إسمعيل ما حضرك ، فجعلت أقصد الصوت بعد الصوت مما كان يبلغني أنه يشترى عليه الجوارى فأغنية فلم أزل أفعل ذلك إلى أن عسعس الليل ، فقال أتعبناك يا إسمعيل هذه الليلة بغنائك"(١) .

ولأجل الاحتفاظ بموهبة عند العثور عليها ، تنازل الرشيد عن حقه السياسى فى قتل الهيضم - وكان قد خرج عليه باليمن - بعد علمه بأنه أحذق الناس بغناء المعزفة وضربها ، فأمر سيافه بالإمساك عنه واستبقائه ، وقربه من مجلسه وأصبح من ندمائه (٢) .

ولحذق الرشيد بالغناء ، كان يصيب دائماً فى معرفة مواطن الإجادة عند مغنيه ، عرف عن ابن جامع أنه أحسن ما يكون غناء عند الحزن ، فاستخدم ذكاءه للوصول إلى قمة عطاء ابن جامع بالتعاون مع وزيره الفضل عندما قال له " ابعث خريطة فيها نعى أم جامع وكان باراً بأمه ، ففعل فوردت الخريطة على أمير المؤمنين وهو فى مجلس لهوه ، فقال : يا ابن جامع جاء فى هذه الخريطة نعى أمك ، فاندفع ابن جامع يغنى بتلك الحرقة والحزن الذى فى قلبه :

كم بالدروب وأرض السند من قدم   ومن جماجم صرعى ما بها قبروا
بقندهار ومن تكتب منيته   بقندهار يرجم دونه الخبر

قال فوا لله ما ملكنا أنفسنا ورأيت الغلمان يضربون برءوسهم الحيطان والأساطين ... وأمر له الرشيد بعشرة آلاف دينار (٣) .

---

(١) الأغانى ٧٤/٦ - ٧٥ وكذلك ذيل زهر الآداب من ١٠٢ - ١٠٥ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٢٣٧ .

(٣) الأغانى ٧٣/٦ ، وكذلك نهاية الأرب ٣٠٧/٤ .

وغناه إبراهيم الموصلى بيتاً من الشعر طرب وعلم أن مخارقاً أكثر إجادة فى غناء هذا البيت فأرسل إليه طالباً سماعه منه فغناه :

يا ربع سلمى لقد هيجت لى طرباً زدت الفؤاد على علاته وصبا

فبلغ الرشيد قمة اللذة فى السماع وأعتق المغنى وأجزل له العطاء [1] .

وعلم الشعراء والمغنون حب الرشيد للغناء ، فصاغوا له أمنياتهم وشكواهم فى قوالب غنائية شعرية ، فإذا كانت بعض مجالسه تبغى الطرب لذاته ، فهناك أخرى تمثل معبراً لمغنيها للوصول إلى ما يريدون عبر سماعه ، فكم من أمنيات تحققت ، وأحكام صدرت على أثر أنغام عازف مجيد ، أو مغن أعجب الرشيد به ، مثال ذلك ما غناه بعضهم :

غزال يرتعى جنبات واد بحسنه قد تمكن فى فؤادى

سقانى شربة كانت شفاء لعلة حائم غرثان صادى [2]

فعرف الرشيد أنه يغنى محبوبة أكنى عنها فقال له " أتحب أن أزوجكها ؟ فقلت : نعم والله يا سيدى قال : فاخطبها والمهر على وما يصلحها " [3] .

وعلم أن يحيى بن طالب الشاعر هرب من دين عليه عندما غناه إبراهيم الموصلى من شعر الشاعر :

أريد رجوعاً نحوكم فيصدنى إذا رمته دين على ثقيل

---

(١) السابق ٢/١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) الغرثان : الجائع ، الحائم : العطشان .

(٣) نفسه ٢/١٨٣ .

فأمر أن يكتب إلى عامل الرى بقضاء دينه وإعطائه نفقته وإنفاذه إليه على البريد[١] .

ووجد الرشيد على منصور زلزل لأمر ما فحبسه عنه عشر سنين، فغناه الموصلى مضمناً أبياته حزنه على منصور ، قاصداً بذلك تذكيره به فقال :

هل دهرنا بك راجع يا زلزل — أيام يبغينا العدو المبطل
أيام أنت من المكاره آمن — والخير متسع علينا مقبل
يا بؤس من فقد الإمام وقربه — ماذا به من ذلة لو يعقل
مازلت بعدك فى الهموم مردداً — أبكى بأربعة كأنى مثكل

فأمر الرشيد بعد السماع بإحضار زلزل وقد ابيض شعره ولحيته ، فسر الموصلى لذلك[٢] .

ويشتاق إسحاق الموصلى بغدادبعد خروجه مع الرشيد فى رحلة صيد إلى الرقة ، فيغنيه راغباً العودة :

أسعد بدمعك يا أبا العوام — صباً صريع هوى ونضو سقام

فيفهم الرشيد مغزى الأبيات فقال له " تشوقت والله يا إسحق وشوقت وبلغت ما أردت ... ورحل إلى بغداد بعد أيام " [٣] .

وأرسلت إليه أخته أبياتاً معترفة فيها بذنب ، طالبة عفو الخليفة على إثر خصام دب بينهما قائلة على لسان شاعرها :

---

(١) السابق ٢٠/١٥٠ .

(٢) نفسه ٥/٢٠ .

(٣) نفسه ٧٥/١٧ .

لو كان يمنع حسن العقل صاحبه ... من أن يكون له ذنب إلى أحد

كانت علية أربى الناس كلهم ... من أن تكافا بسوء آخر الأبد

ما أعجب الشئ ترجوه فتحرمه ... قد كنت أحسب أنى قد ملأت يدى

فبعث إليها الرشيد وقبل رأسها وعفا عنها [١] . ولتأخرها أياما بعد حجها وإقامتها بطيرناباذ أرسل إليها مغضبا ، فاحتجت له مبررة سبب عذرها في لَحْنَين قائلة :

أى ذنب أذنبته أى ذنب ... أى ذنب لولا رجائى لربى

بطيزناباذ يوماً ... بعده ليلة على غير شرب

ثم باكرتها عقارا شمولاً ... تفتن الناسك الحليم وتصبى

قهوة قرقفاً تراها جهولاً ... ذات حلم فراجة كل كرب

فلما سمع الرشيد اللحنين رضى عنها [٢] وصارت معه إلى المرج فاشتاقت العراق فغنت طلباً للرجوع :

ومغترب بالمرج يبكى لشجوه ... وقد غاب عنه المسعدون على الحب

إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه ... تنشق يستشفى برائحة الركب

فردها إلى العراق [٣] ، وعندما طلب أختها و لم يطلبها ، عز عليها ذلك فأرسلت إليه معبرة عن مدى قربها منه ، وأثر هذه الواقعة على نفسها قائلة :

مالى نسيت وقد نودى بأصحابى ... وكنت والذكر عندى رائح غاد

أنا التى لا أطيق الدهر فرقتكم ... فرق لى يا أخى من طول إبعاد

---

(١) السابق ١٩/١٧١ .

(٢) الأغانى ٩/٨٨ - ٨٩ .

(٣) نفسه ٩/٨٩ .

فبعث إليها وأحضرها [١] ، وأعجب إبراهيم الموصلي ببستان في الحيرة عند موضع يقال له شماري ، فصاغ للرشيد هذا المعنى وضمنه غناءه طلباً للعطاء قائلاً :

جنان شماري ليس مثلك منظر ... لذي رمد أعيا عليه طبيب

ترابك كافور ونورك زهرة ... لها أرج بعد الهدو يطيب

فأمر له بأربعة عشر ألف دينار قيمة شراء البستان [٢] .

ويطلب الرشيد إسحاق الموصلي ثلاثاً ، فلا يقدر عليه لانشغاله بالنساء في تل عزاز ، فيصنع له الموصلي لحنا يعرب فيه عن تأخره طالباً العفو راوياً القصة قائلاً :

إن قلبي بالتل تل عزاز ... عند ظبي من الظباء الجوازي

شادن يسكن الشآم وفيه ... مع دل العراق ظرف الحجاز

يا لقومي لبنت قس أصابت ... منك صفو الهوى وليست تجازي

حلفت بالمسيح أن تنجز الوعـ ... ـد وليست تجود بالإنجاز

فما كان من الرشيد إلا أن صفح عنه [٣] .

على هذه الصورة كان الغناء وسيلة ارتباط وود ، بل أخذ وعطاء بين المغني والخليفة ، فالرشيد هنا يفهم لغة المغني عبر نغمته ، يتعامل معه كما توحيه الصورة ، فأحيانا يصفح إذا غضب ، وأخرى يعطي عند طلب وثالثة يصل في قطع .

---

(١) السابق ٨٨/٩ .

(٢) نفسه ١٠/٥ .

(٣) نفسه ٩٥/٥ - ٩٦ .

وغالباً ما ارتبطت بعض المقطعيات الغنائية التى عزفت للرشيد بحادثة أو قصة معينة ، احتفظ المغنى بتفاصيلها ثم رواها للرشيد بعد الغناء فلم يكتف بسماعها ، بل أماط اللثام عنها ، وتجلت فيه روح الإنسان فى بعض القصص التى تطلب تدخلا مباشرا ، غناه إبراهيم بن المهدى :

كفنونى إن مت فى درع أروى　　　واستقوا لى من بئر عروة ماء

فلها مربع بجنب أحاج　　　ومصيف بالقصر قصر قباء

سخنة فى الشتاء باردة الصيـ　　　ف بدر فى الليلة الظلماء

وأخبره بأن هذه الأبيات قد حركت حرارة الحب فى قلب رجل أسود كان فى الطريق بين مكة والمدينة ، فأرسل إليه وعلم منه أنه يحب فتاة حبشية فأمر بابتياعها ، فوهبها أهلها له ، فزوجها للأسود بعد أن أعتقه " [١] .

وغناه المربذى :

يا راكب العيس التى　　　وفدت من البلد الحرام

قل للإمام ابن الإما　　　م أخى الإمام أبى الإمام

زين البرية إذ بدا　　　فيهم كمصباح الظلام

فاستخف الرشيد الطرب ، فأعلمه أن هذا الصوت كان سبباً فى عتقه ، حيث أخذه من جارية كانت تغنيه فى غير هذا الشعر ، وجاء على وزنه ورويه نظير درهمين ، ثم نسيه فأعادته عليه مرة أخرى بدرهمين آخرين وعندما سمعه مولاه أعتقه ، فأمر الرشيد بأن يصرف لمولى المربذى بدلاً من كل درهم ألف دينار ، وللمغنى القدر نفسه[٢] .

---

(١) مروج الذهب ٣٤٧/٣ .

(٢) الأغانى ١٤٥/٦ .

وخرج إبراهيم الموصلي مع الرشيد إلى الرقة ، فغاب عنه بعد أن أقام ثلاثاً في منزل خمار حسن الوجه سخي النفس ، فمدحه في شعر مغنى قائلاً :

سقياً لمنزل خمار قصفت به وسط الرصافة يوماً بعد يومين

مازلت أرهن أثوابي وأشربها صفراء قد عتقت في الدن حولين

حين إذا نفدت مني بأجمعها عاودته بالربا دناً بدنين

فقال " إزل بشين " حين ودعني وقد لعمرك زلنا عنه بالشين

وعرف الرشيد قصة الغياب عبر غناء الموصلي ، فأحضر الخمار الذي أعجب بكرمه وحسن ضيافته ووهب له عشرة آلاف درهم [(١)] .

وعبر الغناء يظهر لنا الرشيد فكهاً مرحاً ماكراً ، فكم من المواقف الهزلية خاضها مع مغنيه مزيلاً بذلك حاجز الجلال والعظمة الذي فرضه سابقوه من الخلفاء في تعاملهم مع مغنيهم وندمائهم ، وأعتقد أنه وهو على هذه الصورة لم يكن مخالفاً لطبعه بالقدر الكبير ، فقد كان يترك نفسه على سجيتها ؛ فعكست لنا هذا المرح في شخصيته ، فله نوادر متعددة تشهد بأن المرح يمثل جانباً مهماً من جوانب شخصيته ، وأنه متأصل فيه غير دخيل عليه .

عرف عن أبي صدقة المغني حب المسألة ، فكان يعبث به كثير لأجل هذا السبب ، فتحايل عليه مرة من أجل منعه عن العطاء ليتلذذ بمشاهدة أثر هذا الفعل على نفسه ، فدبر حيلة مع خادمه مسرور قائلاً له " قل لابن جامع وإبراهيم الموصلي وزبير بن دحمان وزلزل وبرصوم وابن أبي

---

(١) السابق ٥/١١ .

مريم المدينـي : إذا رأيتموني قد طابت نفسي فليسأل كل واحد منكم حاجة مقدارها مقدار صلته وذكر لكل واحد منهم مبلغ ذلك وأمرهم أن يكتموا أمرهم عن أبى صدقة " [١]. بهذه المقدمة حاك الرشيد أول خيوط موقفه الهزلى ، الذى دبر أمره بالاتفاق مع مغنييه ليبدأ هو بعد ذلك فى متابعة الحدث ليشبع نفسه التواقة إلى المرح ، فإذا به يطلب الانفراد بأبى صدقة المغنى ليقنعه بعدم طلب العطاء فى يومه هذا موضحا سبب هذا الطلب قائلاً له " يا أبا صدقة لقد أضجرتنى بكثرة مسألتك وأنا فى هذا اليوم ضجر وأحببت أن أتفرج وأفرح ، ولست آمن أن تنغص على مجلسى بمسألتك ، فإما أن تعفينى أن تسألنى اليوم حاجة وإلا فانصرف " [٢] .

ويستجيب المغنى لطلب الرشيد خشية الاتهام بالعصيان وترضية للخليفة فيقنعه الرشيد ظاهراً بأن موافقته هذه قد وجدت فى نفسه صدى ، فوهبه خمسمائة دينار نظير ألا يطلب شيئاً آخر على أن يزيده فى الضمان ، فجعل أبو صدقة أمر طلاق امرأته بيد الرشيد إن فعل ما نهى عنه [٣] ، وهكذا يصل الرشيد بالموقف إلى نهايته الهزلية المتوقعة ، فبعد أن أوقع فى نفس المغنى أنه لا عطايا اليوم بل سماع وطرب ، ووعد مغنييه أن يسأل كل واحد منهم حاجته على قدر جائزته عندما تطيب نفسه ، تاركاً أبا صدقة يشاهد عطاياهم التى تفوق أضعاف ما أخذ منه معتمدا بذلك على شرطه المتفق عليه ، فإذا بالمغنى قد وصل إلى قمة الانفعال المتوقع عند الرشيد ،

---

(١) نهاية الأرب ٤٨/٤ .

(٢) نفسه ٤٨/٤ .

(٣) الأغانى ٤٨/٤ .

فوثب قائماً رامياً بالدنانير عن كمه قائلاً للرشيد " أقلني أقال الله عثرتك فقال الرشيد : لا أفعل . فجعل يستحلفه ويضطرب ويلح والرشيد يضحك ويقول : مالى إلى ذلك سبيل الشرط أملك . فلما عيل صبره أخذ الدنانير ورمى بها بين يدى الرشيد وقال : هاكها قد رددتها عليك وزدتك أم صدقة فطلقها واحدة ، وإن شئت ألفاً وإن لم تلحقنى بجوائز القوم فألحقنى بجائزة هذا البارد عمرو الغزال - وكانت جائزته ثلاثة آلاف دينار - فضحك حتى استلقى ثم رد عليه الخمسمائة دينار وأمر له بألف أخرى معها " (١) .

وعلى غرار الصورة السابقة ، يمتنع الرشيد عن عطاء ابن جامع المغنى فى الوقت الذى أجزل فيه العطاء لسائر المغنين فى ليلته هذه ، وكأنه أراد أن يلهو به كسابقته الأولى ، فغناه ابن جامع متحسراً فى أبيات تحمل بين طياتها الحديث عن الفقر وما يحدثه لصاحبه متوجهاً بالحديث إلى الرشيد قائلاً :

تقول أقم فينا فقيرا وما الذى ... ترى فيه ليلى أن أقيم فقيرا

ذرينى أمت ليل أو أكسب الغنى ... فإنى أرى غير الغنى حقيرا

يدفع فى النادى ويرقص حوله ... وإن كان بالرأى السديد جديرا

ويغفر ما يجنى سواه وإن يطف ... بذنب يكن منه الصغير كبيرا

فيستمر الرشيد فى تجاهله ، مائلا برأسه نحوه كالمستدعى ، فيغنيه طالباً العطاء :

لئن حرمتنى كل ما كنت أرتجى ... وأخلفنى منها الذى كنت آمل

---

(١) السابق ٤/٤٩ .

فما كل ما يخشى الفتى نازلاً به ولا كل ما يرجو الفتى هو نائل
ووالله ما فرطت في وجه حيلة ولكن ما قد قدَّر الله نازل
وقد يسلم الإنسان من حيث يبقى ويؤتى الفتى من أمنه وهو غافل

عند هذا الحد يصل الرشيد إلى قمة السعادة ، بعد وصول المغنى إلى قمة الغضب ونفاذ الصبر ، الأمر الذى تحقق معه التلذذ الذى لايهدف إلى إحداث ألم ، بل تلذذ مصحوب بفرح لذا أمر له الرشيد بخلعة وسبعة آلاف دينار [١] .

ويخبره جعفر البرمكى بأنه قطع وعدا على نفسه بأن يفرش دار أبى صدقة ، والضامن على ذلك اسم الخليفة ، فيدرك بحاسته المحبة للمرح بأن جعفر البرمكى قد فتح له باب السرور والعبث بالمغنى ، فسرعان ما يصرح بذلك قائلاً لجعفر " الآن تم لنا به اللهو ، ادعه فإنة إذا رآك سوف ينتجزك الفرش لأنك حلفت له بحياتى " [٢] ويبدأ الرشيد عقب ذلك تندره بعد مساجلة هزلية بينه وبين أبى صدقة مستخدماً فيها المنطق من أجل إسقاط حق المغنى فى الفرش قاصداً بذلك السرور والتفكه قائلاً له " أخطأت يا أبا صدقة إذ لم تسم النوع ولا حددت القيمة ، فإذا فرشها لك بالبردى أو بما دون ذلك فقد بر فى يمينه ، وإنما خدعك ولم تفطن أنت ولا توثقت وضيعت حقك . فسكت ثم قال : توفر أيضاً البردى والبوارى عليه أعزه الله " [٣] هكذا وضع الرشيد المغنى فى موقف حرج ، فآثر على نفسه ألا يسكت فغنى للرشيد غناء الملاحين والبنائين والسقائين ، فإذا بالرشيد يسأله

---

(١) السابق ١٠٨/١٣ .
(٢) نهاية الأرب ٥١/٤ .
(٣) نفسه ٥١/٤ .

مستفسراً عن سر هذا الغناء الذى لا يتناسب ومقام الخليفة فقال له أبو صدقة " من فرش داره بالبوارى والبردى فهذا الغناء كثير منه وكثير أيضاً لمن هذه صلته . فضحك الرشيد وطرب وصفق له وأمر له بألف دينار من ماله . وقال له : افرش دارك بهذه " (١) .

وغالباً ما حاك المغنون لأحدهم مكيدة وأعلموها للرشيد فاستمر معهم فى عبثهم حتى النهاية ، غناه ابن جامع :

أرسلت تقرئ السلام الرباب ... فى كتاب وقد أتانا الكتاب

فيه : لو زرتنا لزرناك ليلاً ... بمنى حتى تستقل الركاب

فأجبت الرباب : قد زرت لكن ... لى منكم دون الحجاب حجاب

إنما دهرك العتاب وذمى ... ليس يبقى على الحب عتاب

فى هذا الوقت اتفق عقيد ومخارق أن يأخذا هذا الصوت عن طريق محمد الرف المشهور بسرعة الأخذ لما سمع فغناه للرشيد وأكد له بأنه صاحب هذا الصوت منذ فترة طويلة وقد حفظه عقيد ومخارق ، فتجاهل الرشيد ابن جامع صاحب الصوت الحقيقى ، وجد بالعبث بقية يومه ، حتى وصل الأمر بابن جامع أن حلف أيماناً بأنه صاحب الصوت فضحك الرشيد معلناً بأن لكل شئ آفة وآفة ابن جامع الرف(٢).

ويلحظ فى عين إبراهيم الموصلى بوادر إعجاب بجارية كانت تغنى بحضرته فيدس له رقعة كتب فيها على لسانها :

قد تخوفت أن أموت من الوجـ ... ـد و لم يدر من هويت بما بى

---

(١) السابق ٤/٥١ .

(٢) الأغانى ١٣/١٩ - ٢٠ .

يا كتابى فاقر السلام على من لا أسمى وقل له يا كتابى
إنَّ كفّاً إليك قد بعثتنى فى شقاء مواصل وعذاب

ويكتشف الموصلى أمر الشرك الذى نصبه له الرشيد فينهال على الخادم شتماً وضرباً ويركب من فوره إلى الرشيد ليخبره بالقصة ، فيضحك عند سماعه حتى يستلقى على الأرض ، فعلى عمد فعل ذلك ليمتحن مذهب وطريقة مغنيه [١] .

هكذا حول الرشيد مجلس الغناء بالإضافة إلى ما فيه من طرب إلى مجلس لهو وسرور ومرح ، شجعه على ذلك نفسه التواقة إلى هذا اللون من التعامل ، ومجموعة متندرة من مغنييه جمعهم فنهم بخليفة محب للغناء وللمغنين ، على أن هذا الجانب المرح لم يرتبط بمجالس الغناء والمغنين فقط ، بل انسحب ليظهر فى الحياة العامة ، فقد دخل عليه شيخ أحمق مع ابنين له لعرض مظلمة ، فعلم بداهة أنه أحمق ، إلا أنه أصر على التباسط معه فى الحديث طلباً للضحك فقال له " يا شيخ أحسبك قد طلبت العلم وجالست العلماء ، قال نعم يا أبا موسى ، قال : من جالست من العلماء ؟ قال أبى قال : وما كان يقول فى عذاب القبر قال كان يكرهه فضحك الرشيد ومن حضر ، ثم قال يا شيخ من حفر البحار فيما سمعت ؟ فسكت الشيخ فقال أحد ولديه : قد حفرها موسى حين طرق له ، قال فأين طينها ؟ فقال الولد الثانى : الجبال ، ففرح الشيخ بحسن جواب ولديه ، وقال وا الله ما علمتهما ما هو إلا الإلهام من الله تعالى وله الحمد " [٢] وإذا لم يصل الرشيد إلى

---

(١) السابق ٥/٣٣ - ٣٤ .

(٢) أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزى ص ١٤٥ .

الضحك بنفسه ، كان يرسل من يضحكه كاستقدامه ابن المغازلى المضحك ، حتى يسرى عنه [١] وكذلك ابن أبى مريم مضحكه المعروف .

وإذا كان الرشيد قد مازح مغنيه وتباسط معهم ، فقد وقف فيهم موقف الحكم ، يفصل فى منازعاتهم ويحتكمون إليه وقت الخصام ليتحول الرشيد عندهم إلى قاض حلف يوماً على إبراهيم بن أبى سلمة أن لا يدخل عليه لأنه أغضب إسحق الموصلى ، فدس إليه من غناه :

من لعبد أذله مولاه ... ماله شافع إليه سواه
يشتكى ما به إليه ويخشا ... ه ويرجوه مثل ما يخشاه

فاستمر على غضبه ، حتى رضى عنه إسحق فصفح عنه [٢] .

ويغضب إبراهيم الموصلى من إبراهيم بن المهدى ، فيتوسط الثانى إلى الرشيد طالباً صفح الموصلى ، فيأمره بأن يقبل رأسه ليتم الصلح بينهما[٣] . هكذا لم يتورع الرشيد فى أن يجعل إبراهيم بن المهدى وهو من بيت الخلافة يقبل رأس الموصلى طالما كان على غير الصواب ، وهذه هى طريقته دائماً فى الحفاظ على حق وشعور ندمائه ، حتى إنه وقع عقابا شديداً على ابنه المأمون الذى ارتسمت على وجهه ملامح الضيق عند سماعه خطأ جارية عند الغناء ، دون أن يظهر لها بواطن الصواب فيه ، فأرسل إليه الرشيد أبياتا معنفا ومظهراً قبح هذا الفعل قائلاً :

يا آخذ اللحن على الـ ... ـقينة عند الطربْ
تريد أن تفهمها ... حد لغات العربْ

---

(١) المستطرف فى كل فن مستظرف ٢٤٧/٢ .

(٢) الأغانى ٩٩/٥ .

(٣) نفسه ٦٩/٦ .

أقسم بالله وما سطر أهل الكتبْ
للكلب خير أدباً من بعض أهل الأدبْ

ثم أمره أن يضرب نفسه عشرين مقرعة جياداً (١) .

وإذا كان الرشيد قد وقف من ابنه هذا الموقف عندما أخطأ في حق جارية ، فمن الطبعى أن نقبل وقوفه فى وجه أخيه إبراهيم بن المهدى عندما خطأ إسحق الموصلى فى صوت غناه ، على أن الرشيد استخدم الحذر المشوب الذكاء فى معالجة الموضوع ، أخاه يشاركه دمه ، والثانى من خواصه ، لذا استدعى الأول معنفا له قائلاً : "أتستخف بخادمى وصنيعتى ونديمى وابن نديمى وابن خادمى وصنيعتى وصنيعة أبى فى مجلسى وتقدم على وتستخف بمجلسى وحضرتى ؟ تقدم على هذا وأمثاله وأنت مالك والغناء ! وما يدريك ما هو ومن أخذك به وطارحك إياه حتى تتوهم أنك تبلغ منه مبلغ إسحاق الذى غذى به وعلمه وهو من صناعته !

ثم تظن أنك تخطئه فيما لا تدريه ، ويدعوك إلى إقامة الحجة عليه ، فلا تثبت لذلك وتعتصم بشتمه ! أليس هذا مما يدل على السقوط وضعف العقل وسوء الأدب من دخولك فيما لا يشبهك ، وغلبة لذتك على مروءتك وشرفك ثم إظهارك إياه و لم تحكمه ، وادّعائك مالا تعلمه حتى ينسبك الناس إلى إفراط الجهل ، ألا تعلم ، ويحك ، أن هذا سوء أدب وقلة معرفة وقلة مبالاة بالخطأ والتكذيب والرد القبيح (٢) . هكذا أوضح الرشيد لأخيه فداحة الأمر الذى أقدم عليه بتخطئته إسحق الموصلى ، واعتبر أن إقدامه على مثل هذا الصنيع نوع من الجهل وسوء أدب ، على أنه بعد

---

(١) العقد الفريد ٣٤٢/٥ .

(٢) الأغانى ٦٢/٥ وكذلك نهاية الأرب ٥/٥ - ٦ .

تعنيفه لأخيه لم ينس نديمه إسحق ونصيبه من التعنيف حتى لا يعود مرة أخرى فى الوقوف أمام أخيه موضحاً له هذه الصورة حيث قال " يا إسحاق أترانى لم أفهم قولك ومرادك ! قد والله زنيته ثلاث مرات ! أترانى لا أعرف وقائعك وأقدامك وأين ذهبت ! ويلك لا تعذ ؛ حدثنى عنك لو ضربك إبراهيم ، أكنت أقتص لك منه فأضربه وهو أخى يا جاهل ؟! أتراه لو أمر غلمانه فقتلوك أكنت أقتله بك ؟! "[1] على هذا المنوال وبمرونة فى التعامل استطاع الرشيد أن يخطئ الطرفين كلا فى غياب الآخر ، على أنه لم يرتض أمر الخصام كحل ، بل جمعهما فى مجلسه بعد أن اصلح بينهما.

ويغنيه إبراهيم بن المهدى هذا الصوت ويدعيه لنفسه :

إذا سكبت فى الكأس قبل مزاجها	ترى لونها فى جلدة الكأس مذهبا
وإن مزجت راعت بلون تخاله	إذا ضمنته الكأس فى الكأس كوكباً
أبوها نجاء المزن والكرم أمها	فلم أر زوجاً منه أشهى وأطيبا[2]
مخائل صفرا أشبهت غير جنسها	وما أشبهت فى اللون أما ولا أبا

فيستجير إبراهيم الموصلى بالرشيد ، ويحلف بحياته أن الصوت له ، ويعترف إبراهيم بن المهدى بصدق كلام الموصلى فيتخلص الرشيد من الموقف قائلاً " أما أخى فقد أخذ المال ولا سبيل إلى رده ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم عوضاً فما جرى عليه ، فلو بدأت أنت بالصوت لكان هذا حظك "[3] .

---

(١) السابق ٦١/٥ ونهاية الأرب ٥/٥ .

(٢) النجاء : هو السحاب الذى قد هراق ماءه ثم مضى ، وقيل : هو السحاب أول ما ينشأ .

(٣) الأغانى ٢٧/٥ - ٢٨ .

هكذا أظهرت لنا الصور السابقة علاقة القرب والحب التى كانت تربط بين الرشيد ومغنيه ، حتى إنهم حكموه فيما حدث بينهم، وكأنه أب لهذه المجموعة الكبيرة ، لذا كانت عطاياه لهم بدون حساب ، وقد يصاب الإنسان بالدهشة من جراء الهبات الكبيرة التى كان يغدقها على مغنييه والتى تعبر عن تبذير واضح ، فعندما يطرب الرشيدكان يعطى بلا روية ، غناه إبراهيم الموصلى صوتاً فكاد يطير طربا ، واستعاده عامة ليله فقال له الموصلى " يا أمير المؤمنين " لو وهب لك إنسان مائة ألف درهم ، أو لو وجدت مائة ألف درهم مطروحة ، كنت أسر بها أو بهذا الصوت ؟ "

قال : " والله لا أنا أسر بهذا الصوت منى بألف ألف ، وألف ألف ! " قال فلو فقدت من بيت مالك مائة ألف كان أشد عليك ، أو لو فقدت هذا الصوت وفاتك هذا السرور ؟ قال : بل ألف ألف ، وألف ألف أهون على . قال : فلم لا تهب مائة ألف أو مائتى الف طن لمن أتاك بشئ فقد ألفى ألف أهون عليك منه ؟ " فأمر له بمائتى ألف درهم" (١) .

وعند موت سلم الخاسر ، غنى الموصلى أمام الرشيد فأطربه ، فأمره أن يعرض عليه ما يريد ، فطلب ميراث سلم ومقداره ستة وثلاثين ألف دينار أودعها عند أبى السمراء الغسانى ، فأمر أن تدفع له ، وتسلمها(٢).

وغناه دحمان الأشقر يوماً :

إذا نحن أدلجنا وأنت إمامنا	كفى لمطايانا برؤياك هاديا
ذكرتك بالديرين يوماً فأشرقت	بنات الهوى حتى بلغن التارقيا
إذا ما طواك الدهر يا أم مالك	فشأن المنايا القاضيات وشأنيا

---

(١) التاج فى أخلاق الملوك ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) وفيات الأعيان ٢/٣٥١ .

فطرب الرشيد ، ووهبه ضيعتين يقدر ثمنهما بأربعة آلاف دينار فى كل سنة فهال هذا الصنيع سماره ، فطلبوا منه استرداد ما وهب لضخامته ، فأبى وأمرهم أن يحتالوا فى شرائهما فساوموا دحمانا حتى دفعوا له مائة ألف دينار فرضى [١] .

وذكر حماد أن والده غنى الرشيد مائة صوت وزيادة فى شعر ذى الرمة ، وكان عند سماع كل صوت منها يعطيه مقداراً من المال ، فبلغ مجموع عطاياه عن المائة صوت ألف ألف درهم وألف ألف درهم [٢] .

وغناه يحيى :

كم ليلة ظلماء فيك سريتها أتعبت فيها صحبتى وركابى

لا يبصر الكلب السروق خباءها ومواضع الأوتاد والأطناب [٣]

فأطربه الصوت ، فأمره أن يأخذ ما فى البيت ، فظنه فرشاً أو ثياباً ، فإذا هى خمسين ألف درهم " [٤] .

وغناه مخارق :

يا ربع سلمى لقد هيجت لى طرباً زدت الفؤاد على علاته وصبا

فأعتقه من الرق ، ووهب له ضيعة [٥] .

والرشيد فى مجلسه الغنائى ، كان يطرب عند سماع أصوات بعينها ربما طلبها بنفسه ، أو عرفها مغنوه عنه فأسمعوها له ، والمقطعات الغنائية

---

(١) المستطرف فى كل فن مستظرف ١٥٣/٢ .

(٢) الأغانى ٣٧/٥ .

(٣) الأطناب : حبال طوال يشد بها سرادق البيت ، واحدها طنب .

(٤) الأغانى ٢١/٦ - ٢٢ .

(٥) نفسه ١٨٢/٢ - ١٨٣ .

التى كان يهواها تدور حول مقطعات متعددة من الشعر ، فلا تقتصر على لون معين ، فقد خرج إلى المغنيين ذات ليلة ، طالباً منهم الغناء فى صوت من شعر الغزل وهو :

يا خليلى قد مللت ثوائى ... بالمصلى وقد سئمت البقيعا
بلغانى ديار هند وسعدى ... وارجعانى فقد هويت الرجوعا[1]

وطلب من أخته علية أن تغنيه فى الشعر نفسه :

طال تكذيبى وتصديقى ... لم أجد عهداً لمخلوق
إن ناساً فى الهوى غدروا ... حسنوا نقض المواثيق
لا ترانى بعدهم أبداً ... أشتكى عشقاً لمعشوق[2]

وأظن أن اختيار الرشيد لهذا اللون من الشعر راجع إلى نفسه الشابة العاشقة التى تحدثنا عنها فى الجزء الأول من هذا الفصل ، والتى كان يستهويها العشق وضروبه ، فجاء الغناء مكملاً عنده للتجربة ككل ، وربما يأمر الرشيد بغناء شعر أعجبه ولو كان ذا نزعة دينية ، كأمره إبراهيم الموصلى أن يصنع لحناً فى أبيات قالها أبو العتاهية وهى :

ليس للإنسان إلا ما رزق ... أستعين الله بالله أثق
علق الهم بقلبى كله ... وإذا ما علق الهم علق[3]

ورب شعر قيل فيه فطلب أن يعمل فيه لحن ، وكأنه يحاول أن يخلد نفسه شعراً وفناً ، حتى يصبح دائماً على ألسنة العامة والخاصة ، فيلحن له إبراهيم الموصلى هذه الأبيات التى قالها فيه أبو العتاهية مادحاً وغناها ،

---

(١) السابق ٥/٣٢ .

(٢) نفسه ٩/٨٧ .

(٣) الأنوار الزاهية فى ديوان أبى العتاهية ٣١٤ .

وكأن الرشيد أراد من ذلك أيضاً توطيد الإحساس بالمعنى الشعرى عنده عن طريق الغناء :

يا بنى العباس فيكم ملك ... شعب الإحسان عنه تفترق
لندى هارون فيكم وله ... فيكم صوب هطول وورقْ
إنما هارون خير كله ... قتل الشرّ به يوم خلقْ [١]

ودخل عليه أشجع السلمى مادحاً ، فى ثانى يوم فطر قائلاً :

استقبل العيد بعمر جديد ... مدت لك الأيام حبل الخلود
مصعداً فى درجات العلا ... نجمك مقرون بسعد السعود
تمضى لك الأيام ذا غبطة ... إذا أتى عيد طوى عمر عيد

فوصله ، وأمر أن يغنى فى هذه الأبيات [٢] .

وربما نظم الرشيد شعراً ، ثم جمع المغنين ليعمل كل واحد منهم فيه لحنا ، وكأنها مسابقة غنائية ، كقوله فى جارية خلفها بالرقة لمغاضبة كانت بينه وبينها ، فإذا به يتشوقها فيقول :

سلام على النازح المغترب ... تحية صب به مكتئب
غزال مراتعه بالبليخ ... إلى دير زكى بقصر الخشبْ [٣]
أيا من أعان على نفسه ... بتخليفه طائعاً من أحبْ
سأستر والستر من شيمتى ... هوى من أحب بمن لا أحب

فعملوا فيه عشرين لحناً ، وأعجب الرشيد بلحن الزبير فأجازه عليه إجازة خاصة [٤] .

---

(١) السابق ٣١٤ .
(٢) الأغانى ٨٩/١٧ - ٤٩ .
(٣) البليخ : نهر بالرقة .
(٤) الأغانى ٧٧/١٧ - ٧٨ .

بهذه الطريقة خلد الرشيد نفسه عبر شعره ولحن الآخرين ، فأشبع بذلك هوايته ، وحبه للغناء لم يأت من فراغ ، فهو من عائلة عاشقة ذواقة للطرب ، فأخته علية بنت المهدى ، التى شهد لها بأنها "من أجمل الناس وأظرفهم ، تقول الشعر الجيد وتصوغ الألحان الحسنة"[(١)] . وأخوه إبراهيم بن المهدى عاشق للغناء مجيد له ، لذا قيل عنهما " ما اجتمع فى جاهلية ولا إسلام أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدى وأخته علية " [(٢)] . ولم يقف الرشيد حائلاً بين أخته والغناء ، بل كان متعاطفاً معها ، وكان أول عهده بصياغتها للألحان عندما كان فى منزل إبراهيم الموصلى ، وعنده جاريتان لعلية غنته الأولى :

بنى الحب على الجور فلو ... أنصف المعشوق فيه لسمجْ
ليس يستحسن فى حكم الهوى ... عاشق يحسن تأليف الحُجَجْ
وقليل الحب صرفا خالصا ... لك خير من كثير قد مزجْ

بينما غنته الثانية :

تحبب فإن الحب داعية الحب ... وكم من بعيد الدار مستوجب القرب
تبصر فإن حدثت أن أخا هوى ... نجا سالماً فارج النجاة من الحب
إذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضا ... فأين حلاوات الرسائل والكتب

فسأل الموصلى عن صاحب اللحنين ، فأخبره بأنهما لعلية ، فذهب إليها وقبل راسها وأشاد بلحنها متعجبا من إخفائها لهذه الطاقة الفنية الكبيرة [(٣)] . وبعد علم الرشيد بما لأخته من قدرة فائقة على صناعة الألحان

---

(١) نهاية الأرب ٤/٢١٣ .

(٢) نفسه ٤/٢١٢ .

(٣) الأغانى ٩/٨٥ - ٨٦ .

أضحت رسائلها كلها إليه مشفوعة بالغناء من أجل طربه ، ومن ذلك أنه اشتاقها يوماً وهي بالرقة فأرسل في طلبها فأنشدته ملحنة ومعبرة عن امتنانها وفرحتها برؤيته :

لــــولا الرجاء لمن أملت رؤيته ... ما جزن بغداد في خوف وتعزير[١]

وغنته في يوم فطر مشتاقة إلى مجلسه :

طالت على ليالي الصوم واتصلت ... حتى لقد خلتها زادت على الأبد

شوقا إلى مجلس يزهى بصاحـــبه ... أعيذه بجلال الواحد الصمـــــــد[٢]

وعندما طلبها للغناء ، نظمت شعراً ، ثم صاغته لحناً ، وقالت له من وقتها متحدثة بموقعه من قلبها :

تفديك أختك قد حبوت بنعمة ... لسنا نعد لها الزمــــان عديــــلا

إلا الخلود ، وذاك قربك سيدى ... لازال قربك والبقـــــاء طويـــلا

وحمدت ربى فى إجابة دعوتـــى ... فرأيـــت حمـــدى عند ذاك قليـــلا

فطرب الرشيد[٣] .

والغناء عند الرشيد دائماً يقترن بالخمر ، وهذا ملمح واضح يظهر جليا عند قراءة أخباره في كتاب الأغاني ، فكثيراً ما أورد الأصفهاني عند سماع الرشيد لأحد الألحان أو كلها على الأغلب الأعم هذه العبارة " طرب ثم شرب عليه أرطالاً " ، على أنه لم يكن هو الأول في إسناد ذكر شرب الخمر للرشيد ، فقد سبقه الجاحظ عندما قال " وكان الرشيد يشرب في

---

(١) السابق ٨٩/٩ .

(٢) نفسه ٨٩/٩ .

(٣) الأغاني ٨٩/٩ .

كل جمعة مرتين وربما قدم أيامه وأخرها على أنه لم يره أحد قط يشرب ظاهراً " "[١] .

وبرغم هذا الإجماع على شرب الرشيد للخمر ، إلا أن ابن خلدون قد نصب نفسه مدافعا عن إسناد معاقرة الرشيد للخمر ضمن معالجته لموضوع "ما يتناقله المؤرخون من أغلاط"، فجاء هذا الموضوع شاهدا على دراسته ولقد أقام دفاعه على دعامتين :

(أ) إحدهما تتعلق بأثر الجانب الديني في حياته .

(ب) والثانية تتعلق بصحته .

وهو في جانبه الأول استعرض مواقف الرشيد الدينية والمتأصلة فيه ، والتي استمدها من تسلسله العرقي والنسبي الذي ينتمي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام مباشرة ، والذي كان كفيلاً بمنعه عن معاقرته للخمر وهو يجالس الزهاد ويطلب العلم من أهله .

وفي الجانب الثاني أثبت أن الرشيد كان رجلا ممعودا ، وأن الخمر ضار عليه بصورة محسة يعرفها خاصته وطبيبه [٢] .

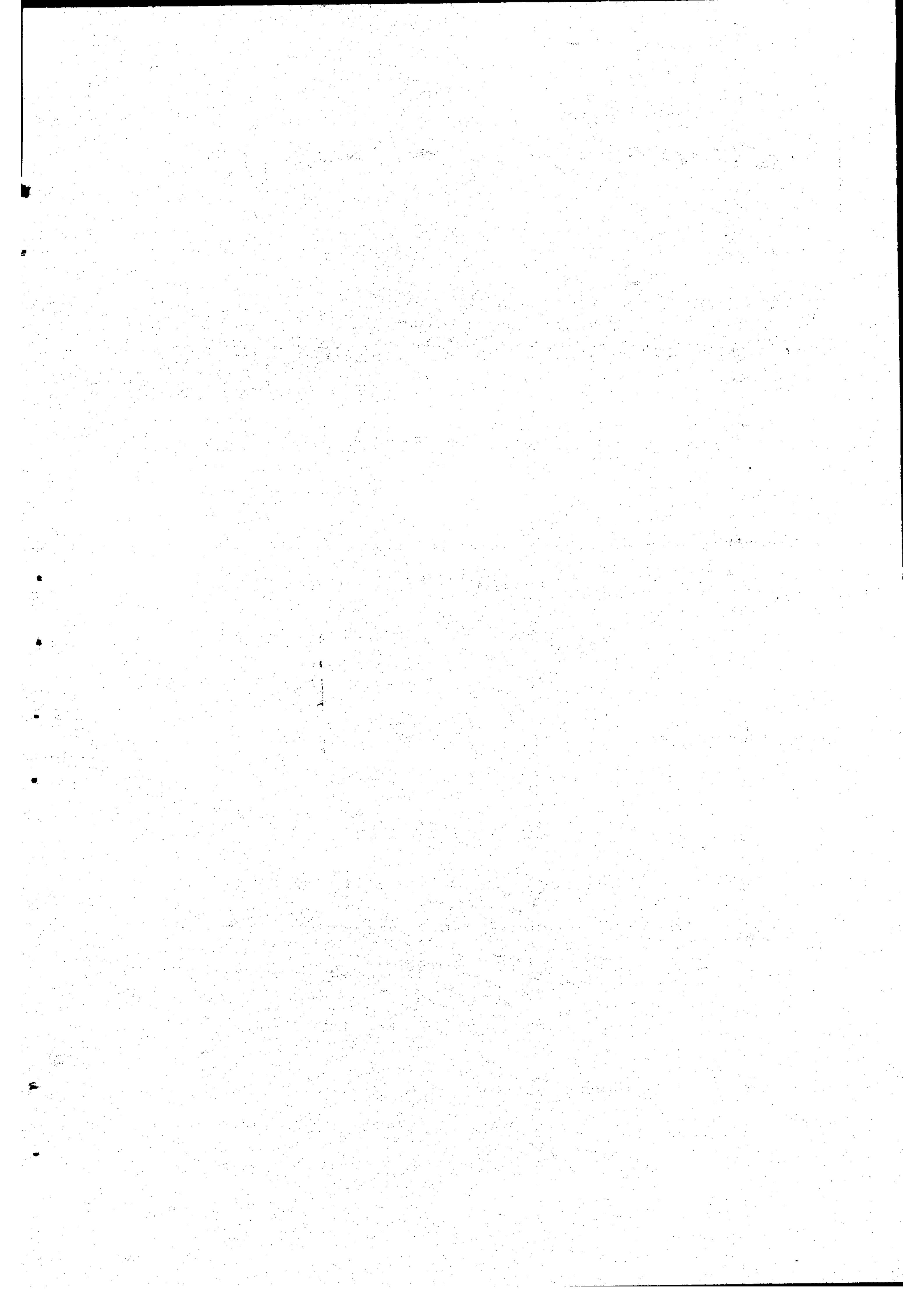
وفي الحقيقة كان الرشيد يمتع نفسه ، ولكنه كان يأخذ نصيبه من الدنيا ، كإنسان يتفاعل مع الحياة ، وتحت يديه سبل الرفاهية المتعددة ولقد وضعه الدكتور طه حسين في أفعاله واستمتاعه بالحياة كموقف الكهنة في روما يؤدون للدين حقه ويؤدون للدنيا حقها [٣] .

---

(١) التاج في أخلاق الملوك ١٥٣ .

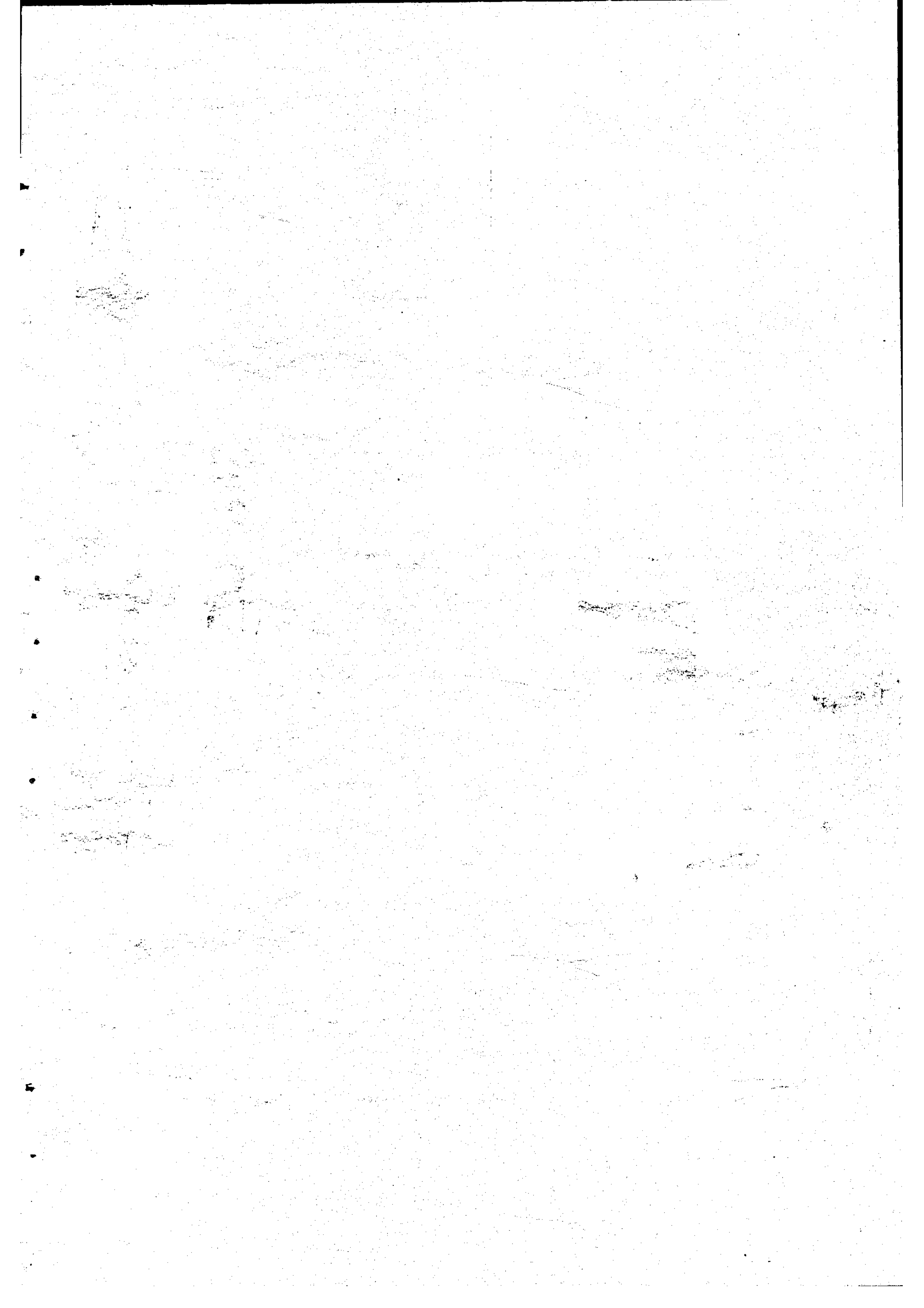
(٢) انظر في ذلك مقدمة ابن خلدون ١/١٧ - ١٩ .

(٣) حديث الأربعاء ٦٧/٢ .



الفصل الثالث

الجانب الثقافي لصورة الرشيد



أولاً : الرشيد والشعر :

من النادر أن نجد حاكم أمة يحب الشعر ويتذوقه ، فللشعر ملكة خاصة تحتاج إلى نفس محسة مرهفة ، وأذن سريعة التذوق ، واستعداد فطرى لنظم الشعر وتقبله .

وإذا كان على رأس كل حقبة زمنية يخرج خليفة يتذوق الشعر ويحب الشعراء ، كان الرشيد واحداً من هؤلاء عند بنى العباس ، يقول عنه الجاحظ " ولم يكن أحد من أصحابنا وخلفائنا وأئمتنا أحظى فى الشعر من الرشيد " (١) .

وهذه حقيقة تؤكدها المصادر التاريخية والنصوص الأدبية ، فالرشيد أحاط نفسه بالشعر والشعراء من كل جانب ، وبلاطه جمع أكبر عدد منهم ، على أن المسألة ليست إحصاء عددياً ، ولكن هؤلاء الشعراء أنفسهم شهد لهم بالبراعة الشعرية والجودة ، فقد مدحه وأطنب فى مدحه : أبو العتاهية الشاعر المعروف بزهدياته ، وأبو نواس المعروف بخمرياته وغزله ومجونه ، ومروان بن أبى حفصة شاعره المفضل ، المدافع عن حقه وأهله فى الخلافة أمام أبناء على ، والعتابى ، ومنصور النمرى ، وأشجع السلمى ، والعباس بن الأحنف ، ومسلم ابن الوليد ، ونصيب الأصغر ، وغيرهم كثير وغنى عن التعريف .

والرشيد أحب الشعر ، لأنه كانت بداخله بذور شاعر جيد ، وإن لم يصل إلى درجة الإجادة الكاملة ، فالمعروف أن الخلافة بثقلها وتبعتها وقفت عائقا دون تفرغه لهذه الهواية ، على عكس شاعر آخر ، كان الشعر

---

(١) الحيوان ٣٨٢/٤ .

حرفته ومصدر كسبه . من هنا نجد له المقطعات الشعرية الصغيرة ، ما بين البيت والبيتين والتى لا تتعدى الثلاثة فى أغلب الأحايين ، ولقد تعدى نتاجه الشعرى الموضوع الواحد ، وإن كان الغالب عليه الحديث عن الغزل [١] ، وليس هذا بالأمر الغريب فما قلناه عن نفس الرشيد الشابة ، وبحثه عن المرأة المثال من العوامل الدافعة لقوله الغزل فى نساء جمعته بهن علائق حب وإعجاب بشاعريتهن وبلاغتهن.

على أن البداية الأولى لنظمه الشعر ، يرويها لنا معاوية بن صالح عن أبيه عندما قال " أول شعر قاله الرشيد أنه حج سنة ولى الخلافة فدخل داراً ، فإذا فى صدر بيت منها بيت شعر قد كتب على حائط:

ألا يا أمير المؤمنين أما ترى　　　فديتك هجران الحبيب كبيرا

فدعا بدواة وكتب تحته بخطه :

بلى والهدايا المشعرات وما مشى　　　بمكة مرفوع الأظل حسيرا[٢]

وإذا حاولنا أن نستعرض نتاجه الشعرى فلتكن البداية عبر نظمه عن العشق ، فعندما وقع الرشيد فى براثن الحب ، صور لناعبر أبياته أبعاد هذه التجربة وتأثيرها عليه ، ومنها عشقه لجواريه الثلاث ، مصوراً من خلال أبياته مدى تمكنهن من نفسه قائلاً :

ملك الثلاث الآنسات عنانى　　　وحللن من قلبى بكل مكان

مالى تطاوعنى البرية كلها　　　وأطيعهن وهن فى عصيانى

ماذاك إلا سلطان الهوى　　　وبه قوين أعز من سلطانى [٣]

---

(١) انظر فى ذلك حديثنا عن علاقة الرشيد بالمرأة فى الفصل الثانى ، الجزء الأول.

(٢) تاريخ الخلفاء ٢٩٢ .

(٣) العقد الفريد ٧/٤١ - ٤٢ .

ويلفت نظر الرشيد ، حالة دلال المحبوبة ، وتقلبها عليه ، فصور ذلك شعراً ، مظهراً ما تبديه من هجر وصد ، مع التلويح بالقرب والود فيقول :

تبدى صدوداً وتخفى تحته مقة فالنفس راضية والطرف غضبان

يا من وضعت له خدى فذلله وليس فوقى سوى الرحمن سلطان (١)

ويجيد فى تجسيم مدى تمكن المحبوبة من نفسه ، على صورة جعلت العباس بن الأحنف يشهد بهذا ، فعندما طلب منه الرشيد أن ينشده أرق بيت قالته العرب فقال :" قد أكثر الناس فى بيت جميل ، حيث يقول :

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخفى على كلامها

قال له هارون : أنت والله أرق منه حيث تقول :

طاف الهوى فى عباد الله كلهم حتى إذا مر بى من بينهم وقفا

قال العباس : أنت والله يا أمير المؤمنين أرق قولاً منى ، ومنه حيث تقول :

أما يكفيك أنك تملكينى وأن الناس كلهم عبيدى

وأنك لو قطعت يدى ورجلى لقلت من الهوى أحسنت زيدى(٢)

على أننا لابد أن نأخذ مقولة العباس بشئ من الحذر ، فالخوف من الخليفة وترضيته من العوامل الباعثة على الإفراط فى المدح إلى درجة ربما تتجاوز حدود الواقع ، وبرغم أمر هذه المبالغة ، فلا يفوتنا القول بان الشعر لابأس به فليس بالهابط الغث ، ولا الجيد النادر ، وإنما وسط بين الاثنين ، فيه

---

(١) السابق ٥٨/٧ .

(٢) تاريخ بغداد ١١/١٤ - ١٢ .

إحساس بضعف المحب أمام الحبيب ، وهذا يعطى صدق الشعور ، بما يتناسب وطبيعة قائله .

وينتقل الرشيد إلى تصوير جانب آخر من جوانب تجربة الحب التى يخوضها ألا وهى نحول جسمه ، ليصل بذلك إلى تصوير أعلى درجة من درجات المحب حيث يقول :

صيرنى الحب إلى ما ترى   أنحل جسمى ولقلبى كوى
قد كتب الحب على جبهتى   " هذا قتيل فى سبيل الهوى " (١)

ويبدو أن خبرته بالحب والمحبين ، قد أظهرها فى هذه الأبيات ، التى توضح عمق تجربة الحب عنده ، حتى خبر بأفعال المحبين ، فقال فى كيفية معاملة الحبيب ، والإحساس به :

أهدى الحبيب مع الجنوب سلامة   فاردد عليه من الشمال سلاما
واعرف بقلبك ما تضمن قلبه   وتداولا بهواكما الأياما
فإذا بكيت له فأيقن أنه   سيفيض منه للدموع سجاما ؟
فاحبس دموعك رحمة لدموعه   إن كنت تحفظ أو تحوط ذماما (٢)

وإذا كان الرشيد قد عبر عن عاطفة الحب من خلال أشعاره ، فلم يعدم النظم فى موضوعات أخرى متعددة ، واكبت حياته ، معبرة فى كل واحد منها عن وقت بعينه وحادثة تفاعل معها ، فأخرجها نظما ، من خلال حسه الشعرى فعندما أوقع بالبرامكة ، قال فى موت جعفر البرمكى أمام

---

(١) الديارات ١٤٦ .

(٢) الورقة ١٩ ، الأغانى ١١/٥ .

الأصمعى ، معبرا بأن أمر قتله كان لابد منه ، حيث وقع المحظور ، وقضى الأمر :

لو أن جعفر هاب أسباب الردى　　لنجا بمهجته طمر ملجم

ولكان من حذر المنون بحيث لا　　يسمو إليه به العقاب القشعم

لكنه لما تقارب وقته　　لم يدفع الحدثان عنه منجم[١]

ويستعيد مع نفسه ذكريات البرامكة ، وكيف كانت نعمه عليهم كبيرة ، وتفوق الحد ، حتى خانوا الأمانة ، واستأثروا بالأمر ، وبخاصة جعفر البرمكى ، الذى كان مقرباً إليه إلى حد كبير ، فقال فى موته مرة أخرى :

من لم يسود به الجميـ　　ـل ففى عقوبته صلاحه[٢]

وله مع ابنيه بعض الوقفات الشعرية التى تتجلى فيها عاطفة الأبوة بين الإيجاب والحث على التقويم عند الخطأ ، فعندما دخل عليه الأمين ، وأعجب بوصيفة كانت تخدمه ، وهبها له قائلاً وواصفاً مدى حبه له ، وإعداده لمنصب الخلافة :

ولى ولد لم أعصه منذ ولدته　　ولاشك فى برى به مذ ترعرعا

تخيرته للملك قبل فطامه　　وأقطعته الدنيا فطيماً ومرضعا

فلا الملك يخلو باعه من محمد　　ولا هو منه ، بل هما هكذا معا[٣]

ويغضب على المامون ، لأنه أعرض بوجهه عن جارية لحنت فى الغناء ، فعنفه على سوء تصرفه ، شارحا له ذلك عبر أبياته التى أرسلها إليه قائلاً :

---

(١) مروج الذهب ٣/٣٨٠ ، معجم الشعراء ٤٦٢ .

(٢) العقد الفريد ٥/٢٩١ .

(٣) المحاسن والمساوئ ٢/٣٥٥ .

يا آخـــذ اللحـن علـى الــــ ـــقينة عند الطـــــربْ

تريــــــد أن تفهمـــــــها حـد لغـات العـــــربْ

أقســـــم بـــا لله ومـــا سـطر أهـل الكتـــــبْ

للكلـــــبُ خـــير أدبـــاً مـــن بعـــض أهـل الأدبْ (١)

ويغضـب عليـه مـرة أخـرى ، لسـبب لا تذكـره المصـادر ، فيعتـذر لـه المـأمون فتتحـرك عنـده عاطفـة الأبـوة ، فيرسـل إليـه رقعـة كتـب فيهـا طالبـاً نسـيان مـا حـدث :

ليت شعرى وقد تمادى بك الهجـ ـر أمنك التقريظ أم كان منـــى

إن تكن خنتنا فعنك عـــفا اللـ ـه وإن كنت خنتكم فاعف عنـى

ويعهـد الرشـيد بتوليـة العهـد مـن بعـده إلى ابنـه الأمـين ، ثـم يحـس بالخطـأ بعـد ذلـك . حيـث تبـين لـه صلاحيـة المـأمون للحكـم عـن الأمـين فعـبر عـن حيرتـه بهـذه الأبيـات ، التـى نلحـظ فيهـا محاولتـه إعـادة الأمـور إلى نصابهـا مـع خشـية إحداث تأثير عكسـى بعـد ذلـك قـائلاً :

لقد بان وجه الرأى لى غير أننـــى عدلت عن الأمر الذى كان أحزما

فكيف يرد الدر فى الضرع بعدما توزع حتى صار نهباً مقســـــما

أخاف التواء الأمر بعد استـــوائه وأن ينقض الحبل الذى كان أبرما (٢)

ويخرج عليه رافـع بـن الليـث ، فـى محاولـة للعصيـان ، وقلـب سياسـة الدولـة فـيرد عليه ببيت مـن الشـعر ، يظهـر لـه فيـه خطـورة إقدامـه علـى هـذا الأمـر الـذى لـن يجنى مـن ورائـه إلا الحتـف لا محـال ، قـائلاً :

---

(١) العقد الفريد ٥/٣٤٢ .

(٢) المستطرف ١/٧٣ .

ورفعك نفسا طالبا فوق قدرهـــا ⠀⠀⠀ يسوق لك الحتف المعجل والذلا[١]

وله أبيات تحمـل معنـى الحكمـة ، تعبر عـن خـبرة بالحياة ، وأعتقـد أنـه استمدها من واقعه ، فالأبيـات تحمـل صراعـاً بـين الفقـر والغنـى ، فربما مـا كـان عليـه مـن نعمـة وثـروة ، لم تجلـب لـه السـعادة الكافيـة ، بـل كـانت وبـالاً عليــه ، فيقــول فـى الصـراع غـير المتكـافئ بـين الإنسـان والدنيـا ومـا تجلبـه لـه مـن هــم ، ســواء كان غنيــاً أو فقـيراً :

كن موسراً إن شئت أو معســـراً ⠀⠀⠀ لابد فى الدنيا من الهـــــم

وكلـــما زادك مــن نعمـــــة ⠀⠀⠀ زاد الذى زادك فى الغــــم[٢]

وقـال فـى طمـع النفـس وصراعهـا مـن أجـل تحقيـق مـا تمنـى ومـا تئـول إليـه فــى النهايـة :

النفس تطمع والأسباب عاجـــزة ⠀⠀⠀ والنفس تهلك بين اليأس والطمع[٣]

ويجـد بيتـين فـى خزائـن بنـى أميـة ، فيضيـف إليهمـــا ثالثـاً ، مناديــاً مــن خلالــه بالحفـاظ علـى العـرض واجتنـاب المعـاصى فيقـول :

إذا سد باب عنك من دون حاجة ⠀⠀⠀ فدعه لأخرى ينفتح لك بابهـــا

فإن قراب البطن يكفيك ملـــؤه ⠀⠀⠀ ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها

ولا تك مبذالاً لعرضك واجتنـب ⠀⠀⠀ ركوب المعاصى يجتنبك عقابـــها[٤]

---

(١) صبح الأعشى ٣١١/٦ .

(٢) المحاسن والمساوئ ١٤٥/٢ .

(٣) الورقة ٢٠ .

(٤) بهجة المجالس ٣١٠/٢ - ٣١١ .

في زيارته الأخيرة لها قبيل موته ، قائلاً :

حتى متى أنا في حل وترحال ... وطول هم بإدبار وإقبال

ونازح الدار لا ينفك مغترباً ... عن الأحبة لا يدرون ما حالي

في مشرق الأرض طوراً ثم مغربها ... لا يخطر الموت من حرصي على بال

ولو قنعت أتاني الرزق في دعة ... إن القنوع الغنى لا كثرة المال[1]

وفذلكة القول ، إن الرشيد كان يحب الشعر لشاعريته هو ، وعلى الرغم من أنه لم يخلف لنا الكثير من الأشعار التي نستطيع أن نحكم منها على شاعريته من حيث الجودة أو الضعف ، فإن هذا الكم القليل يعبر عن بدايات شعرية جيدة ، واستعداد طيب لقول الشعر .

وبتحليل شعره واستعراضه يتضح لنا أنه متأرجح بين القوة والضعف ، على أنه يؤدي في النهاية إلى القول بأنه كانت لديه إرهاصات شعرية لا تصل إلى حد النضج الكامل ، ولا الضعف المخل ، وأن شعره واكب بعضاً من حياته ، وعبر بلسانه عن بعض المواقف المتعددة التي تعرض لها ، والتي جعل من استخدامه للشعر لسان حاله ، وقد تنوع شعره بين موضوعات عدة أغلبها الغزل.

وللرشيد موروث شعرى كبير ، استخدمه كأداة من أدوات التعبير ، فكثير من المواقف عبر عنها بأبيات شعرية ليست من نظمة ، بل من نظم شعراء أخر ، فأخذ منها أبياتاً معينة متمثلاً بها ، مستفيداً من مضمونها للتدليل على بعض المواقف التي يتعرض لها ، جاعلاً منها وجهة نظره في

---

(١) المحاسن والمساوئ ٤٩٦/١ .

هذا الموضوع ، وكأنه هنا أحل الشعر محل الحديث العادى فأصبح لغته المفضلة المستعملة .

فعندما ماتت أمه ، خرج لتشييعها حافياً حتى أتى مقابر مكة فصلى عليها ، وتمثل بقول متمم بن نويرة :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة   من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأنى ومالكا   لطول اجتماع لم نبت ليلة معا[1]

ويخبره المأمون بتصرف أستاذه الحسن اللؤلؤى ، الذى يصل إلى حد السوقية حيال نومه عند سماعه درس الفقه ، فقال متمثلا :

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه   وتغرس إلا فى منابتها النخل [2]

وعندما كان يشاهد عبد الله بن معين بن زائدة ، كان يتمثل ببيت أبى العتاهية ضمن مجموعة أبياته التى تندر فيها على معن قائلاً :

أخت بنى شيبان مرت بنا   ممشوطة كوراً على بغل[3]

وعند حجه لقيه قبل دخول مكة رجلان من قريش عرضا عليه حاجتهما للمال ، فتميز الأول بحسن عرضه للموضوع وصياغته وإحكام جوانبه ، بينما لم يأت الثانى بشئ فأقبل على الفضل بن الربيع متمثلا ومفرقا بمعنى البيت بين الرجلين قائلاً :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى   يزيد سليم والأغرابن حاتم [4]

---

(١) النجوم الزاهرة ٢/٧٢ - ٧٣ .

(٢) المحاسن والمساوئ ٢/٤٠٧ .

(٣) الأغانى ٣/١٣٠ .

(٤) نفسه ١٥/٤٠ .

ويمدح ربيعة الرقى العباس بن محمد عم الرشيد ، فيجيزه على المدح بدرهمين فيهجوه ، على حين يهرع العباس إلى الرشيد طالباً أخذ الحق من الشاعر ، فيقص عليه خبر مدحه وذمه ، وأن الحق فى صف الشاعر مستندا على ذلك ومستشهدا للتدليل على الموقف بقول ابن قنبر حيث قال :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق والباطل [١]

ويدخل عليه الأصمعى ، الذى غاب عنه لعلة انتابته ، ويخبره بأنه بات بليلة النابغة ، فيدرك مراده ، وينشد له متمثلا قول النابغة فى هذا المعنى:

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم ناقع [٢]

ويستشهد بهذه الأبيات لعبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبى طالب ، فى رجل يريد اعتلاء الحكم :

يا أيها الزاجرى عن شيمتى سفهاً عمدا عصيت مقام الزاجر الناهى

أقصر فإنك من قوم أرومتهم فى اللؤم فافخر بهم ما شئت أو باهى

يزين الشعر أفواهاً إذا نطقت بالشعر يوماً وقد يزرى بأفواه

قد يرزق المرء لا من فضل حيلته ويصرف الرزق عن ذى الحيلة الداهى

لقد عجبت لقوم لا أصول لهم أثروا وليسوا وإن أثروا بأشباه

مانالنى من غنى يوماً ولا عدم إلا وقولى عليه " الحمد لله " [٣]

---

(١) السابق ١١/١٣ .

(٢) نور القبس ١٦٦ ، ثمار القلوب ٦٣٤ - ٦٣٥ .

(٣) العقد الفريد ٤٦/٢ .

ويسمع أبيات النمرى فى الشباب وضياعه ، فيبكى متمثلاً بقول الشاعر :

أتأمل رجعة الدنيا سفاهاً ... وقد صار الشباب إلى ذهاب

فليت الباكيات بكل أرض ... جمعن لنا فنحن على الشباب [١]

على أن هذا الموروث الشعرى كان فى زيادة مستمرة ، فلم يكتف الرشيد بما حفظ ، بل استمر يبحث عن المزيد فكان كثير السؤال عن الأبيات المتفردة لينمى بها هذا الموروث ، مستغلاً بذلك جود عالمين من علماء اللغة والأدب فى عصره ، هما الأصمعى والمفضل الضبى .

ولقد كانت أسئلته تدور حول أحسن ما قيل من شعر فى مختلف الأشياء ، كقوله للأصمعى أن ينشده أحسن ما قيل فى السفر ، فأنشده قول عمر بن أبى ربيعة :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت ... فيضحى وأما بالعشى فيحضر

أخا سفر جواب أرض تقاذفت ... به فلوات فهو أشعث أغبر

قليلا على ظهر المطية ظله ... سوى ما نفى عنه الرداء المحبر [٢]

ويدخل عليه مرة أخرى فيطلب منه أن ينشده فى البرد ، فأنشده لمرة بن محكان السعد [٣] ، وأنشده أحسن ما قيل فى العقاب [٤] ، وأسماء المواضع التى تحمل غرابة فى أسمائها [٥] واحسن ما عرف عن العرب من اعتذار

---

(١) زهر الآداب ٧٠٤/٣ .

(٢) نور القبس ١٣٣ .

(٣) ارجع لهذه الأبيات فى نور القبس ١٣٤ .

(٤) نفسه ١٦٦ .

(٥) نفسه ١٣٨ .

وندم [١] إلى غير ذلك من الأشعار المتفردة ، التى زادت من إعجاب الرشيد بالأصمعى . إلى جانب محاوراته مع المفضل الضبى حيث سأله عن أحسن ما قيل فى الذئب [٢] وأمدح بيت عند العرب [٣].

وهذه الرغبة فى المعرفة ، دفعته إلى الاستزادة من كل من عرف عنهم العلم ، وسعة الأفق ، فلم يكتف بالأصمعى والمفضل كمصدرين من مصادر المعرفة ، بل امتدت دائرته لتشمل غيرهم ، كإسحاق الموصلى الذى دخل عليه فطلب منه أن ينشده أحسن ما عرف فى عتاب محب وهو ظالم ، فقال له قول جميل :

رد الماء ما جاءت بصفو ذنائبه ودعه إذا خيضت بطرق مشاربهْ

أعاتب من يحلو لدى عتابه وأترك من لا أشتهى وأجانبهْ

ومن لذة الدنيا وإن كنت ظالماً عناقك مظلوما وأنت تعاتبهْ

ولإعجابه بما سمع طلب منه تكرارها ، حتى حفظها " [٤].

ويطلب من سماره يوماً أن ينشدوه شعرا فى امرأة خفرة كريمة ، فقالوا وأكثروا حتى أنشده ابن مصعب أبيات محمد بن بشير الخارجى ، التى يقول فيها واصفاً هذه المرأة :

بيضاء خالصة البياض كأنها قمر توسط جنح ليل مبرد

موسومة بالحسن ذات حواسد إن الجمال مظنة للحسد

وترى مدامعها ترقرق مقلة حوراء ترغب عن سواد الإثمد

---

(١) السابق ١٤٠ .

(٢) نفسه ٢٧٤ .

(٣) العمدة ٢/١٤١ .

(٤) الأغانى ٧/١٠٠ .

خود إذا كثر الكلام تعوذت ... بحمى الحياء وإنْ لم تكلم تقصد
لم يطرها شرف الشباب و لم تضع ... منها معاهدة النصيح المرشد
وتبرجت لك فاستبتك بواضح ... صلت وأسود في النصيف معقد
وكأن طعم سلافة مشمولة ... بالريق في إثر السواك الأغيد[1]

فطرح الرشيد وراء ظهره ما قيل من أبيات سبقت هذه المعانى طالبا من مؤدب ابنيه رواية هذه الأبيات لهما لنفاستها وتفردها من وجهة نظره .

ولقد كان لنظم الرشيد الشعر ، وسماعه إياه ، وبحثه عن تكوين موروث شعرى ، وحفظه لأحسن ما قيل من شعر من العوامل الرئيسة لتكوين ملكة النقد عنده ، فكم من الأبيات الشعرية وقف حيالها ، ناقداً لها ، بعين ثاقبة ، لرجل عرف الشعر وضروبه ، وإذا كانت شاعريته دون المستوى ، فلم يمنعه ذلك من تكوين حس نقدى شعرى من خلال أذن مرهفة ناقدة ، تسمع الشعر وتحلله ، فعندما دخل عليه إسحاق الموصلى وأنشده حاجته إلى المال قائلاً :

سوامى سوام المكثرين تجملاً ... ومالى كما قد تعلمين قليل
وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى ... فذلك شئ ما إليه سبيل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ... ورأى أمير المؤمنين جميل
أرى الناس خلان الجواد ولا أرى ... بخيلا له فى العالمين خليل

فأعجب بالشعر وصاغ إعجابه فى عبارات موجزة قوية ، توضح سر عظمة هذه الأبيات من وجهة نظره ، ناقداً الشعر بحس المستمع المتذوق قائلاً " هذا والله الشعر الذى صحت معانيه ، وقويت أركانه ومبانيه ، ولذ على

---

(١) السابق ١٤/١٤٧ - ١٤٨ .

أفواه القائلين وأسماع السامعين " [١] .

وينظم له إبراهيم الموصلي هذه الأبيات ويغنيها له قائلاً :

رأيت الدين والدنيا مقيمين بشيراز

أقاما بين حجاج وغاز أيما غاز

فلم يستحسن الشعر ، معلناً عن رأيه هذا للموصلى قائلاً " يا إبراهيم صنعتك فيه أحسن من شعرك " [٢] .

ويسمع أبيات النابغة الجعدى التى أنشدها له الأصمعى ، من قصيدة طويلة فيستوقفه هذا البيت لإحساسه بتناقض الفكرة فى داخله:

أشم طويل الساعدين شمردل إذا لم يرح للمجد أصبح غاديا

فيرد معقبا " ويله ، ولم لم يروحه فى المجد كما أغداه ؟ ألا يقال : إذا راح للمعروف أصبح غادياً " [٣] فيعترف له الأصمعى بتمكنه الشعرى ، حيث لمس فيه القدرة على حسن السماع الشعرى ، المصحوب بإعمال الفكر قائلاً : " أنت والله يا أمير المؤمنين فى هذا أعلم منه بالشعر " [٤] .

وينشده العمانى الراجز فى وصف فرس :

كأن أذنيه إذا تشوفا قادمة أو قلماً محرفاً

---

(١) المحاسن والأضداد ١/١٤ - ١٥ ، المحاسن والمساوئ ٢/١٧٧ ، العقد الفريد ١/١٧٦ ، محاضرة الأبرار ٢/١٠٢ ، نهاية الأرب ٥/٧ ، فوات الوفيات ٤/٢٢٦ ، تاريخ الخلفاء ٢٩٥ .

(٢) الأغانى ٥/٨ .

(٣) الموشح ٩٣ .

(٤) نور القبس ص ١٣٧ .

فيلحن فيصصح له البيت حتى يستوى شعرياً قائلاً له " قل تخال أذنيه إذا تشوفا"[١] بدلا من كأن .

ويدخل عليه أبو نواس ، ويخبره بما حدث له من أهل مصر ، وكيف أجمعوا على قتله عندما سمعوا منه هذا البيت :

فإن يك باقى إفك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب

فيرشده إلى الطريقة المثلى ، التى يجب أن يكون عليها بيته ، حتى يسلم شعره من التبعة قائلاً له " ألا قلت :

فإن كان باقى إفك فرعون فيكم فباقى عصا موسى بكف خصيب

فقال : والله يا أمير المؤمنين إنك لأشعر منى وإنى لم أفطن لذلك " [٢].

ويمدحه منصور النمرى قائلاً :

إذا اعتاص المديح عليك فامدح أمير المؤمنين تجد مقالا

وعذ بفنائه واجنح إليه تنل عرفا ولم تذلل سؤالا

فناء لا تزال به ركاب وضعن مدائحاً وحملن مالا

فيدرك أن الشاعر أطنب عبر أبياته ، مع أن المعنى المراد واحد ، ألا وهو طلب العطاء ، فيطلب منه تقصير القول مع الحرص على عدم إطالة المعنى[٣].

ويدخل عليه أشجع السلمى صبيحة يوم جمعة ، ومعه جماعة من الشعراء قبل حلول وقت الصلاة ، ولخشيته من وجوب الصلاة أنشده تاركاً

---

(١) الكامل فى اللغة ١٠٨/٢ ، العقد الفريد ١٨٤/٦ ، الموشح ٤٥٦ ، ديوان المعانى ٣٦/١ ، محاضرة الأدباء ٦٤٥/٤ .

(٢) ديوان المعانى ٣٧/١ ، الموشح ٤٢٦ .

(٣) الأغانى ٢٤/١٢ .

التشبيب إلى المدح قائلاً فيه :

إلى ملك يستغرق المال جوده   مكارمه نثر ومعروفه سكب

ومازال هارون الرضى بن محمد   له من مياه النصر مشربها العذب

متى تبلغ العيس المراسيل بابه   بنا فهناك الرحب والمنزل الرحب

ومابعد هارون الإمام لزائر   يرجى الغنى جدب ولا دونه خصب

فيفهم نية الشاعر فاتجه إلى الحاضرين قائلاً " خاف أن تفوته الصلاة فأسقط تشبيبه ، وابتدأ بمدحه فاختصر وأبلغ " (١) .

ويكتب إليه عبد الملك بن صالح :

أخلاى بى شجو وليس بكم شجو   وكل امرئ من شجو صاحبه خلو

من أى نواحي الأرض أبغى رضاكم   وأنتم أناس ما لمرضاتكم نحو

فلا حسن نأتى به تقبلونه   ولا إن أسأنا كان عندكم عفو

فتشده الأبيات فيقول " والله لئن أنشاها لقد أحسن ولئن رواها كان أحسن "(٢)

ويصل إلى مسامعه ما نظمه أبو نخيلة الشاعر من أبيات يمدح فيها مسلمة ويقول :

أمسلمة يا فخر كل خليفة   ويافارس الدنيا ويا جبل الأرض

شكرتك إن الشكر دين على الفتى   وما كل من أوليته نعمة يقضى

وأحييت لى ذكرى وما كان خاملاً   ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

فعلق على الشعر قائلاً " هكذا يكون شعر الأشراف ، مدح صاحبه ، ولم يضع نفسه " (٣) .

---

(١) الأوراق ٧٥ - ٧٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢/٩١ .

(٣) المستطرف ١/٢٣٧ .

إن عبد المجيد يوم تولى هد ركناً ما كان بالمهدود
ما درى نعشه ولا حاملوه ما على النعش من عفاف وجود

فقال مثنياً على شعره متوجهاً بالحديث إليه " ما كان ينبغي أن تكون هذه القصيدة إلا في خليفة أو ولى عهد ، مالها عيب إلا أنك قلتها في سوقة "[1]. ويحجب أبو العتاهية عن الوصول إليه ، فيرسل الشاعر مع مسرور الخادم ثلاث مراوح ، على كل واحدة منها بيت من الشعر يعبر عن حاله ، فإذا بالرشيد يعلق على كل بيت بعبارة لطيفة ، تظهر إعجابه به ، من مثل رده :

ولقد تنسمت الرياح لحاجتي فإذا لها من راحتيك شميم

فقال : أحسن الخبيث ، وإذا على الثانية :

أعلقت نفسي من رجائك ماله عنق يخب إليك بي ورسيم

فقال : قد أجاد . وإذا على الثالثة :

ولربما استيأست ثم أقول لا إن الذى ضمن النجاح كريم

فقال : قاتله الله ما أحسن ما قال "[2].

وعلى هذه الصورة جاء نقد الرشيد للأبيات الشعرية واعياً ، يحمل حساً وذوقاً وأذناً متذوقة للشعر محللة له .

ولقد كان لهذا الحس النقدى أثره الكبير في مدى إحساسه بالكلمة المنظومة ، فإذا كان في الصور السابقة يقف حيال الأبيات لينقدها

---

(١) الأغاني ١٧/٢٨ - ٢٩ .

(٢) الأنوار الزاهية ٣٢١ - ٣٢٢ .

، ففى أحيان أخرى كان لتدبره لمعانى الأبيات الأثر الكبير فى تغيير مجريات الأمور عنده ، فأحياناً كانت تحركه الأبيات فيتفاعل معها ، ويصدر على إثرها أحكامه المتنوعة التى تحمل بين طياتها إما إقرارا بعفو أو إدانة على خطأ ، أو إحساساً بذنب ، إلى غير ذلك وفق ما يقتضيه الموقف . أنشده الأصمعى فى إحدى الليالى :

بانت أميمة بالطلاق فنجوت من ربق الوثاق

بانت فلم يحفل بها قلبى و لم تدمع مآقى

ودواء مالا تشتهيه النفس تعجيل الفراق

فإذا به يقلب البيت الأخير على وجوهه ، متذكراً هيصم اليمانى الخارج عليه فيأمر بقتله ، قائلاً للأصمعى " هذا ما جره الشعر ،... وأنشد البيت " (١) .

ويدخل عليه جماعة من الحارثيين يسألونه أن يأمر بطلاق الهيثم ابن عدى بمن تزوجها من بنى الحارث فقال لهم " أليس هو الذى يقول فيه الشاعر :

إذا نسبت عدياً فى بنى ثعل فقدم الدال قبل العين فى النسب

قالوا : بلى يا أمير المؤمنين . قال : فهذا الشعر من قاله . قالوا : هو لرجل من أهل الكوفة من بنى شيبان يقال له ذهل بن ثعلبة ، فأمر يزيد أن يفرق بينهما"(٢) وينشده صالح بن عبد القدوس هذا البيت ضمن مجموعة أبيات ، يحاول فيها إبعاد تهمة الزندقة عنه ، حيث قال :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه

---

(١) نور القبس ١٣٢ .

(٢) معجم الأدباء ٣٠٥/١٩ - ٣٠٦ .

فيتدبر معنى البيت ، ويدرك من خلاله تعذر رجوع الشاعر عن زندقته فيأمر بقتله [١] ويدرك أيضاً بحسه الشعرى ، وتدبره لمعانى الأبيات ذلك الميل الواضح للعلويين فى شعر النمرى ، فيأمر بقتله ، عندما أنشده العتابى بعضاً من أبيات الشاعر الأول التى استنبط منها تصوره السابق[٢] .

وإذا كانت هذه الصور السابقة ، قد استوجبت عبر معانيها تعجيل العقوبة مع اختلاف أنماطها ، فلقد حملته أبيات أخرى على الصفح بعد الغضب ، كحكايته مع مالك بن طوق ، الذى أمر بقتله ، فإذا به يتوسل بالشعر لطلب الصفح مصوراً موقف أسرته من بعده قائلاً:

وما بى من خوف أموت وإننى ... لأعلم أن الموت شئ مؤقت
ولكن خوفى صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأنى أراهم حين أنعى إليهم ... وقد خمشوا تلك الوجوه وصدقوا
فكم قائل لا يبعد الله داره ... وآخر جذلان يسر ويشمت

فيرق للأبيات لما فيها من صدق ، وما توحيه من معاناة حقيقية ستتكبدها أسرة الشاعر من بعده ، فيأمر بالعفو عنه ، وإرجاعه إلى أهله وصبيته ، مع وعد بعدم العودة مرة أخرى إلى ما كان يفعله [٣] .

ويجد على العتابى ، فيدخل إليه سراً فى زمرة المتظلمين ، قائلاً له :

أخضب المقام الغمر إن كان غرنى ... سناخُلَّبٍ أو زلت القدمان
أتتركنى جدب العيش مقترا ... وكفَّاك من ماء الندى تكفان

---

(١) الأغانى ١٣/١٤ .

(٢) ارجع فى ذلك إلى الأمالى ٣/٦٣ - ٦٤ .

(٣) فوات الوفيات ٢/١٤٣ .

وتجعلني سهم المطامع بعدما ... بللت يميني بالندى ولساني

فيعجب من حسن اعتذاره الذى صوره عبر أبياته ، ويعفو عنه ويجزل له العطايا(١) . ويخافه النمرى لوشاية فيه عنده ، فيهرب إلى بلاد الروم ، ثم يرسل إليه اعتذاراً مشفوعاً بالصفح ، قائلاً وموضحاً الفرق بين حالين الدنو منه والبعد عنه :

جعلت رجاء العفو عذراً وشبته ... بهيبة إما غافر أو معاتب

وكنت إذا ما خفت حادث نبوة ... جعلتك حصناً من حذار النوائب

فأنزل بى هجرانك اليأس بعدما ... حللت بواد منك رحب المشارب

أظل ومرعاى الجديب مكانه ... وآوى إلى حافات أكدر ناصب

ولم يثن عن نفسى الردى غير أنها ... تنوء بباق من رجائك ثائب

هى النفس محبوس عليك رجاؤها ... مقيدة الآمال دون المطالب

وتحت ثياب الصبر منى ابن لوعة ... يظل ويمسى مستلين الجوانب

فتى ظفرت منه الليالى بزلة ... فأقلعن عن داميات المخالب

حنانيك إنى لم أكن بعت عزة ... بذل ، وأحرزت المنى بالمواهب

فقد سمتني الهجران حتى أذقتنى ... عقوبة زلاتى وسوء مناقب

فهل أنا مقصى فى رضاك ، وقابض ... على حد مصقول الذبابين قاضب

ومنتزع عما كرهت وجاعل ... هواك مثالاً بين عينى وحاجبى

والشاعر هنا صادق النية ، والباقى هو الصفح من الرشيد ، ولم يكن الرشيد أقل كرماً من الشاعر ، الذى اعتبر جفوة الخليفة نهاية العالم ، وعقوبته لا تقابلها عقوبة ، فصفح عنه ، ولقد جعل صاحب زهر الآداب هذه القصيدة

---

(١) الأغانى ٤/١٢ .

لجمالها ، مشبهة فى حسن الاعتذار بكلام النابغة الذبيانى [١] .

ولقد كان لوقع معانى بعض الأبيات التأثير الشديد عليه ، والذى يصل إلى حد البكاء عند بعضها ، كسماعه هذه الأبيات من مرثية معن بن زائدة ، التى يقول فيها :

فإن تجمد دموع لئيم قوم فليس لدمع ذى حسب جمود
أبعد يزيد تختزن البواكى دموعاً أو تصان لها خدود
لتبكك قبة الإسلام لما وهت أطنابها ووهى العمود

فبكى بكاء شديداً حتى قيل وهو على هذه الصورة بأنه "لو كانت بين يديه سكرجة لملأها من دموعه" [٢] .

ويهيج عليه الدم بحلوان ، وهو فى طريقه إلى طوس ، فاشار الطبيب عليه ، بتناول جمار نخل ، وكان على العقبة نخلتان ، فقطعت له إحداهما ، بينما تركت الأخرى ، فعند وصوله إليها بعد تماثله للشفاء وجد هذين البيتين على النخلة القائمة :

أسعدانى يا نخلتى حلوانْ وأبكيالى من ريب هذا الزمانْ
أسعدانى وأيقنا أن نحساً سوف يلقاكما فتفترقانْ

فاغتم جدا إلى حد تمنى معه الموت بعلته تلك ، على أن لا يكون هو سبب نحسهما كما تقول معانى الأبيات [٣] .

على أن معانى ما توحيه الأبيات فى بعض الأشعار كانت كفيلة بإحداث ثورة فى داخله ، كما حدث له مع سلم الخاسر ، الذى دخل عليه

---

(١) زهر الآداب ٣/٦٧٨ .

(٢) الأغانى ١٨/١١٦ - ١١٧ ، وفيات الأعيان ٥/٢٥٠ - ٢٥٢ .

(٣) نفسه ١٢/١٠٣ .

قائلاً ومنشداً :" حى الأحبة بالسلام ، فقال الرشيد : حياهم الله بالسلام ، فقال : أعلى وداع أم مقام ، فقال الرشيد: حياهم الله على أى ذلك كان . فأنشده :

لم يبق منك ومنهم   غير الجلود والعظامْ

فقال له الرشيد : بل منك ، وأمر بإخراجه ، وتطير منه ، ومن نظمه"[١]

ويأمر بضرب مروان بن أبى حفصة ثلاثمائة سوط لقوله :

أقمنا باليمامة إذ يئسنا   مقاماً لانريد به زيالا

وقلنا أين نذهب بعد معن   وقد ذهب النوال فما نوالا

وكان الناس كلهم لمعن   إلى أن زار حفرته عيالا

حيث احس عبر الأبيات ، بأن الشاعر جعل كل الناس عيالاً على معن وأنه لا ملاذ بعده لأحد ، لأنه لن يصل إلى درجته إنسان ، فجاء عقابه للشاعر من أجل معانيه [٢] .

من كل هذا نلحظ ، كيف كان الشعر ذا تأثير كبير على الرشيد ، وأنه لم يكن يسمع الشعر لإضاعة وقت أو تلهية ساعة ، بل كان سماعه مشوبا بالفهم القوى للمعانى المستوحاة من النص ، ويكفينا دليلا على ذلك أن الذى أشعل فتيل ثورته على البرامكة سماعه بيتين من الشعر حيث حركا ما بداخله من ضيق تجاههم [٣] .

---

(١) السابق ٨٣/٢١ .

(٢) نور القبس ١٣٨ - ١٣٩ .

(٣) البيتان هما :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد   وشفت أنفسنا مما تجدْ

واستبدت مرة واحدة   إنما العاجز من لا يستبدْ

ولأن الرشيد كان يحب الشعر ويتذوقه ويتفهم معانيه ، فقد أحس بمدى الخطورة الكامنة فى اعتزال أبى العتاهية الحياة الشعرية ، متجهاً إلى حياة الزهد والتصوف ، الأمر الذى أرقه كثيراً ، مقدراً مدى ضياع هذه الموهبة الشعرية الفذة ، فعامله بقسوة وعنف من أجل إرجاعه عن قصده .

وبداية الأمر عندما أعلن أبو العتاهية لبس الصوف والتزهد وترك حضور المنادمة والقول فى الغزل ، الأمر الذى دفع الرشيد إلى حبسه حتى يعود عما أقدم عليه ، بينما اكتفى أبو العتاهية بنظم مجموعة من الأشعار داخل سجنه تعبر عن ألمه ، طالبا صفح الخليفة وعفوه ، مبتدئاً إياها بقوله بعد مرور فترة طويلة من حبسه :

أنا اليوم لى والحمد لله أشهر — يروح على الهم منكم ويبكر
تذكر أمين الله حقى وحرمتى — وما كنت تولينى لعلك تذكر
ليالى تدنى منك بالقرب مجلسى — ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لى بالعين التى كنت مرة — إلى بها فى سالف الدهر تنظر [(١)]

فيصر الرشيد على موقفه تجاه الشاعر ، فى الوقت الذى يستمر فيه أبو العتاهية على بدايته فى طلب الصفح والرحمة ، مطلقا صيحة مدوية إلى الخليفة قائلاً :

يا رشيد الأمر أرشدنى إلى — وجه نجحى لا عدمت الرشدا
لا أراك الله سوءا أبدا — ما رأت مثلك عين أحدا

---

(١) الأنوار الزاهية ٢٣٠ - ٢٣١ ، عيون الأخبار ٨٢/١ ، طبقات الشعراء ٢٣١ ، المحاسن والمساوئ ٣٣٦/٢ ، الأغانى ١٥٢/٣ ، بهجة المجالس ١٠٨/٢ .

أعن الخائف وارحـم صوتـه ... رافعاً نحوك يدعـوك يـدا

وابـلائى من دعـاوى آمـل ... كلما قلت تدانـى بعـدا

كم أمنى بغـد بعـد غـد ... ينفد العمر و لم ألـق غـدا [(١)]

فيضيق عليه الرشيد أكثر ، حتى يقول الشعر الرقيق فى الغزل ، كما كـان من قبـل ، لـذا نقلـه مـن مكانـه ، ليضعـه فـى بيـت خمسة أشبار فـى مثلهـا فقـال على إثر ذلـك :

من لعبـد أذلـه مـولاه ... مالـه شافع إليـه سـواه

يشتـكى ما به إليه ويخشـا ... ه ويرجـوه مثـل ما يخشـاه [(٢)]

ويتـأثر أبـو العتاهيـة مـن سـجنه هـذا ، فجسـده قـد نحل ، وضعفـت قـواه ، بينمـا الرشـيد علـى مـا هـو عليـه مـن محاولـة صادقـة لإعـادة أبـى العتاهيـة إلى حظـيرة الشعر الغزلى ، فى الوقـت الـذى يستجير فيـه الشـاعر مظهـرا مـا أ لم بـه قـائلاً :

خليلى مالى لا تزال مضـرتى ... تكون على الأقدار حتما من الحتـم

صبرت ولا وا لله مالى جـلادة ... على الصبر لكن قد صبرت على رغمى

كفاك بحق ا لله ما قد ظلمـتنى ... فهـذا مقام المسـتجير من الظـلم

ألا فى سبيل ا لله جسمى وقـوتى ... ألا مسـعد حتى أنوح على جسمى [(٣)]

ويفيـض الكيـل بـه ، فالرشـيد قـد أصـم أذنيـه تاركـاً إيـاه فـى دوامتـه هـذه لإحساسـه باقـتراب النهايـة ، وأن زيـادة صـبره سـتنبئ عـن جديـد ، بينمـا يتعجل أبو العتاهيـة مخرجه ، فـإذا بـه يتجـه إلى ا لله شـاكياً إليـه قـائلاً :

---

(١) الأنوار الزاهية ٢٣٠ ، الأغانى ٣/١٥٣ .

(٢) السابق ٣٢٠ ، الأغانى ٣/١٥٣ .

(٣) الأنوار الزاهية ٣٣٣ ، زهر الآداب ٢/٣٨٣ - ٣٨٤ .

أمــا وا لله إن الظلــم لـــوم　　ولكن المسئ هو الظلـــوم
إلى ديــان يوم الديــن نمضــى　　وعند ا لله تجتمع الخصــوم
لأمــر ما تصــرفـت الليــالى　　وأمر ما توليت النجـــوم
ستعلم فى الحساب إذا التقيـــنا　　غداً عند الإله من الملـــوم[١]

ويبدو أنه أحس بأن شكايته هذه ليست فى صالحه ، فبدأ يلين فى القول بعد أن علم أن العنف ، لن يفيد مع هذا الخليفة ، الذى لن يرجع عن عزمه إلا برجوعه إلى الغزل ، فقال له بعد أن وصل إلى مسامعه بدايات عفو عنه:

إنمــا أنـــت رحمة وســـلامه　　زادك ا لله غبطة وكرامـــه
قيل لى قد رضيـــت عنى فمن لى　　أن أرى لى على رضاك علامه[٢]

ويسلم فى نهاية الأمر ، بعد نزال طويل بالكلمات ، وصبر من قبل الرشيد ، منفذاً ما أمر به قائلاً :

يا بن عـــم النبى سمعاً وطاعـــة　　قد خلعنا الكساء والدراعـــه
ورجعـــنا إلى الصناعـــة لمـــا　　كان سخط الإمام ترك الصناعة[٣]

وبعد ألا يكفى هذا دليلاً واضحاً عن تصوير مدى حب الرشيد للشعر ، إن حرصه على عودة أبى العتاهية إلى مكانته الشعرية المعروفة عنه ، تعطى مؤشراً واضحاً لحسه وتذوقه الشعرى اللذين أدرك عبرهما ما يمثله أبو العتاهية من ثروة قومية ، لابد من الحفاظ عليها بكل مرتخص وغال ، فجاء

---

(١) السابق ٢٤٦ - ٢٤٧ .
(٢) نفسه ٣٢٢ .
(٣) الأغانى ١٥٤/٣ .

عنفه وقسوته ، معبرين عما بداخله من ضيق لما أضمره الشاعر من تركه لشعر الغزل ، وإعلانه التصوف ، بينما تهدأ ثورته عندما يعود إلى ما كان عليه من قبل ، إنها رعاية للشعر والشعراء عندما يترك خليفة أمور دولته ، ويشغل نفسه بأمر شاعر .

وإذا كان ما عرضنا من قبل يصور موقف الرشيد مع شاعره أبي العتاهية ، فهو واحد من مجموعة مواقف جمعت بينه وبين شعرائه ، ومنها ما كان يجرى فى مجلسه الشعرى ، حيث كان يشعل روح التنافس الإبداعى بين الشعراء ، وذلك عن طريق حثهم على قول الشعر بطريقة عفوية طارئة لأبيات ينظمها هو ، ويطلب إجازتها بما يوافق ما فى نفسه ، ويشترك معهم فى هذا الجو الشعرى ، الذى يكشف من خلاله مقدرة كل واحد منهم على قول الشعر بالسليقة ، لينهى الجلسة فى النهاية بالعطايا والهبات على عادة مجالسه ، ليظهر لنا وهو على هذه الحالة وكأنه يشجع الحركة الإبداعية للشعر فى عصره . ويروى لنا الأصمعى ، فى حضور أبى حفص الشطرنجى واحداً من هذه المجالس ، عندما قال لهما الرشيد : " أيكم سبق إلى بيت من الشعر يوافق ما فى نفسى فله ألف دينار ، فوقع فى نفسى أنه يريد جارية الناطفى ، وكان يميل إليها وفطن أبو حفص فبدرنى بحدة العميان فقال :

مجلس ينسب السرور إليه ... لمحب ريحانه ذكراك

فقال له : قد قاربت وأحسنت ، لك ألف دينار ! فبدأت أعمل بيتا وتهييته فسبقنى أبو حفص فقال :

كلما دارت الزجاجة زادته ... اشتياقا وحرقة فبكاك

فقال له أحسنت ولك ألف دينار ، فلما رأيت ذلك قلت :

لم ينـلك الرجـاء أن تحضـرينى ... وتجافـت أمنـيتى عـن سواك

فقال الرشيد : أحسـنت يـا أصمعى ، ولـك ألـف دينـار ، ثـم أطرق رأسـه فقـال : وقد قلت بيتاً ، أنا فيـه أشعر منكمـا :

فتمنيـت أن يغشـينى اللـ ... ـه نعاسـاً لعـل عينى تراك

فقلت : يـا أمير المؤمنين ، أنـت أشعر فخـذ جوائزنـا ، فقـال : جوائزكمـا لكمـا فانصرفـا [(١)] .

ويصنع قسيماً مـن الشعر ، ويدعـو الشعراء لإجازتـه ، فحضـر الجمـاز الذى بادره الرشيد بقسيمه قائلاً : الملـك لله وحـده .

فقـال الجمـاز : وللخليفـة بعـده .

فقـال الرشـيد : زد ، فقـال الجمـاز :

وللمحـب إذا مـا ... حبيبـه بـات عـنده

فأجـازه الرشـيد ، وأثنـى عليـه [(٢)] .

ويهـب مستيقظاً ليـلاً بعـد أن نظـم بيتـاً مـن الشـعر ، ثـم امتنـع القـول عليـه ، فأرسـل إلى العبـاس بـن الأحنـف قـائلاً : وجهـت إليـك لبيـت قلتـه ، ورمـت أن أشفعه بمثله فـامتنع القـول علـى ، فقـال : يـا أمـير المؤمنين دعنـى حتى ترجـع إلى نفسـى ، .. فـانتظر هنيهـة ثـم أنشـده البيـت :

جنـان قـد رأيناهـا ... ولم نـر مثلهـا بشـرا

فقال العبـاس بـن الأحنـف :

يزيـدك وجههـا حسنـاً ... إذا مـازدتـه نظـرا

---

(١) نور القبس ١٣٦ ، العقد الفريد ٥٣/٦ - ٥٤ ، تاريخ بغداد ٩/١٤ - ١٠ .

(٢) فوات الوفيات ٢٢٧/٤ .

فقال لـه الرشيد : زدنـي ، فقـال :

إذا مـــا الليـــــل مال عليــــــ ـــــك بالإظلام واعتــــكرا

ودج فلـــم تـــر قمــــرا فأبرزهــــا تـــر قمـــرا

فقـال لـه الرشـيد : قـد ذعرنـاك وأفزعنـا عيـالك ، فـأقل الواجـب أن نعطيـك دينـك وأمـر لـه بعشرة آلاف درهـم وصرفـه [١] .

ويدخـل عليـه إسحاق الموصلي ، وبين يديـه جاريـة شـاعرة ، وأمامـه طبق من الورد ، فطلـب منـه أن يقـول بيتـا يشـبه جمـال هـذا الـورد ، فقـال :

كأنه خــد مــوموق يقبــله فم الحبيب وقد أبدى به خجلا[٢]

ويغنيه أحدهم بيـت جريـر الـذى يقـول فيـه :

إن الذين غــدوا بلــبك غادروا وشــلاً بعينك لا يزال معيــنا

فيطرب للأبيـات ، ويطلـب مـن يجيزهـا ولـه بـدرة ، فترسـل لـه عنـان مجيزة بهـذه الأبيـات :

هيجت بالقول الذى قد قلـــته داء بقلبى مايزال كمــــينا

قد أينعت ثمراتــــه فى طــــينها وسقين من ماء الهوى فـــروينا

كذب الذين تقولـــوا يا سيـدى إن القلوب إذا هوين هـــوينا

فـأعجب بالأبيـات ، واشـترى الجاريـة بثلاثـين ألفـا " [٣] .

وينشد أبا نـواس عنـد دخولـه عليـه :

وقهـوة كالعقــــيق صافـــية يطير من حسنها لها شــــرر

---

(١) تاريخ بغداد ١٣١/١٢ ، وفيات الأعيان ٢٢/٣ .

(٢) العقد الفريد ٩٨/٨ .

(٣) السابق ٥٢/٧ - ٥٣ .

زوجتها الماء كي تذل له ... فامتنعت حين مسها ذكر

فقال الشاعر بداهة ، مساجلاً للرشيد :

كذلك البكر عند خلوتها ... يظهر منها الحياء والخفر

حتى إذا ساسها مملكها ... فما لها فيه ثم مزدجر

عادت له ثيباً تفاكهه ... قد غاب عنها بالرقة الأشر

ترضعه تارة وتتبعه ... صريع كرم بعينه حور

فأمر له بمال ، وكانت الأبيات من أسباب اتصاله به بعد ذلك [(١)] .

ويدخل عليه مسلم بن الوليد ، وأنس بن أبي شيخ ، متهمين بالزندقة فيأمر بقتل الثاني مع الاستبقاء على الأول شريطة أن يقول شعراً في أنس بداهة ، فأنشأ يقول :

تلمظ السيف من شوق إلى أنس ... فالموت يلحظ والأقدار تنتظر

فليس يبلغ منه ما يؤمله ... حتى يؤامر فيه رأيك القدر

أمضى من الموت يعفو عنه قدرته ... وليس للموت عفو حين يقتدر

فخلى سبيله ، وأمر له بجائزة " [(٢)] .

ومن المواقف الشعرية الأخرى التي كانت تربط الرشيد بشعرائه، أنه كان يدخل معهم في صراع ذهني ، عبر طرحه ألغازاً شعرية ، تجهد الذهن من أجل الوصول إلى حلها ، ومعرفة كنه المراد منها وذلك لامتحان موروثه الشعري ، وتوظيفه ، بالإضافة إلى إظهار مدى تمكنه من الشعر وحفظه له بصورة جيدة ، والذي أصبح مولعاً به، متفنناً في تشكيله على

---

(١) أخبار أبي نواس ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) العقد الفريد ٢/٤٤ - ٤٥ .

كثير من الوجوه ، إلى جانب إثراء مجالسه الشعرية التى تحدثنا عنها فى أول الأمر .

فعندما دخل عليه المفضل الضبى ذات يوم ، استقبله سائلا " اذكر لى بيتاً جيد المعنى يحتاج إلى مقارعة الفكر فى استخراج خبيئه ثم دعنى وإياه . فقال له المفضل : أتعرف بيتاً أوله فى شملته ، هاب من نومته ، كأنما صدر عن ركب جرى فى أجفانهم الوسن ، فركد يستفزهم بعنجهية البدو ، وتعجرف الشدو ، وآخره مدنى رقيق ، قد غذى بماء العقيق ؟

قال : لا أعرفه ، قال : هو بيت جميل بن معمر :

ألا أيها الركب النيام ألا هبوا

ثم أدركته رقة المشوق فقال :

أسائلكم : هل يقتل الرجل الحب ؟

قال : صدقت ، فهل تعرف أنت الآن بيتا أوله أكثم بن صيفى فى أصالة الرأى ونبل العظة ، وآخره إبقراط فى معرفته بالداء والدواء ؟ قال المفضل قد هولت على ، فليت شعرى بأى مهر تفترع عروس هذا الحذر ؟ قال : بإصغائك وإنصافك ، وهو قول الحسن بن هانى :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء　　　وداونى بالتى كانت هى الداء [(١)]

ويدخل عليه سهل بن هارون ، فقال له : " يا سهل من روى من الشعر أفصحه ومن الحديث أوضحه إذا رام أن يقول لم يعجزه ! قال : يا أمير المؤمنين ما أعلم أحداً سبقنى إلى هذا المعنى . قال : بل سبقك أعشى همدان ، حيث يقول :

رأيتك أمس خير بنى معد　　　وأنت اليوم خير منك أمس

---

(١) الشعر والشعراء ١/٧٣ - ٧٤ ، العقد الفريد ٦/١٩٦ ، سمط اللآلئ ٢/٩٤٦ .

وأنـــت غداً تزيد الضعف خبراً كذاك تزيد سادة عبد شمـس [١]

وفـى بعـض الأحـايين كـان الرشـيد يقـف موقـف المتشـكك مـن شـاعرية بعـض الشعراء مـن حيـث القـوة أو الضعـف ، ليكمـل بذلـك سلسـلة المواقـف ، التـى تربـط بينـه وبـين شعرائه ، فأحياناً يشعر بـأن الأبيـات المنظومـة التـى يسـمعها لا تتناسـب مـع طبيعـة قائلهـا ، وإن كنـت لا أعـرف مـا السـر وراء هـذا التشـكك؟ أمصدره وشاية أم ضغينـة مـن الشعراء بعضهـم علـى الآخـر ؟ وإن كنـت أرجـع الأمـر إلى الرشـيد نفسـه ، فأحيانـاً كـانت تهديـه حاسـته الشـعرية إلى التشـكك فـى أمـر هـذا الشـاعر أو ذاك ، فيجعـل مـن نفسـه حكمـاً لإصـدار حكـم بشـاعرية الشـاعر مـن عدمـه، كموقفـه مـن أبـى الغـول الشـاعر ، الـذى دخـل عليه وأنشـده بعضـاً مـن شعره ، فقـال لـه الرشـيد : " إن فـى أنفسـنا مـن شـعرك شيئاً ، فلـو كشـفته بشـئ تقولـه علـى البديهـة ؟ قـال : والله مـا نصفتنـى يـا أمـير المؤمنين قـال : ولم ؟ وإنما هـذا امتحـان . قـال : لأنــك جمعـت هيبـة الخلافـة وجلالة الملك وحـيرة الاقتضـاب ، علـى أنـى أرجـو أن أبلـغ مـن ذلـك مـا تريـد ، فالتفت فإذا الأمين قـائم عـن يمينـه ، والمأمون عـن يسـاره ، فأنشـأ يقـول :

بنيــت لعبــد الله بعد محمــد ذرا قبة الإسلام فاخضر عـودها

هــما طنباها بارك الله فيهــما وأنت - أمير المؤمنين - عمودها

قـال الرشـيد : وأنـت بـارك الله فيـك ، وأحسـنت وأجـدت ، فقـال : يـا أمـير المؤمنين امتحـنى بمـا شئت ليزول مـا بقلبـك مـن الريبـة والشـك مـن شـعرى . فقـــال : لا حاجـة بنـا إلى ذلـك ، أنـت شـاعر مقتـدر ، والـذى قيـل فيـك بـاطل " [٢].

---

(١) العقد الفريد ١٦٣/٦ .

(٢) طبقات الشعراء ١٤٩ ، نور القبس ٢٧٣ ، زهر الآداب ١٠٨٨/٤ .

وينشده العباس بن الأحنف هذه الأبيات :

إذا ما شئت أن تبصـ ـر شيئاً يعجب الناسا
فصور ها هنا فوزاً وصور ثم عباسا
وقس بينهما شبراً وإن زاد فلا باسا
فإن لم يدنو حتى ترى رأسيهما راسا
فكذبها وكذبه بما قاست وما قاسا

مدعيا بأنه لم يسبقه فى إيراد هذا المعنى أحد ، فيرسل الرشيد للأصمعى ليتأكد من صدق مقولة الشاعر ، لما عرف عنه من باع طويل وخبرة بأشعار العرب ، فقرر تفرد الشاعر بهذه المعانى الجديدة ، فأمر لهما الرشيد بجائزتين [١] .

وتذهب إليه أعرابية تصاحبها ابنتها الصغيرة التى بلغت عشر سنوات ناسبة لها القدرة على نظم الشعر فيتشكك الرشيد فى أمر الصغيرة ، فيرسل إلى الأصمعى لاختبارها ، فتنشده :

تقول لأتراب لها وهى تمترى[٢] دموعاً على الخدين من شدة الوجد
أكل فتاة لا محالة نازل بها مثل ما بى أم بليت به وحدى
برانى له حب تنشب فى الحشى فلم يبق من جسمى سوى العظم والجلد
وجدت الهوى حلواً لذيذاً بديئه وآخره مر لصاحبه مردى

فيعجب الرشيد من شاعريتها ، التى تنبئ عن ميلاد شاعرة واعدة بمستقبل شعرى طيب ، وبعد أن تأكدت له فصاحتها بشهادة عالم من علماء الشعر

---

(١) الورقة ٣٢ - ٣٣ .

(٢) تمترى دموعاً : تستدرها وتستخرجها .

أمر لها بجائزة وللأصمعى بأخرى [١] .

ويختبر أشجع السلمى فى أمر بيت أنشده قائلاً له " من أين أخذت قولك ، وعلى عدوك : البيتين [٢] فقلت لا أكذب وا لله من قول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فقال هيه ، هو عندى من كلام الأخطل لعبد الملك بن مروان ، وقد قال له:أنا مجيزك من الجحاف . فقال : من يخبرنى إذا نمت [٣] ؟ "

ولقد كان هذا الاحتكاك المستمر له مع الشعراء ، أثره الكبير فى الوقوف على جوانب الإبداع عند كل متفرد منهم ، فقد تعايش معهم واحتك بهم شعرياً ، سواء عن طريق السماع أو النقد ، من هنا بدأ يفاضل بينهم ، ويقرب شخصاً إليه لشاعريته ويبعد آخر ، ولقد عرف عنه تفضيله لبعض الشعراء على بعض ، وتعصبه لجماعة منهم دون جماعة ، معترفاً أمام نفسه بالأسباب التى دفعته إلى ذلك ، وجلها يتعلق بمدى شاعرية الشاعر . على أن أمر تفضيله جاء مبنياً ليس على مقاييس شخصية فقط بل أيضاً دخل فى حساباته عنصر الخبرة بالشعر والمعرفة بضروبه والحذق به . ولقد كان أبو العتاهية من هؤلاء الشعراء الذين احتلوا مكان الصدارة عنده ، و لم لا وقد حزن حزناً شديداً على إعلانه الزهد ولبس الصوف ودار بينهما صراع

---

(١) الأغانى ٤١/٥ - ٤٢ .

(٢) البيتان هما :

وعلى عدوك يا بن عم محمد رصدان ضوء الصبح والإظلام

فإذا تنبه رعته وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام

(٣) الأوراق ٧٧ .

عنيف من أجل إرجاعه عن نيته ، لاقتناعه بشاعريته وحسن نظمه ، من هنا تعصب له تعصباً شديداً ، لفت نظر سماره ، حتى قال فى ذلك إسحاق الموصلى : "كان الرشيد يقدم أبا العتاهية حتى يجوز الحد فى تقديمه " [١] .

على أن أمر هذا التقديم كان يجره إلى مناقشات عدة بينه وبين من لا يعترف بشاعرية هذا الرجل ، فقد كان لكل واحد من ندمائه شاعر خاص ، يفضله ويعشقه ويتعصب له أيضاً ، من مثل إسحاق الموصلى الذى كان يفضل العباس بن الأحنف على سائر الشعراء ، وإذا به وجهاً لوجه أما الرشيد الذى سأله قائلاً : " أيما أشعر عندك العباس بن الأحنف أو أبو العتاهية ، فعلمت الذى يريد فأطرقت كأنى مستثبت، ثم قلت أبو العتاهية أشعر ، قال أنشدنى لهذا ولهذا قلت : فبأيهما أبدأ قال : بالعباس فأنشدته أجود ما أرويه للعباس وهو قوله :

أحرم منكم بما أقول وقد   نال به العاشقون من عشقوا

قال لى : أحسن ، فأنشدنى لأبى العتاهية ، فأنشدته أضعف ما أقدر عليه وهو قوله :

كأن عتابة من حسنها   دمية قس فتنت قسها

يا رب لو أنسيتنيها بما   فى جنة الفردوس لم أنسها

إنى إذاً مثل التى لم تزل   دائبة فى طحنها كدسها

حتى إذا لم يبق منها سوى   حفنة بر قتلت نفسها

قال : أتعيره بهذا فأين أنت من قوله :

---

(١) الأغانى ٢٣/٨ .

قال لى أحمد ولم يدر ما بى أتحب الغداة عتبة حقا

فتنفست ثم قلت نعم حباً جرى فى العروق عرقا فعرقا

ويحك أتعرف لأحد مثل هذا وتعرف أحداً سبقه إلى قوله ، فتنفست ثم قلت كذا وكذا ذهب ، ويحك فاحفظها ، فقلت نعم يا أمير المؤمنين ولو كنت سمعت بها لحفظتها ، قال إسحاق وما أشك أنى كنت أحفظ لها حينئذ من أبى العتاهية ولكنى إنما أنشدت ما أنشدت تعصباً (١) .

وهذا الجانب يوضح لنا كيف كان يتعصب الرشيد لشاعره إلى حد كبير ، ويحبه بصورة وصلت إلى حد الدفاع عنه ، سواء بالحجة أو القوة ، وقد استخدم الرشيد الاستدلال الشعرى لتأكيد شاعرية أبى العتاهية وتفوقه فى الوقت الذى تجاهل فيه إسحاق هذه الأبيات ، على الرغم من أنه يحفظها تعصباً لشاعره ، الأمر الذى يصور لنا حدة الصراع فى ذلك الوقت الناجم عن التعصب لشاعر دون آخر ، وإسحاق فى مواضع أخرى كان يستغل سقطات أبى العتاهية ويبثها للرشيد ، معلناً رضاه عنه فى الظاهر متهكما عليه فى حقيقة الأمر ، كقوله له " يا أمير المؤمنين هو أطبع الناس ولكن ربما تحرف ، أى شئ من الشعر قوله :

هو الله هو الله ولكن يغفر الله (٢)

ولم يقف هذا حائلاً دون حب الخليفة وإعجابه بشعر أبى العتاهية ، الذى كان يكتب من كل قصيدة له نسختين يرسل بإحداهما إلى مؤدب ولده حتى يروى له ما فيها ، بينما يرسل بالأخرى ، إلى مغن حاذق من بطانته

---

(١) السابق ٢٣/٨ - ٢٤ ، ذيل زهر الآداب ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) الموشح ٣٣٩ - ٤٠٠ .

ليحيلها إلى أنغام عذبة ، تطرب لها الأسماع ، وتهش لها النفوس ، ومن إحدى هذه الرقاع قوله فيها :

قل لمن ضن بوده ... وكوى القلب بصده
ما ابتلى الله فؤادى ... بك إلا شؤم جده
أيها السارق عقلى ... لا تضنن برده
ما أرى حبك إلا ... بالغاً بى فوق حده[١]

على أن الأمر بينهما لم يقف عند حد الإعجاب فقط ، بل كانت بينهما صلات متبادلة تظهر مدى القرب الذى كان يجمعهما ، ومن صوره أن أبا العتاهية أهدى إليه نعلاً مصحوباً ببيتين من الشعر هما :

نعل بعثت بها ليلبسها ... قرم يمشى بها إلى المجد
لو كان يصلح أن أشركها[٢] ... خدى جعلت شراكها خدى [٣]

على أن الرشيد كان رجلاً منصفاً ، فلم يكن إعجابه يقف حائلاً بينه وبين الصواب ، فإلى جانب إعجابه بالشاعر ، كان يقف فى صف غيره طالما أحس أن الصواب لا يخالفه ، فعندما أخبره أبو العتاهية بما دار بينه وبين محمد بن مناذر الشاعر حول الكم الشعرى الذى يميز الأول عن الثانى ، أرسل إلى محمد مستفهماً عن حقيقة الأمر ، فانتصف محمد لنفسه مؤكداً شاعريته بالأدلة حيث قال : " يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول :

ألا يا عتبة الساعه ... أموت الساعة الساعه

لقلت كثيراً ، ولكنى أقول :

---

(١) الأغانى ١٦٨/٣ - ١٦٩ .

(٢) الشراك : سير النعل على ظهر القدم .

(٣) الأغانى ٧٩/٤ .

إن عبد الحميد يوم توفى هد ركناً ما كان بالمهدود
ما درى نعشه ولا حاملوه ما على النعش من عفاف وجود [١]

فأعجب بالأبيات ، وانتصف له من شاعره المفضل ، حتى كاد أبو العتاهية يموت غماً وأسفاً .

ولم يكن أبو العتاهية هو الشاعر الوحيد المفضل عند الرشيد ، بل شاركه في شرف هذا التفضيل عدة ، منهم منصور النمرى الذى كان مقدماً عنده [٢] ، ونصيب الأصغر المعروف بأبى الحجنا [٣] ، ومروان ابن أبى حفصة [٤] بينما احتل الأصمعى مكان الصدارة كعالم بالشعر ومروية ، حتى إنه كان يسميه شيطان الشعر [٥] .

وعلى قدر إعجاب الرشيد بالشعراء كان تقديره لهم ، ووقوفه بجانبهم عند الخطوب ، فعندما كان يحس بظلم وقع على شاعر من شعرائه كان يسانده حتى يأخذ له حقه ، سمع شكاية عمه العباس بن محمد فى ربيعة الرقى الشاعر ، فغضب لإكباره عمه وإجلاله له وطلبه مصاهرته فى ابنته ، فأرسل إلى الشاعر من أجل أن يعنفه ، فأخبره أن السبب فى ذلك راجع إلى قصيدة مدح قالها فى عمه ما سبق إليها فأجازه عليها بدرهمين ، فلم يجد بداً من هجوه بعد ذلك لإحساسه بالغبن ، ولينفس عن غيظه المكتوم حيال هذه الفعلة ، ويستشعر الرشيد صدق كلام الشاعر على ملامح وجه عمه ، فيشتاط غضبا ، لائماً إياه، معترفاً بأن ما حدث يمثل

---

(١) المستطرف ٦١/١ .

(٢) ارجع فى ذلك إلى طبقات الشعراء ٤٣٨ .

(٣) نفسه ١٥٥ .

(٤) الأغانى ١٨/١٢ .

(٥) نزهة الألباء ١١٣ .

فضيحة له ولأجداده ، معوضاً الشاعر عن الدرهمين بثلاثين ألف درهم وخلعة ، مع حمله على بغلة ، طالباً منه أن لا يذكر عمه في شعره بعد ذلك لا تعريضاً ولا تصريحاً ، ولإحساسه بفداحة ما حدث رفض أمر مصاهرة عمه ، وحدث بينهما جفاء كبير بعد ذلك [١] .

ويعيد الأمور إلى مجرياتها عندما يعلم بتجاهل يزيد بن مزيد لمادحه مسلم بن الوليد ، حيث نما إلى علمه بأنه لم يصله بشئ ، فأرسل إليه قائلاً : " من الذى يقول فيك :

تراه فى الأمن فى درع مضاعفة لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

لله فى هاشم فى أرضه جبل وأنت وابنك ركنا ذلك الجبل

فقلت : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ، فقال سوأة لك من سيد قوم يمدح بمثل هذا الشعر ولا يعرف قائله ، وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله " [٢]

و يبدو أن يزيداً لم يأخذ درساً من المرة الأولى ، واعتاد المديح دون مقابل ، لذا أرسل إليه الرشيد مرة أخرى ، مستفسراً منه عن صاحب هذين البيتين:

سل الخليفة سيفاً من بنى مضر يمضى فيخترق الأجسام والهاما

كالدهر لا ينثنى عما يهم به قد أوسع الناس إنعاماً وإرغاما

فأجاب بالنفى ، فأخبره بأنه مسلم بن الوليد ، فهب إليه مسرعاً وأعطاه مقابل شعره فيه مائة وتسعين ألف درهم ، بينما أعطاه الرشيد مائتى ألف درهم [٣] .

---

(١) ارجع فى ذلك إلى الأغانى ١٥/٣٨ - ٣٩ ، معجم الأدباء ١١/١٣٤ - ١٣٥ ، نهاية الأرب ٣/٢١٥ - ٢١٧ .

(٢) وفيات الأعيان ٦/٣٣٢ - ٣٣٣ ، معاهد التنصيص ٣٦٢ .

(٣) المستطرف ٢/٧٠ .

ولم يبخل الرشيد على شعرائه بل كان عطاؤه مضرب الأمثال فى معظم الكتب التى أرخت لحياته ، وبرغم عطائه المستمر لم ينس الشعراء أن يدسوا له عبر شعرهم أبياتاً تحثه على زيادة العطايا والهبات ، كقول أشجع السلمى له :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة ... لها عنق [1] بين الرواة فسيح

بأن لسان الشعر ينطقه الندى ... ويخرسه الإبطاء وهو فصيح [2]

فأمر بترويج صلته ، حتى لا يخرس لسان شعره ، وأعتقد أن الرشيد كان يفهم هذا الأمر جيداً ، والدليل على ذلك تلك المبالغ الطائلة التى أغدقها على الشعراء ، والتى كانت دليلاً واضحاً على كنه هذا الفهم ، فمن الطبعي أن كل خليفة كان يعطى عند المدح ، لكن اللافت للنظر حجم هذا العطاء ، الذى يصل إلى قدر من الصعب تصديقه . قال عنه نفطويه ضارباً المثل بتفرده فى هذا الأمر " لم ير خليفة قبله أعطى منه : أعطى سفيان بن عيينة مائة ألف ، وأجاز مروان بن أبى حفصة مرة على قصيدة خمسة آلاف دينار وخلعة ، وفرسان من مراكبه ، وعشرة من رقيق الروم " [3] . ومن صور هذه العطايا أيضاً ، أن أبا محمد التيمى أنشده قصيدة يشيد فيها ببطولاته وما أبلاه فى وقعته ببلاد الروم ، فنثر عليه مثل الدر من جود شعره [4] . وينشده مروان قصيدة من سبعين بيتا فيجيزه على كل بيت

---

(١) العنق فى سير الإبل السريعة .

(٢) الأوراق ٧٩ ، الأغانى ٣٦/١٧ ، معاهد التنصيص ٥٢٨ .

(٣) تاريخ الخلفاء ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٤) الأغانى ٣١/١٧ - ٣٢ .

بألف درهم[١] ، وينشده إسحاق الموصلي قصيدة ، فوهبه عليها مائة وخمسين ألف درهم [٢] .

إن هذه المبالغ الطائلة توضح لنا جزءاً من كل مما أعطى الرشيد للشعراء ، فنحن لا نستطيع أن نحصى كل ما أعطى ، فهذه مسألة تحتاج من الوقت والجهد الشئ الكثير .

وبعد لقد خلد الرشيد الحياة الشعرية فى عصره وأثراها ، فلقد كان شاعراً يحب الشعر ويتذوقه ، أحاط نفسه بالشعراء ، وجمع بلاطه أكبر عدد منهم ، ولم يكن ذلك من أجل صيت أو تكملة لصولجان ، بل كان غريزة فى داخله ، حيث أحب الشعر ، فسعى إلى تقريب الشعراء إليه ، وحثهم على العطاء الشعرى المتفرد .

ولم يكن الرشيد بأقل من شعرائه ، فلقد كان لديه موروث شعرى كبير حاول على مدار الأيام تنميته ، ليقف على قدم وساق معهم ، وكان له حسه الشعرى الخاص فمارس نقده للشعر عن خبرة ودراية ، بل اعترف له الشعراء بهذه السمة .

ولقد استطاع أن يكون قريباً من شعرائه ، متخذاً منهم بطانته وحاشيته ، فتباسط معهم وأزكى روح التنافس الإبداعى فيهم ، من خلال خواطره الشعرية التى تنبأ عن مدى انشغاله بنظم الشعر ، فقد كان شاعراً على درجة جيدة ، ولو استمر لأنتج لنا أدباً رفيعاً متميزاً بشاعرية خاصة .

ولقد كانت له بصماته الواضحة على عالم الشعر والشعراء ، ويظهر ذلك من خلال عنايته الواضحة بتلك الكوكبة الكبيرة من الشعراء

---

(١) شذرات الذهب ٣٠١/١ - ٣٠٢ .

(٢) الأغانى ٧٣/٥ .

الذين عاشوا فى عصره ، وشهد لهم بالتفرد الشعرى بعد ذلك ولقد صدق فى ذلك رينولد نكلسن عندما قال عن الرشيد : " إنه يجب أن نعترف بأنه فهم تمام الفهم فن الرعاية النبيل " [١] ولقد كان لاسم الرشيد السبب فى ذيوع صيت وتخليد بعض الشعراء فى عصره ، فنحن لا نذكر صريع الغوانى ، إلا ويقفز إلى الذهن اسم مسلم بن الوليد [٢] الذى لقبه الرشيد بهذه الصفة عندما أنشده :

سأنقاد للذات متبع الهوى ... لأنضى هماً أو أصيب فتى مثلى

وما العيش إلا أن تروح مع الصبى ... وتغدو صريع الكأس والأعين النجل [٣]

والكلام نفسه عندما نتحدث عن أبى نواس ، الذى أظهر الأستاذ العقاد أن جانبا من شهرته جاء من " اقترانه بطراز آخر من الشخصية النموذجية ، لعله أشهر أمثاله فى التاريخ العربى أو فى تاريخ العالم ، وتلك هى شخصية الرشيد " [٤].

---

(١) تاريخ الأدب العباسى ٣٠ .

(٢) صريع الغوانى ٨ .

(٣) سمط اللآلئ ١/٤٢٧ - ٤٢٨ .

(٤) أبو نواس ١٧ .

ثانياً : الرشيد ومجالس العلم :

إذا كان الرشيد قد أحاط نفسه بالشعر والشعراء ، وشهد بلاطه أحلى قصائد الشعر ، لشعراء شهد هم بالبراعة فى نظم الشعر وصياغته، وشاركهم هو بحسن سماعه ونقده ونظمه للشعر بقدر ما أعطته ملكته عرف بلاطه أيضاً مجالس لم تكن بأقل من الأولى نفعاً وأحسن إفادة وإن كانت أكثر ، ألا هى مجالس العلم.

فقد عشق الرشيد المعرفة ، لذا جاء حبه للعلم والعلماء ، تتويجاً هذا العشق ، فقد عرف عنه أنه كان " عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه"[١] فلهذا لا نعجب إذا عرفنا أن له مناظرات علمية تنبئ عن سعة فى الاطلاع ، ومعرفة بمختلف الفنون ، فقد كان يستقطب إليه أهل العلم ، ليشفى غليل نفسه التواقة إلى البحث والاطلاع ، وتشهد له هذه المحاورة التى كانت بينه وبين الأصمعى عن مدى اتساع علمه بأخبار العرب وأشعارهم ، والجيد من كلامهم ورديئه ، وذلك عندما دخل عليه فى اللقاء الأول بينهما ، مدعيا العلم، فأراد الرشيد اختباره ، فكان هذا الحوار الذى يروى تفاصيله الأصمعى، الذى بادره الرشيد ممتحناً : " قد أنصف القارة من راماها " ما معنى المثل فى هذه الكلمة بدياً ؟ قلت : ذكرت العرب يا أمير المؤمنين أن التتابعة كانت لهم رماة لا تقع سهامهم فى غير الحدق ، فكانت تكون فى الموكب الذى يكون فيه الملك على الجياد البلق ، بأيديهم الأسورة ، وفى أعناقهم الأطواق ؛ فخرج من موكب الصعد فارس مُعْلَم بعذبات سود فى قلنسوته ، قد وضع نشابته فى الوتر ، ثم صاح : أين رماة

---

(١) الأعلام ٤٤ .

الحرب ؟ قالوا : قد أنصف القارة من رامها ... قال الرشيد : أحسنت ، أرويت للعجاج ورؤبة شيئاً ؟ قلت : هما يا أمير المؤمنين يتناشدان لك بالقوافى وإن غابا عنك بالأشخاص ، فأخرج من تحت فراشه رقعة ، ثم قال : أسمعنى : فقلت " أزقنى طارق هم طرقا " ... قال الرشيد : ارجع إلى أول الشعر ، فأخذت من أوله حتى صرت إلى صفة الجمل ... قال : ما أحسن ما أديت فى قدر ما سئلت ! أسمعنى لكلمة عدى بن الرقاع فى الوليد بن يزيد بن عبد الملك قوله : " عرف الديار توهماً فاعتادها " ... فمررت فى سنن الإنشاد حتى بلغت إلى قوله :

تزجى أغن كأن إبرة روقه ⠀⠀⠀ قلم أصاب من الدواة مدادها

فاستوى جالسا ، ثم قال : اتحفظ من هذا شيئا ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ثم قال الرشيد : مر فى إنشادك . فمضيت حتى بلغت إلى قوله :

ولقد أراد الله إذ ولاكها ⠀⠀⠀ من أمة إصلاحها ورشادها

... قال الرشيد : ماذا صنع إذ سمع هذا البيت ؟ قلت : ذكرت الرواة يا أمير المؤمنين أنه قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، قال : مر فى إنشادك ، فمضيت حتى بلغت إلى قوله :

تأتيه أسلاب الأغزة عنوة ⠀⠀⠀ عصباً ويجمع للحروب عتادها

قال الرشيد : لقد وصفه بحزم وعزم لا يعرض بينهما وكل ولا استذلال ، قال : فماذا صنع ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، ذكرت الرواة أنه قال : ما شاء الله ، قال : أحسبك واهماً ، قلت يا أمير المؤمنين أنت أولى بالهداية ، فليردنى أمير المؤمنين إلى الصواب ، قال : إنما هذا عند قوله :

ولقد أراد الله إذ ولاكها ⠀⠀⠀ من أمة إصلاحها ورشادها

ثم قال : والله ما قلت هذا عن سمع ، ولكنني أعلم أن الرجل لم يكن يخطئ في مثل هذا . قال الأصمعي : وهو والله الصواب . ثم قال : مر في إنشادك فمضيت حتى بلغت إلى قوله :

وعلمت حتى لا أسائل واحدا عن حرف واحدة لبكى أزدادها

...... قال الرشيد : رويت لذى الرمة شيئاً ؟ قلت : الأكثر يا أمير المؤمنين . قال : والله لا أسألك سؤال امتحان ، ولا كان هذا عليك ، ولكني أجعله سبباً للمذاكرة ، فإن وقع عن عرفانك ، وإلا فلا ضيق عليك بذلك عندى ، فماذا أراد بقوله :

ممر أمرت متنه أسدية يمانية خلالة بالمصانع

قلت : وصف يا أمير المؤمنين حماراً وحشيا أسمنه بقل روضة تشابكت فروعه ثم تواشجت عروقه ، من قطر سحابة كانت في نوء الأسد ، ثم في الذراع منه . قال : أصبت ، أفترى القوم علموا هذا من النجوم بنظرهم ، إذ هو شئ قلما يستخرج بغير أسباب للذين رويت لهم أصوله ، أو أدتهم إليه الأوهام والظنون ؟ فالله أعلم بذلك . قلت : يا أمير المؤمنين : هذا كثير في كلامهم ولا أحسب إلا عن أثر ألقى إليهم. قال : قلما أجد الأشياء لا تثيرها إلا الفكر في القلوب ، فإن ذهبت إلى ما أدتهم إليه الأوهام . ثم قال : أرويت للشماخ شيئاً ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين . قال يعجبني منه قوله :

إذا رد من ثنى الزمام ثنت له جرانا كخوط الخيزران المموج

قلت : يا أمير المؤمنين ، هي عروس كلامه . قال : فما أحسن كلامه ؟ قلت : الرائية . وأنشدته أبياتها منها . قال : أمسك " [١] .

---

(١) العقد الفريد ١٣٨/٦ - ١٤٢ .

هكـذا أنهـى الرشـيد هـذه المحـاورة الشـعرية اللغويـة العسـيرة علـى الأصمعى ، والتـى اكتشـف على إثرهـا ميلاد عـالم لغـوى شعرى واسـع المعرفـة بـالعرب وأخبارهـا ، وبرغـم طـول هـذه المحـاورة ، إلا أن الهـدف مـن إيرادهـا كاملـة - برغـم الاختصـار منهـا - كـان مـن أجـل الوقـوف علـى مـدى اتسـاع دائـرة المعرفـة عنـد الرشيد ، وحبه للعـلـم الـذى أخلـص لـه ، ونهـل منه كثيراً ، فجاءت هـذه المحاورة تتويجاً وإظهـاراً لعمق الجـانب المعرفـى عنـده بأخبـار العـرب وأشـعارهم وأمثـالهم .

بينمـا تتبلـور تكامليـة المعرفـة عنده ، وتتضـح بصـورة جليـة مـن خـلال حـواره مـع الإمـام الشـافعى عـن مـدى علمـه بـالقرآن والسـنة ، وتمكنـه مـن العربيـة ومعرفتـه للشـعر ، وعلمـه بـالنجوم والطـب والأنسـاب[١] .

وإذا كانـت لـه درايـة بـالعلوم السـابقة ، فلـم يعـدم المعرفـة فـى فـرع مهـم مـن فـروع اللغـة ، ألا وهـو علـم النحـو ، والـذى أفصـح عـن سـر إقبالـه عليـه بقولـه " لأننـى استـدل بـه علـى القـرآن والشـعر " [٢] و يشـهد لـه المفضـل الضبـى بتسكنه النحـوى ، عندمـا قـال لـه الرشـيد " يـا مفضـل عندك مسألة تسأل عنهـا قلت : نعم يـا أمير المؤمنين ، قـول الفـرزدق :

أخـذنا بآفاق السماء عليكـم لنا قمراها والنجوم الطوالـع

... قـال لنـا قمراهـا يعنـى الشـمس والقمـر ، كمـا قـالوا سـنة العمريـن ، يريـدون أبـا بكـر وعمـر ، قلـت : ثـم زيـادة يـا أمير المؤمنين فـى السـؤال ، قـال : زد . قلـت : فلـم استجيز هـذا ؟ قـال : لأنـه إذا اجتمـع اسمـان مـن جنـس واحـد

---

(١) ارجع فى ذلك إلى مناقب الإمام الشافعى ٢٣ - ٢٦ .

(٢) معجم الأدباء ١٧٥/١٣ .

وكان أحدهما أخف على أفواه القائلين غلبوه فسموا الآخر باسمه ، فلما كانت أيام عمر أكثر من أيام أبى بكر ، وفتوحه أكثر منه ، غلبوه وسموا أبا بكر باسمه ، وقال تعالى " بعد المشرقين " وهو المشرق والمغرب " [١] .

ويدمج الفقه بالنحو ، ممعناً فى استنباط مسائل فقهية من قواعد نحوية ، فقد أرسل إلى أبى يوسف القاضى ذات يوم ، مستفسراً عن موقع كلمة " عزيمة " إذا أنشدت بالرفع أو بالنصب ، وما هو الحكم الفقهى فى أحقية الطلاق الموجود فى هذين البيتين :

فإن ترفقى يا هند فالرفق أيمن ... وإن تخرقى يا هند فالخرق أشأم

فأنت طالق والطلاق عزيمة ... ثلاثاً ومن يخرق أعق وأظلم

فيهرع أبو يوسف إلى الكسائى ليحل له اللغز ، حيث خشى سرعة الرد على الخليفة ، اتقاء الوقوع فى الخطأ [٢] .

وإذا كان الرشيد عبر الصور السابقة ، قد شارك بصورة فعلية فى صنع مجالسه العلمية ففى مجالس أخرى ، كان يكتفى بالسماع للمناظرات العلمية ، التى كانت تدار بين يديه وعلى بلاطه ، مستزيداً من مادتها العلمية ، جاعلاً منها زاده العلمى يستخدمه وقت الحاجة ، وكأنه قد أيقن بالحكمة القائلة بأن أولى درجات العلم الاستماع .

ولقد جمعت هذه المجالس فحول العلماء فى مختلف فروع المعرفة، ومن إحداها تلك المناظرة الشهيرة بين الكسائى وسيبويه فى المسألة

(١) الأشباه والنظائر ٣/٨٩ - ٩٠ .

(٢) نفسه ٣/٨٨ - ٨٩ .

المشهورة ، وكنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور ، والتى أودت بحياة سيبويه ، بعد أن انتصف الأعراب لمنافسه تحيزا له ، مع أن الحق معه[١]

ولعل هذه المناظرة تضع أيدينا ، على ضراوة الصراع الشديد فى محاولة السيادة والتربع على عرش النحو فى عصر الرشيد ، ومدى عمق المجالس العلمية التى تدار على بلاطه وتحفز العلماء لها ، فالوصول إلى قصره والنهل من عطاياه ، من العوامل المشجعة على ركوب الصعاب والاستزادة من العلم . ولقد أحدثت هذه المناظرة دوياً شديداً فى عصرها وبعده ، وبخاصة فى الأوساط العلمية ، فى محاولة لتعليل سر انتصار الكسائى على سيبويه المعروف بالبراعة ، ولعل كتبه خير شاهد على ذلك ومن أولئك الذين أدلوا بدلوهم فى هذا الموضوع الأستاذ أحمد أمين ، الذى رد انتصار الكسائى إلى انحياز العباسيين له ، لأنه كوفى فى مقابل سيبويه البصرى ، راداً الأمر فى النهاية إلى أمور سياسية [٢] .

وغالباً ما جمع مجلس الرشيد العلمى بين عالمين مختلفين ، يمثل كل واحد منهما فرعاً للمعرفة يختلف عن الآخر ، من مثل الكسائى عالم النحو وأبى يوسف القاضى عالم الفقه ، والذى كان دائم المحاولة من أجل التقليل من شأن علم النحو والنحاة أمام الرشيد ، الأمر الذى دفع الكسائى إلى أن ينتصف لنفسه ولعلمه ، فبدأ فى نزالة أمام الرشيد مستخدماً خبرته بالنحو فى إضاعة الأمر من يد أبى يوسف قائلاً : " ما تقول فى رجل قال لامرأته : أنت طالق إن دخلت الدار ؟ قال : إن دخلت الدار طلقت ، قال :

---

(١) ارجع إلى هذه المناظرة فى طبقات النحويين واللغويين ٦٩ ، الفهرست ٧٦ ، معجم الأدباء ١١٨/١٦ . بغية الوعاه ١١٢/٢ .

(٢) ضحى الإسلام ٣٤/٢ - ٣٥ .

أخطأت يا أبا يوسف ، فضحك الرشيد ، ثم قال : كيف الصواب ؟ قال : إذا قال " أن " فقد وجب الفعل ، وإذا قال " إن " فلم يجب ، ولم يقع الطلاق " [١] . ويجتمع معه مرة أخرى في المجلس نفسه ، ويبدو أنه أراد أن يدعم نصره ويؤكده بآخر، فقال له : " ما تقول في رجل قال لرجل : أنا قاتل غلامِك ؟ وقال له آخر : أنا قاتل غلامَك ، أيهما كنت تأخذ به ؟ قال آخذهما جميعاً ، فقال له هارون : أخطأت ، وكان له علم بالعربية ، فاستحيا ، وقال : كيف ذلك ؟ قال : الذى يؤخذ بقتل الغلام : هو الذى قال أنا قاتل غلامك بالإضافة ، لأنه فعل ماض ، وأما الذى قال : أنا قاتل غلامك بالنصب فلا يؤخذ ، لأنه مستقبل لم يكن بعد " [٢] . ومن هذه اللحظة بدأ أبو يوسف بمدح العربية والنحو . ويشهد الرشيد أيضاً تلك المحاورات القيمة بين الكسائى صاحب الصور السابقة ، والأصمعى عالم اللغة المعروف ، والتى كانت تنتهى دائما لصالحه " [٣] ، ويشهد بلاطه على مرأى منه ومسمع مزيداً من المحاورات الفقهية ، كالتى بين أبى يوسف وابن مالك [٤] ، ومحمد بن الحسن والإمام الشافعى [٥] وبشر المريسى والشافعى أيضاً [٦] .

---

(١) طبقات النحويين ١٢٧ ، تاريخ بغداد ٤٠٦/١١ ، نزهة الألباء ٧٣ ، معجم الأدباء ١٧٥/١٣ .

(٢) نور القبس ٢٨٥ - ٢٨٦ ، معجم الأدباء ١٧٧/١٣ .

(٣) انظر فى ذلك طبقات النحوين واللغويين ١٢٨ - ١٢٩ ، نزهة الألباء ١١٣ - ١١٤ ، وفيات الأعيان ١٧١/٣ ، الأشباه والنظائر ٨٨/٣ .

(٤) الإمامة والسياسة ١٥٤/٢ - ١٥٥ .

(٥) معجم الأدباء ٢٩١/١٧ ، مناقب الإمام الشافعى ٢٧ - ٣١ .

(٦) مناقب الإمام الشافعى ٣٧ .

على أن هذه الأمور جميعاً تثبت لنا فى النهاية كيف كان الرشيد يحب العلم ، فيقبل عليه مستزيداً منه ، مستمعاً إليه بكل شغف ، ويظهر لنا من جانب آخر ، امتياز هذا العصر بتقدم مجالس المناظرات وما فيها من منافسات حادة قيمة ، حفزت العلماء على البحث والنظر فى الأمور بطريقة عميقة ، باعثة على الرقى العلمى فى نهاية المطاف .

ولأن الرشيد أدرك أهمية العلم وقيمته ، فلم يقصر المعرفة على نفسه ، بل سعى جاهداً على أن يستزيد منها ولداه ، وتظهر لنا هذه الوصية التى سجلتها كتب الأدب ، ما لديه من إدراك واسع للعملية التعليمية ، عندما بعث إلى خلف الأحمر لتأديب ولده الأمين قائلاً له : "إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، ورّوه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضورا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه به ، فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته ، فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة " [١] .

إن هذه الوصية ، قد وضعت أيدينا على نوع التربية التى كان يتطلبها خلفاء هذا العصر لأبنائهم ، الأمر الذى يعود بنا إلى الرشيد نفسه ، فأعتقد أن موروثه العلمى نابع من أنه تلقى علومه على غرار النص السابق ،

---

(١) مروج الذهب ٣٥١/٣ ، مقدمة ابن خلدون ٥٤١ ، جمهرة خطب العرب ٨٢/٣ .

فاختياره للمعارف التى يطلب من مؤدب ابنه أن يلقنها للأمين تنبئ عن سعة الاطلاع والمعرفة ، ولقد طبق عبر وصيته ما ننادى به الآن فى وسائل التدريس الحديثة ، من حيث إفادة الطالب ، وعدم التمادى فى مسامحته والتقرب إليه ، مع استعمال الشدة عندما يعوزه اللين ، والاستفادة من الوقت بأكبر قدر ممكن طلباً العطاء وعدم إضاعته فيما لا ينفع .

ولقد حرص الرشيد على أن يتلقى ولداه العلم على يد نخبة من علماء عصره ، من أمثال خلف الأحمر ، والكسائى ، واليزيدى ، وسيبوية وغيرهم[١] وقد كان الكسائى أثيراً عنده ، حتى إنه " أخرجه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الجلساء والمؤانسين " [٢] وكان دائم التحقيق لرغباته ، فعندما كتب إليه حاجته للمال أثناء تعليمه لمحمد الأمين ، أمر له بعشرة آلاف درهم وجارية حسناء بآلتها ، وخادم ، وبرذون بسرجه ولجامه [٣] .

ولقد عمق الرشيد داخل ولديه احترام الأستاذ المعلم ، وتأصلت هذه النصيحة داخلهما ، فأثبتاها فعلاً دون تنظير ، وقد اعترف بذلك علناً أمام سماره عندما قال لهم : " من أكرم الناس خدماً ؟ قيل : أمير المؤمنين . قال : لا ؟ بل أكرمهم خدماً الكسائى ، فقد رأيته يخدمه الأمين والمأمون وليا عهد المسلمين ، وليس لى من الخدم مثلهما [٤] .

وإذا كان الرشيد قد عمق فى ولديه حب العلم واحترام العلماء ، فكان من الطبعى أن يكون هو السباق إلى ذلك ، فلدينا نماذج كثيرة متنوعة

---

(١) عصر المأمون ١/١٧٤ – ١٧٥ .

(٢) معجم الأدباء ١٣/١٦٨ .

(٣) الورقة ٢٧ – ٢٨ .

(٤) محاضرات الأدباء ١/٥٢ .

توضح هذه الصورة ، والتى يظهر من خلالها الرشيد مبجلاً للعلماء ، رافعاً قدرهم ، يشاركهم أحزانهم ويشاطرهم فيها ، ويرثى نفسه عند فقد واحد منهم ، كما حدث عند موت الكسائى النحوى ومحمد بن الحسن الفقيه ، حيث قال قولته المشهورة " خلفت الفقه والنحو برنبويه [١] " ، وعزاه الناس فى الكسائى وكأن المصاب مصابه .

وعند موت أبى يوسف القاضى ، صلى عليه بنفسه ودفنه فى مقبرة أهله فى مقابر قريش ، وقال " ينبغى لأهل الإسلام أن يعزى بعضهم بعضاً فى أبى يوسف " [٢] .

وعند سماعه نبأ موت شريك النخعى القاضى ، هرع للصلاة عليه[٣]

وقد تعامل الرشيد مع علماء عصره بأدب جم ، واحترام فاق الحد . ويظهر لنا الكسائى جانباً من هذه السمات عندما قال : " صليت بهارون الرشيد فأعجبتنى قراءتى ، فغلطت فى آية ما أخطأ فيها صبى قط ، وأردت أن أقول لعلهم يرجعون " فقرأت " لعلهم يرجعين " قال : فوا لله ما اجترأ الرشيد أن يرد علىّ ، ولكننى لما سلمت ، قال لى : يا كسائى ، أى لغة هذه ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، قد يعثر الجواد ! فقال : أما هذا فنعم "[٤].

---

(١) برنبويه : قرية من قرى الرى بخراسان . الورقة ٢٧ ، تاريخ بغداد ١١٤/١١ ، مرآة الجنان ٤٢٣/١ ، معجم الأدباء ١٦٧/١٣ ، نزهة الألباء ٧٤ ، بغية الوعاة ١٦٤/٢ ، شذرات الذهب ٣٢١/١ .

(٢) شذرات الذهب ٣٠٠/١ - ٣٠١ .

(٣) وفيات الأعيان ٤٦٨/٢ .

(٤) نزهة الألباء ٧١ - ٧٢ ، تاريخ بغداد ٤٠٧/١١ - ٤٠٨ .

ويصب الماء على يد أبى معاوية الضرير قائلاً له : " يا أبا معاوية ، أتدرى من صب الماء على يدك ؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين ، قال : أنا إجلالاً للعلم "[١] وأثناء حجه توجه إلى الله بالدعاء لبختيشوع طبيبه تقديراً لكفاءته وسعة علمه[٢] .

ولعل هذه الصور مجتمعة ، توضح لنا كيف كان الرشيد يحترم علماء عصره ويجلهم ، لما كانوا عليه من علم وسعة فى المعرفة والثقافة ، وكم كان حزنه شديداً عندما كان يفقد واحداً منهم ، وأعتقد أنه قد حاول أن يكون لنفسه أسرة جديدة ، وعائلة أخرى لم تفرضها عليه مقتضيات القدر والطبيعة ، إنما اختارها بنفسه ، فهى عائلة علمية ، أفرادها علماء اللغة والنحو والفقه والحديث والشعر وغيرهم ، من هنا جعل من فقد واحد منهم مصابه الخاص ، فبكاه ، ونعاه ، وعزاه الناس فيه .

ولم يدع الرشيد أمر هذه الكوكبة الكبيرة من العلماء فى عصره تمر دون الاستفادة من علمهم ، لذا فقد نهل من مواردهم ، وسأل عن كل ما بدا له غامضاً مستغلقاً على الفهم ، فسمع الموطأ على يد الإمام مالك[٣] ، وطلب من الأصمعى أن يسمعه كتابه فى صفة الخيل ، فأحضر له فرسا وشرح له بالتفصيل كل عضو فيه[٤] ، وله معه وقفات كثيرة مملوءة بالطلب والاستفسار عن الغريب فى أشياء كثيرة[٥] . وجمع أربعة من

---

(١) تاريخ الخلفاء ٢٨٥ .

(٢) طبقات الأطباء ١٩١ .

(٣) محاضرات الأدباء ٣٤/١ ، شذرات الذهب ٢٩٠/١ - ٢٩١ .

(٤) نزهة الألباء ١٠٩ .

(٥) انظر فى ذلك نور القبس ١٣٨ .

الأطباء ما بين عراقي ورومي وهندي ويوناني ، طالبا ومستفسراً عن معرفة الداء الذى لا داء معه [١] .

ولأن الرشيد أراد تحصيل العلم من منابعه تقرب إلى العلماء واتخذ منهم من ينادمه ويسامره ، كما فعل مع الأصمعى الذى حمل إليه مع أبى عبيدة لمجالسته ، فاختار الأصمعى لأنه أصلح للمنادمة دون غيره [٢] .

ولقد كان الرشيد يجيز العلماء فى كل فن بجائزات كبيرة ، فمثلاً مجموع ما تركه جبرائيل بن بختيشوع الطبيب بعد خدمته للرشيد والتى قاربت ثلاثاً وعشرين سنة " ثمانية وثمانين ألف درهم ، وثمانمائة ألف درهم وثلاثة آلاف ألف وأربعمائة ألف درهم " [٣] وراتب ماسويه أبو يوحنا الطبيب " ألفا درهم فى الشهر ، ومعونة فى السنة عشرون ألف درهم ، وعلوفة ونزل " [٤] هذا بالنسبة للأطباء ، أما رجال الدين ، فقد أجزل لهم العطاء أيضاً ، ومنه ما أعطاه لمالك بن أنس ، وقراء أهل الكوفة [٥] .

ويفتيه أبو يوسف القاضى فيأمر له بمائة ألف درهم ، فما يبرح مكانه حتى أخذها كاملة [٦] .

وفذلكة القول ، إن الرشيد أحب العلم والعلماء ، وتشهد كتب التاريخ والأدب على صدق هذه المقولة ، وأكدها القاضى الفاضل حيث

---

(١) العقد الفريد ١٧/٨ .

(٢) وفيات الأعيان ٢٣٨/٥ .

(٣) طبقات الأطباء ١٩٩ .

(٤) نفسه ٢٤٣ .

(٥) وفيات الأعيان ٢٦١/٢ .

(٦) تاريخ الخلفاء ٢٩١ - ٢٩٢ .

قال : " ما أعلم أن لملك رحلة قط فى طلب العلم إلا الرشيد"[١] . ولقد استطاع عن طريق رعايته للعلم والعلماء ، أن يساعد على وجود نهضة علمية واسعة فى عصره ، لدرجة أن بغداد وصلت إلى مكانة لم تظفر بها مدينة من قبل فقد " أصبحت مهد الحضارة ، ومركزاً للفنون والآداب وزخرت بالأدباء والشعراء والعلماء والحكماء"[٢] . ونقل فى ايامه كتاب أقليدس النقلة الأولى ، والمجسطى إلى اللغة العربية [٣] ووسع فى دائرة الترجمة[٤] . إنها بصمات واضحة ، تركها الرشيد على عصره ، لتكون شاهدة على هذه الحقبة الزمنية التى جمعت تلك الكوكبة من العلماء ، والتى جاءت نتيجة لتشجيعه للحركة العلمية ، وفهمه لحق الرعاية النبيل للعلم والعلماء ، ففتح بابه على مصرعيه أمام كل عالم متفرد ، ليأخذ هبته ، وينتفع هو من علمه ، ولتدار داخل جنبات قصره مناقشات ومحاورات فى مختلف فروع المعرفة. حتى أثريت الحياة الثقافية والعلمية بصورة جعلت بعض الكتاب يشبه عهده من حيث العلم والحضارة والمعرفة بعصر لويس الرابع عشر فى أوربا [٥] .

---

(١) السابق ٢٩٤ .

(٢) المعارف ٩ .

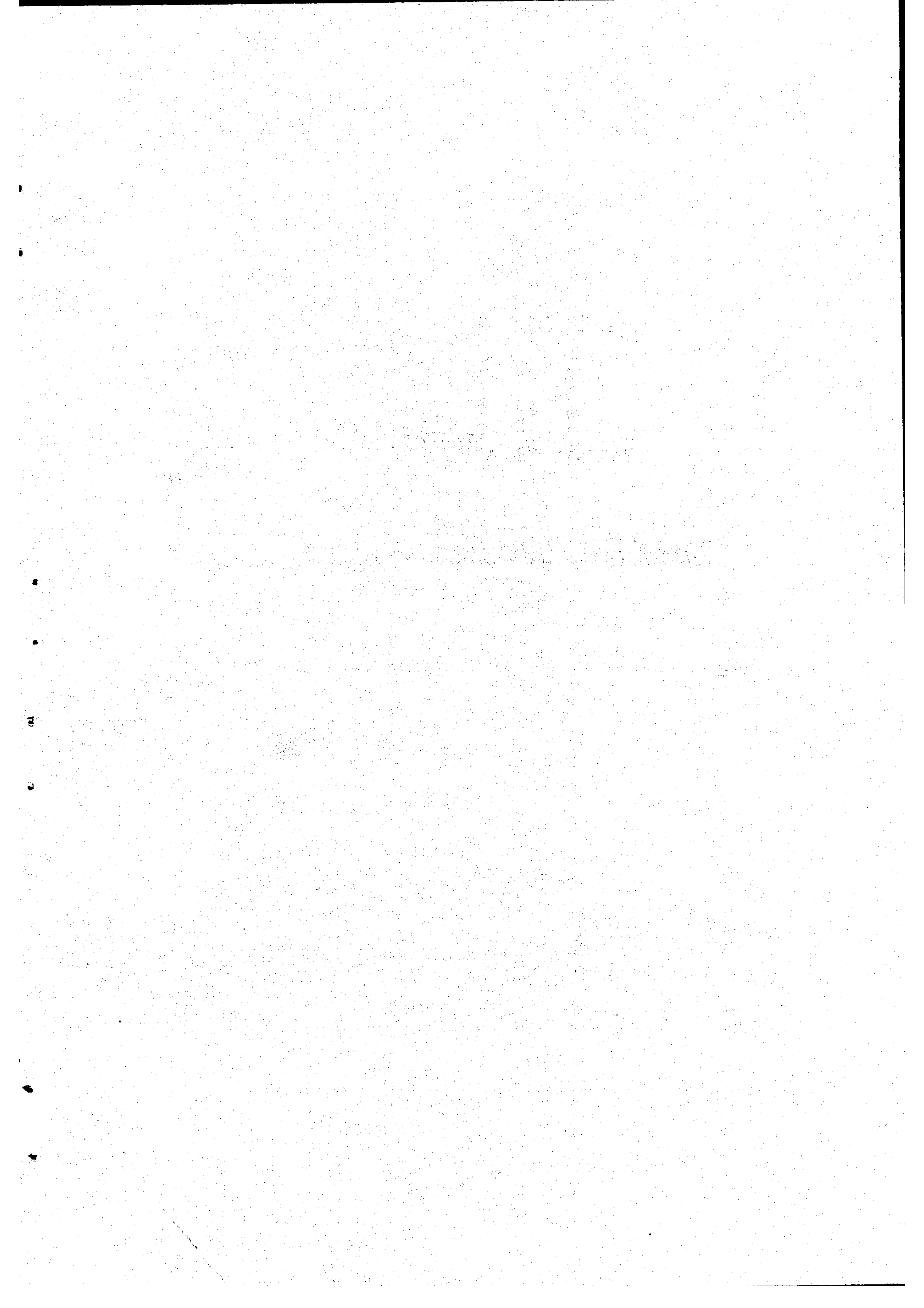
(٣) تاريخ التمدن الإسلامى ١٤١/٣ .

(٤) مختصر تاريخ العرب ٢١٦ .

(٥) هرون الرشيد لعمر أبو النصر ٨٧ .

الفصل الرابع

صورة الرشيد الدينية



أولاً : الرشيد حاكماً دينيـاً :

كـانت الشـورى هـى المقيـاس الأول الـذى وضعـه الإسـلام لاختيـار حـاكم الأمـة الإسـلامية ، وعلـى الرغـم مـن أن ﷺ قـد اعـترف ضمنـا قبـل وفاتـه بـأن أبـا بكـر ولى الأمـر مـن بعـده إلا أن جماعـة المسـلمين أخـذت طريقهـا إلى السـقيفة لاختيـار حـاكمهم الجديـد ، وإن رجـع الأمـر بعـد ذلـك إلى مـا اختـار النبـى ﷺ .

وبعد انتقـال أبـى بكـر إلى ربـه ، وقـع اختيـار النـاس على عمـر ، حيـث كان الصـاحب الثـانى المشـار إليـه بالخلافـة ، علـى أنـه تـرك الأمـر مـن بعـده بـين ستة يختار الحاكم من بينهـم ، ولكـى لا تحـدث فتنـة جعـل الأمـر فـى يـد ابنـه فـى اختيـار واحـد منهـم عنـد انتهـاء المـدة المحـددة - واقيـاً بذلـك المسـلمين مـن خطـر داهيـة ، لا يعلـم الله بدايتهـا ونهايتهـا - إلا أنهـم أجمعـوا فيمـا بينهـم علـى توليـة عثمـان خليفـة للمسـلمين .

وبمقتـل عثمـان ينصـب علـى نفسـه خليفـة للمسـلمين حقنـاً للدمـاء ، وبناء على طلـب الأغلبيـة العظمـى منهـم ، معلنـاً عزلـه لكـل مـن ولى عثمـان مـن أقربائـه ، إلا أن معاويـة - ولى الشـام فـى ذلـك الوقـت - ، رفـض الإذعـان لأمـر الخليفـة ، فأشـعل بذلـك نـار حـرب متبادلـة بينهمـا ، استخدم فيهـا معاويـة سـلاحى المكـر والمفاجـأة اللذيـن أودا بحيـاة رابـع الخلفـاء الراشـدين ، لينهـى بذلـك آخـر مـا عهـد النـاس مـن اختيـار لحـاكمهم عـن رغبـة واقتنـاع ، ليبـدأ الحكـم فـى التحـول مـن الشـورى إلى الملـك ، حيـث اسـتأثر بنـو أميـة بحكـم المسـلمين وراثـة بعضهـم تلـو الآخـر ، مبتدعـين شـكلاً جديـداً للحكـم ، مـؤداه توليـة العهـد لأكـثر مـن واحـد ، الأمـر الـذى أعقبـه مزيـداً مـن الفـتن والاضطرابـات فـى جنبـات الدولـة ، أدى إلى تصدعهـا وانهيارهـا .

وببزوغ نجم العباسيين ، تظهر فلسفة جديدة للحكم ، تخالف ما سبق ، متأثرة بتغلغل العنصر الفارسى قلباً وقالباً داخل المجتمع الجديد حيث نشر الفرس أفكارهم وقيمهم وعاداتهم بصورة واسعة [١] .

ومن بعض صور هذا التأثر ما جاءت عليه صورة الحاكم العباسى من الناحية الدينية مطابقة لنظرية كان يعتقد بها ملوك الفرس السابقون ، تسمى " نظرية الحق الإلهى المقدس " أو " الحق الملكى المقدس " [٢] وفلسفة هذه النظرية تكمن فى أن الله يفوض مجموعة من الناس ولاية أمر العامة ، ولا يحق لأحد غيرهم أن ينالوا شرف هذه الدرجة ، ومن حقهم توارث الحكم ، الذى هو حق مكتسب لهم والذود عنه بكل مرتخص وغال .

فالخليفة هو اختيار الله للأمة فوضه هذا الأمر ، وجعله القيم عليه ، وإذا كان الرشيد واحداً من أفراد أسرة مختارة مفوضة من قبل الله ، فقد حكم دينياً انطلاقاً من هذا المفهوم ، وصاغه معنى فى خطاباته لعماله ، يقول فى أحد كتبه التى أرسلها إلى واحد منهم مضمناً إياها اعترافا صريحاً بهذه الصورة ، التى وعاها وآمن بها كغيره من خلفاء بنى العباس " إن الله

---

(١) حكى الصولى قال : " حدثنا على بن الصباح قال : سمعت الحسن بن رجاء يقول : ناظر فارسى عربياً بين يدى يحيى بن خالد البرمكى فقال الفارسى : ما احتجنا إليكم قط فى عمل ولا تسميته ، ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا فى أعمالكم ولا لغتكم ، حتى طبيخكم وأشربتكم ودواوينكم وما فيها على ما سمينا ، ما غيرتموه كالإسفيداج والسكباج والدوغباج ، وأمثاله كثيرة ، وكالسكنجين والخلنجين والجلاب وأمثاله كثيرة وكالروزنامج والاسكدار والفراونك وإن كان روميا ! ومثله كثير - فسكت عنه العربى . فقال له يحيى بن خالد قل له : اصبر لنا نملك كما ملكتم ألف سنة ، بعد ألف سنة كانت قبلها لا نحتاج إليكم ولا إلى شئ كان لكم".

(٢) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ٢/٢٥٣ - ٢٥٤ .

ولى أمير المؤمنين وولى ما ولاه ، والحافظ على ما استرعاه وأكرمه به من خلافته وسلطانه والضامن له فيما قدم وأخر من أموره " [١] .

بهذه العبارات القصيرة الوجيزة المعبرة ، عرض الرشيد لفلسفة حكمه ومصدره ، فالله هو الأول والأخير فى كل ما يمت بصلة بأمر من أمور الخلافة ، سواء من حيث اختياره كحاكم ، أو تولية الولاة ، أو ضمان سير شئون الدولة ، مما يضفى على حكمه جلالاً دينياً وهيبة .

وإذا كانت هذه نظرة العباسيين للحكم ، فقد استوعبها الشعراء زمن الرشيد ، جاءت صورته عبر شعرهم كحاكم دينى ، تتماشى مع ما ترمى إليه هذه النظرة ، يقول عبد الملك بن صالح فى تولية الرشيد الحكم بالاصطفاء .

ا لله قلد هاروناً سياسته   لما اصطفاه فأحيا الدين والسننا [٢]

ومن منطلق هذا الاصطفاء ، تصور الشعراء أن يكون ا لله حافظاً وأنيساً لمن اصطفاه أينما كان ، وهذا ما نظمه أبو نواس عندما توجه بالخطاب إليه قائلاً وموضحاً هذه النظرة :

يا أمين الإله يكلؤك اللـ   ـه مقيما ، وظاعنا حيث سرتا

إنما الأرض كلها لك دار   فلك ا لله صاحب حيث كنتا [٣]

ويظهر أبو العتاهية مدى عناية السماء بالرشيد قائلاً :

---

(١) تاريخ الطبرى ٦٦٣/٣ .

(٢) تاريخ الخلفاء ٢٩٠ .

(٣) ديوان أبى نواس ١٣٠ .

أمـين الله أمنـك خـير أمـن　　　عليـك مـن التقى فيه لبـاس

تساس من السماء بكل فضـل　　　وأنت به تسـوس كما تسـاس [١]

ولقد أيقن الشعراء أن أمر تنصيب هارون كحاكم للأمة الإسلامية إنما كان منذ سالف الأزمان ، فاختياره ليس وليداً ، وإنما كان منذ عهد متقدم ، قال له مروان بن أبى حفصة ، فى أحقية حكمه وأخيه موسى :

موسـى وهارون هـما اللذان　　　فى كتـب الأخبـار يوجـدان [٢]

وإذا كان هم الحق منذ البداية ، فمن الطبعى أن يستمر هم حتى يرث الله الأرض ، لأنهم الأسرة المفوضة المختارة ، التى لايحق لأحد غيرها اعتلاء مناصب الإمارة ، يقول فى ذلك يزيد مؤكدا له استمرارية الخلافة فى نسله إلى تقوم الساعة :

خلافـة الله فى هرون ثابتـة　　　وفى بنيه إلى أن ينفخ الصـور [٣]

ويؤكد أبو العتاهية المعنى نفسه ببيت آخر قائلاً :

قضى الله أن يبقى لهرون ملكـه　　　وكان قضاء الله فى الخلق مقضيا [٤]

وإذا كان الرشيد قد حكم بأمر السماء مصطفياً على غرار نسله من الأسرة الحاكمة ، فلم ينس الشعراء أن يسندوا إليه ميراث النبى فى الخلافة كقول مروان :

أمـور بميراث النبى وليتـها　　　فأنت لها بالحزم طاو وناشـر

---

(١) الكامل فى اللغة والأدب ١١٣/٢ ، الأغانى ١٥٢/٣ .

(٢) شعر مروان بن أبى حفصة . تحقيق . د. حسين عطوان ١١٠ .

(٣) المستطرف فى كل فن مستظرف ١٩١/١ .

(٤) الأغانى ٤٥/١٧ .

إليكم تناهت فاستقرت وإنما إلى أهله صارت بهن المصاير

أبوك ولى المصطفى دون هاشم وإن رغمت من حاسديك المناخر(١)

ويجعل الموصلى من حركات الرشيد وسكناته وصورته فى الحكم ، نموذجاً ثانياً لحاكم مثالى يقتدى بالرسول ناظماً :

تبعت من الرسول سبيل حق فشأنك فى الأمور به اقتداء(٢)

ويصف محمد اليزيدى ما فى الرشيد من صدق وبر على شاكلة النبى :

ومن له إرث بنى الهدى بالحق لا يدفع عن حقه

ينسب فى الهدى إلى هديه براً وفى الصدق إلى صدقه(٣)

ويضعه أبان بن عبد الحميد فى المرتبة الثالثة بعد الله ونبيه كتسلسل طبيعى لولى أمر الأمة ، معترفا بعدله وتفرده فى هذه السمة قائلاً :

أشهد أن لا إله إلا إلهنا الخالق الكبير

محمد عبده رسول جاء بحق عليه نور

وإن هارون خير وال فى العدل ما إن له نظير(٤)

ويظهر على بن خليل ما للرشيد من طهارة نفس عبر قوله :

خير البرية أنت كلهم فى يومك الغادى وفى أمس

وكذاك لن تنفك خيرهم تمسى وتصبح فوق ما تمسى

لله ما هرون من ملك بر السريرة طاهر النفس

---

(١) شعر مروان بن أبى حفصة ٥٣ - ٥٤ ، تاريخ الطبرى ٣٤٨/٨ .

(٢) الأغانى ٢٣/٥ .

(٣) نفسه ٧٩/١٨ .

(٤) الأوراق للصولى ٣٨ .

مـــلك عليـــه لربـــه نعـــم ... تزداد جدتـــها عـــلى اللبـــس[١]

ويصـف النمـرى طاعـة الرشيـد لله فيقـول :

بـــورك هـــارون مـــن إمـــام ... بطاعـــة الله ذى اعتصـــــام[٢]

ويوضح سلم الخاسر مـا للرشيد مـن سـداد رأى ورحمـة وتقـى ، فيقـول :

إمـــام لـــه رأى حميد ورحمـــة ... مـــوارده محمـــودة ومصـــادره

هو الملك المجبول نفساً على التقى ... مسلمـــة من كل سوء عســـاكره[٣]

ولقد ركـز الشـعراء علـى جـانب التقـوى عنـد الرشـيد بصـورة اكـبر مـن غيرهـا ، ويبـدو أنـه كـان ملمحـاً واضحـاً فـى شخصيته ، حيـث ظهـر فـى شـعر معظـم الشعراء ، قال أبو نواس فـى ذلـك واصفـاً الرشيد ومـا عليـه مـن تقـوى مادحـاً :

ابن مـــن لو يـــوزن النـــاس به ... فى التـــقى والبر طاشوا ورجـــح[٤]

ويقول أيضـاً أبـو العتاهيـة :

وأنـــت أمـــير المؤمنـــين فتى التقى ... نشرت من الإحسان ما كان مطويا[٥]

ويكرر أبو نـواس السـمة نفسـها قـائلاً :

لقـــد اتقيـــت الله حـــق تقاتـــه ... وجهدت نفسك فوق جهد المتقى[٦]

ويضيف النمرى إليهـا البـر مـع إظهـار براعـة الرشـيد العسـكرية :

---

(١) الأغانى ١٤/١٣ - زهر الآداب ٩١٠/٤ .

(٢) الشعر والشعراء ٨٦١/٢ .

(٣) شعراء عباسيون ٢٥ .

(٤) الأغانى ١٧٢/٦ .

(٥) نفسه ٤٥/١٧ .

(٦) الموشح ٤١٥ .

هو الملك المأمول للبر والتقى وصولاته لا يستطاع خطارها[١]

وإلى جانب هذه الصفة ، وردت له صفات أخرى فى شعر الشعراء ، جاءت مكملة فى تصورهم لصورة الخليفة المصطفى ، ومن هذه الصفات الخوف من الله كقول أبى نواس :

إمام يخاف الله حتى كأنه يؤمل رؤياه صباح مساء[٢]

ومنها الزهد فى الدنيا كقول أبى العتاهية :

تجافى عن الدنيا وأيقن أنها مفارقة ليست بدار خلود[٣]

ثم هو فى النهاية منهاجه القرآن فى كل الأمور كقول النمرى :

جعل القرآن إمامه ودليله لما تخيره القرآن ذماما[٤]

ولقد جعل الشعراء من الرشيد ، لم له من صفات دينية متعددة ، وما عليه من اصطفاء فى الاختيار ، حامى الدين المنوط به الدفاع عنه بكل ما يمتلك يقول له أبو نواس :

براك الله للإسلام عزاً وحصنا دون بيضته حصينا[٥]

ويصور أبو العتاهية موقف الرشيد من الإسلام فى وقت كرب ونكبة ألمت بالأمة الإسلامية قائلاً :

---

(١) تاريخ الطبرى ٢٦٣/٨ .

(٢) ديوان أبى نواس ٦٣ ، تاريخ الطبرى ٣١٦/٨ ، المحاسن والمساوئ ٣٨٤/١ .

(٣) الأغانى ١٧٢/٣ .

(٤) تاريخ الخلفاء ٢٩٤ .

(٥) ديوان أبى نواس ١٠٦ .

إذا نكب الإسلام يوما بنكبة   فهارون من بين البرية ثائرْ [١]

ويكرر النمرى المعنى نفسه قائلاً :

ما استودع الدين من إمام   حامي عليه كما تحامى [٢]

ويجمع العتابى أمور الدين فى يديه فيقول :

إمام له كف يضم بنانها   عصا الدين ممنوعاً من البر عودها [٣]

ويضيف أيضاً أبو العتاهية مصورا موقفه فى الحفاظ على الأمة من الخطر :

وراع يراعى الله فى حفظ أمة   يدافع عنها الشر غير رقود [٤]

ويوضح العتابى سير الرشيد فى الأمة وموقفه منها قائلاً :

رعى أمة الإسلام فهو إمامنا   وأدى إليها الحق فهو أمينها

مقيم بمستن الفلا حيث تلتقى   طوارق أبكار الخطوب وعونها [٥]

ولقد وصل الشعراء بصورة الرشيد الدينية إلى درجة كبيرة تفوق الوصف ، حيث أضفت أبياتهم عليه مهابة دينية وقدسية ، جعلت من غضبه غضب الله ، ومن عصيانه عصياناً لله ، ومن رضاه نفعاً للجميع ، وأن الطاعة له واجبة ، وهذا يسير جنبا إلى جنب مع نظرية الحكم التى عرضنا لها ، فطبيعة الاختيار وسنة الاصطفاء هذه قد تعمقت فى نفوسهم بصورة قوية فاخرجت لنا هذه التصورات ، يقول النمرى فى ذلك موضحاً العلاقة بين غضب الرشيد وغضب الله :

---

(١) الأغانى ١٢٨/٣ .

(٢) الشعر والشعراء ٨٦١/٢ .

(٣) البيان والتبيين ١٧٦/٣ ، ثمار القلوب ١٦٧ ، زهر الآداب ٦٧٧/٣ .

(٤) الأغانى ١٧٢/٣ .

(٥) زهر الآداب ٦٧٨/٣ .

أى امرئ بات من هارون فى سخط   فليس بالصلوات الخمس ينتفع

إذا رفعت أمرأً فالله رافعه   ومن وضعت من الأقوام متضع[١]

ويقول له أيضاً :

هارون يا خير من يرجى   لم يطع الله من عصاكا

فى خير دين وخير دنيا   من اتقى الله واتقاكا[٢]

ويؤكده أبو العتاهية فى قوله :

إذا ما سخطت الشئ كان مسخطا   وإن ترض شيئاً كان فى الناس مرضيا[٣]

ويضعه أبو العتاهية فى مرتبة أعلى من الناس قائلاً :

لو علم الناس كيف أنت لهم   مات إذا ألمت أجمعهمْ

خليفة الله أن ترجح بالنا   س إذا ما وزنت أنت وهمْ

قد علم الناس أن وجهك يسـ   ـتغنى إذا ما رآه معدمهمْ[٤]

ويرفعه أيضاً إلى مرتبة تصل إلى درجة النبى ﷺ حيث هو عند ورود الحوض العظيم يوم الساعة ، يسقى إذا ما حل بالناس الحساب ، فيقول :

وهارون ماء المزن يشفى من الصدى   إذا ما الصدى بالريق غصت حناجره[٥]

وينص أبو محمد اليزيدى على وجوب طاعة الرشيد بأمر من الوحى قائلاً :

ومن له الطاعة مفروضة   لائحة بالوحى فى رقه[٦]

---

(١) تاريخ بغداد ٦٨/١٣ ، الأغانى ١٩/١٢ .

(٢) الأغانى ٢٠/١٢ .

(٣) نفسه ٤٤/١٧ .

(٤) الأنوار الزاهية ٣١٦ ، الأغانى ١٢٧/٣ .

(٥) نفسه ٣١٢ .

(٦) الأغانى ٧٩/١٨ .

ويصوره العمانى الراجز واقفاً عند الحوض والسقيا فى يوم المشهد العظيم قائلاً :

ويا ابن أشياخ الحطيم التلدْ   القائمين الليل بعد الرقدْ

لله يرجون جنان الخلدْ   أنت الذى عند اصطكاك الوردْ[1]

وفذلكة القول ، إن الرشيد كحاكم دينى فى عرف الشعراء لم يفرض نفسه على الأمة ، وإنما جاء مختاراً من قبل الله - سبحانه وتعالى- .

وبولايته الأمر جعل من الرسول قدوته ونبراسه ، يضئ له الطريق ليحكم كما حكم ، على أنه توافرت فيه شروط الحاكم الدينى ، الذى يصلح لحكم الأمة مثل اتصافه بالتقوى وحب الخير ، والخوف من الله وطاعته مع العمل بكتابه فارتفع بذلك إلى درجة دينية عالية ، جعلت من غضبه غضب الله ، وكأنه قد كشفت له حجب الغيب .

والرشيد على هذه الصورة التى أوردها له الشعراء ، قد وصل إلى درجة تقترب من الأنبياء ، بل أكثر من ذلك ، فقد دخل حتى فى الصلاة التى هى صلة بين العبد وربه ، بل جعلها غير صالحة لمن غضب عليه ، وجعل من عصيانه عصيان الله ، ثم وقوفه يوم المشهد العظيم والسقيا يقترب به إلى صورة الرسول كما نزلت فى القرآن .

على أن كل هذه الأمور تعزى بالقول بأن شخصية الرشيد كحاكم دينى فى نظر الشعراء ، جاءت على صورة تكاد تبتعد به عن عالم الواقع ، ففيها كثير من المبالغات ، حتى إن الشعراء عدُّوه أفضل الناس جميعا ، كما

---

(١) طبقات الشعراء ١١١ - ١١٢ .

قيل على لسان أبي نواس ، الذى أيقن فى النهاية خطورة الإقدام على مثل هذا الوصف ، الذى يؤدى به إلى الكفر فاستثنى الرسول وجعله فى مرتبة أعلى ، عندما مدحه وكان ولى عهد قائلاً :

ولى عهد ما له قرين ولا له شبه ولا خدين

استغفر الله بلى هارون يا خير من كان ومن يكون

إلا النبى الطاهر الميمون(١)

---

(١) الموشح ٤١٢ .

ثانياً : صور إسلامية فى حياته :

إذا حاولنا أن ننحى جانبا مبالغات الصورة السابقة فى وصف الرشيد ، كحاكم دينى فى عرف الشعراء ، وعرضنا لوجه مقابل للصورة الأولى ، نجد أن معظم الروايات التاريخية والصور الأدبية قد أعطت لنا مناحى إسلامية متعددة فى حياة الرشيد ، متفقة فيما بينها على ما فيه من صلاح وبحث عن الهدى الدينى والاقتراب من الله ، وهذه سمات واضحة فى شخصيته ، سواء من حيث الشكل أو المضمون ، فقد نقش على خاتمه " العظمة والقدرة لله " [١] ، بينما صدر كتبه ومراسلاته بالصلاة على الرسول ، متفردا بذلك من بين الخلفاء فى التفكير فى مثل هذا الصنيع [٢] .

وقد كان كثير الحفظ للقرآن والحديث ، يستلهم منهما مادته فى خطبه الإسلامية كحاكم دينى ، كتلك التى ضمنها استشهادات متعددة من القرآن والحديث منطلقا بذلك من موروث ثقافى دينى لديه ، حيث يقول : " الحمد لله نحمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ، ونؤمن به حقاً ، ونتوكل عليه مفوضين إليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بعثه الله على فترة من الرسل ، ودروس من العلم ، وإدبار من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، بشيرا بالنعيم المقيم ، ونذيراً بين يدى عذاب أليم ، فبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وجاهد فى الله ، فأدى عن الله وعده ووعيده حتى أتاه اليقين ، فعلى النبى من الله صلاة ورحمة وسلام .

---

(١) صبح الأعشى ٣٥٤/٦ .

(٢) الكامل فى التاريخ ١٥٩/٦ ، صبح الأعشى ٤٢٢/١ .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن في التقوى تكفير السيئات وتضعيف الحسنات ، وفوزاً بالجنة ، ونجاة من النار ، وأحذركم يوما تشخص فيه الأبصار وتعلن فيه الأسرار ، يوم البعث ، ويوم التغابن ، ويوم التلاق ، ويوم التناد ، يوم لا يستعتب من سيئة ، ولا يزداد من حسنة ، يوم الآزفة ، إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون . عباد الله : إنكم لم تخلقوا عبثا ، ولن تتركوا سدى ، حصنوا إيمانكم بالأمانة ، ودينكم بالورع ، وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء في الخبر أن النبي ﷺ قال : " لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، ولا صلاة لمن لا زكاة له " إنكم سفر مجتازون ، وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالأمانة ، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين ، وهداه للمنيبين ، قال الله عز وجل وقوله الحق : " ورحمتي وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، وقال : " وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى " وإياكم والأماني ، فقد غرت وأردت وأوبقت كثيرًا ، حتى أكذبتهم مناياهم فتنا ، وشهوا التوبة من مكان بعيد ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، فأخبركم ربكم عن المثلات فيهم ، وصرف الآيات ؟ وضرب الأمثال ، فرغب بالوعد ، وقدم إليكم الوعيد ، وقد رأيتم وقائعهم بالقرون الخوالى جيلا فجيلا ، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر ، باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ، ومن بين أظهركم ، لا تدفعون عنهم ، ولا تحولون دونهم ، فزالت عنهم الدنيا ، وانقطعت بهم الأسباب ، فأسلمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب " ليجزى الذين أساءوا بما

عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى " ، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ، يقول الله عز وجل " وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون " ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، آمركم بما أمركم الله به ، وأنهاكم عما نهاكم عنه ، وأستغفر الله لى ولكم . "(١)

وإذا كان هذا النص يمثل مدى تمكن الرشيد من أسلوبه فى خطبته الدينية ، وسيره على نهجها الصحيح ، فإنه يمثل أيضاً مدى حفظه للقرآن والحديث ، وتوظيفهما فى مكانيهما الصحيحين ، من أجل الهدى والصلاح.

وإذا كان حفظ القرآن والحديث يمثلان صورة من صور إسلامية متعددة فى حياة الرشيد ، فلقد جاءت الموعظة وطلبها صورة أخرى تقف بجانب سابقتها .فطلب الموعظة عنده ملمح بارز إزاء درسنا للجانب الدينى لشخصيته ، فما من عابد ولا زاهد سمع عنه إلا زاره أو استزاره يطلب منه العظة والنصح لتنتهى الجلسة بينهما ببكاء الرشيد ، فالبكاء كان هو القاسم المشترك فى معظم جلسات الرشيد عند الموعظة ، حتى أصبح علماً عليه ، قال عنه يحيى بن أيوب العابد عن سماعه من منصور بن عمار " ما رأيت أغزر دمعاً عند الذكر من ثلاثة فضيل بن عياض ، وأبو عبد الرحمن الزاهد وهارون الرشيد " (٢) .

---

(١) العقد الفريد : ٤/١٦٥ - ١٦٦ ، جمهرة خطب العرب ٣/٨٠ - ٨٢ .

(٢) تاريخ بغداد ١٤/٨ .

ومن أجل الموعظة كان يتكبد مشقة كبيرة ، وبخاصة عند سماعه عن رجل عرف بالتقى والصلاح ، على حين يقطن مكاناً بعيداً فيرحل إليه ولا يجد في ذلك غضاضة ، بلغه أمر عابد مجاب الدعوة بمكة عند جبل تهامة ، فأتاه يطلب منه الموعظة [١] .

وعرف بعض ما يتصف به الفضيل بن العياض من عبادة وعلم وورع فاشتهى النظر إليه ، وتاقت نفسه إلى رؤيته ومحادثته ، فأعد الرحلة واتجه قاصداً الحجاز بصحبة محمد بن السماك الواعظ ، وعندما جلس بين يديه قال له الفضيل " هذا الوجه الجميل يسأل غداً عن أمة محمد ويؤاخذ بها ، لئن كان العفو والغفران يسعك مع ما أنت فيه ، إن هذا لهو الفضل المبين ... ثم جعل يعظه ويخوفه حتى بكى هارون بكاء شديداً [٢] . ومنذ هذه اللحظة لم تنقطع الصلة بين الرشيد وبين الفضيل بعد ذلك ، فقد كان يجله ويقدر فيه تقواه وصلاحه ، فظل على اتصال به ، يطلب منه الموعظة كما تاقت نفسه إلى ذلك وأعيته السبل في بعض المواضع ، فأحياناً كانت أعباء الخلافة وثقلها تشغل باله ، وغالبا ما كانت تؤرقه فيهيم على وجهه ، آخذا طريقه أهل الهدى ، طالبا منهم الوصول إلى رد فيصل ، يشفي غليل نفسه القلقة ، ولطالما وجد ضالته المنشودة عند الفضيل ، كالذي حاك في نفسه في إحدى المرات بشأن تبعة الخلافة ، ولم يستطع كل من سفيان بن عيينة وعبد الرازق بن همام أن يعطيا له جواباً شافياً ، فإذا به أمام الفضيل بن عياض ، الذي استطاع أن يضع يده على حقائق الأمور ، ضارباً له المثل بالخلافة وتبعتها بحديث دار بين عمر بن عبد العزيز وبعض من الصحب

---

(١) العقد الفريد ١٠٥/٣ .

(٢) الإمامة والسياسة ١٥٧/٢ ، محاضرات الأدباء ٥٣٠/٢ .

قائلاً " إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب القرطبى ، ورجاء بن حيوة ، فقال لهم : إنى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على ، فعد الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة ، فقال له سالم بن عبد الله إن أردت النجاة من عذاب الله فصم الدنيا وليكن إفطارك منها الموت ؛ وقال له محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً ، وأوسطهم أخا ، وأصغرهم عندك ولداً فوقر أباك ، وأكرم أخاك ، وتحنن على ولدك ، وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة من عذاب الله تعالى فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت إذا شئت ، وإنى أقول لك بأنى أخاف عليك أشد الخوف يوم تزل فيه الأقدام ، فهل معك - رحمك الله - مثل هذا ، أو من يشير عليك بمثل هذا " [١]

عند هذه النقطة بدأ الرشيد فى البكاء وبشدة ، فالأمور بدأت تتضح ، والصورة قد اقتربت ملامحها وارتسمت أمامه ، فما كان يخشاه أصبح مجسدا ومتمثلاً على لسان واحد عرف عنه التقى والورع ، ألا وهو عمر بن عبد العزيز الذى خشى الخلافة مخافة البعد عن العدل ، بينما جاء العدل عند رفيقيه فى صورة البعد عن الدنيا والزهد فيها ، ومعاملة المسلمين على اختلاف طبقاتهم وأعمارهم بالحسنى واللين .

وإذا كان الرشيد قد ذهب إلى الفضيل سعياً من أجل الموعظة فقد كان يفعل الشئ نفسه مع ابن السماك الواعظ ، الذى كان على درجة الفضيل ومرتبته عنده ، وغالباً ما كانت عظات ابن السماك للرشيد تجمع

---

(١) الذهب المسبوك ٥٣ - ٥٥ ، محاضرات الأبرار ١/١٣٥ - ١٣٧ ، المستطرف ١/٧٩ - ٨١ .

بين الاستنباطات الحية المستمدة من الواقع ، وتهدف إلى إحداث تأثير مباشر في نفسه ، كقوله له عندما كان يشرب جرعة من ماء " لو منعت هذه الشربة ، بكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي ، قال : اشرب هنأك الله تعالى ، فلما شربها قال : أسألك لو منعت خروجها من بدنك ، بماذا كنت تشتري خروجها؟ قال : بجميع ملكي ، قال : إن ملكاً قيمته شربة ماء وبولة لجدير أن لا ينافس فيه ، فبكى هارون بكاء شديداً [١] .

يستنبط من هذه العظة أن ابن السماك يحقر من قيمة الملك وصولجانه أمام الرشيد ، وكأنه قصد من ذلك التحقير أن يسعى جاهداً إلى عدم التمسك به وأن يعمل على صلاح الأمة دون النظر إلى نفسه ، وبذلك كان يصل من أقصر الطرق إلى وعظ الخليفة بطريقة مباشرة ، ولعل هذا هو السر في طلب الرشيد المتكرر للوعظ ، فربما عظمة ملكه واتساعه كانا وراء الكثير من همومه ، فسعى إلى إحداث توافق نفسي لديه عبر سماعه للعظات المتكررة .

وأحياناً كان ابن السماك يستمد عظته من القرآن [٢] ، كأسلوب ثان للوصول إلى وعظ الرشيد ، وربما حثه على تقوى الله ، فيبكي حتى تخضل لحيته[٣] .ولقد بلغ ابن السماك مبلغاً كبيراً عند الرشيد ، لأنه استطاع أن يجد له تفسيراً ليمين حلفها بأنه من أهل الجنة ، على حين تعسر على العلماء الإدلاء برأي في هذا الموضوع ، بينما أزال قلقه عندما قال له " هل

---

(١) تاريخ الطبري ٣٥٧/٨ ، العقد الفريد ٩٨/٣ ، الكامل في التاريخ ٢١٩/٦ ، جمهرة خطب العرب ٩٧/٣ ، تاريخ الخلفاء ٢٩٣ .

(٢) راجع في ذلك ما جاء في العقد الفريد ٨٥/٣ ، ٩٨/٣ .

(٣) راجع في ذلك ما جاء في تاريخ الطبري ٣٥٧/٨ .

قدر أمير المؤمنين على معصية فتركها خوفاً من الله تعالى ، فقال نعم ، كان لبعض إلزامى جارية فهويتها وأنا إذ ذاك شاب ، ثم إنى ظفرت بها مرة ، وعزمت على ارتكاب الفاحشة معها ، ثم إنى فكرت فى النار وهولها ، وأن الزنا من الكبائر ، فأشفقت من ذلك ، وكففت عن الجارية مخافة الله ، فقال له ابن السماك : أبشر يا أمير المؤمنين فإنك من أهل الجنة ، فقال هارون : ومن أين لك هذا ؟ فقال من قوله تعالى : " وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى " فسر هارون بذلك " [١] .

ولم يكتف الرشيد بمجرد سماع الموعظة ، فأحياناً كان يسجلها لقيمتها وموقعها من نفسه وشدة تأثيرها عليه ، كأمره بكتابة ما قاله أبو بكر بن عياش له فى جلسة وعظ عندما حدثه قائلاً " يا أمير المؤمنين ، حدثنا هشام بن حسان عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ " إن الله فاتح عليكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمال ذلك الزمان فى النار إلا من اتقى ، وأدى الأمانة " فانتفض " وتغير ، وقال : يا مسرور : اكتب ، ثم سكت ساعة ، وقال : يا أبا بكر ألا تحدثنى ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، حدثنا هشام بن حسان عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : أتدرى ما قال عمر بن الخطاب للهرواز ؟ قال : وما قال له ؟ قلت : قال له ما يمنعك من حب المال ؟ وأنت كافر القلب ، طويل الأمل ؟ قال : لأنى قد علمت أن الذى لى سوف يأتينى ، والذى أخلفه بعدى يكون وباله على ، ثم قال يا مسرور اكتب ويحك " [٢] .

---

(١) وفيات الأعيان ٣٠٢/٤ ، مراة الجنان ٣٩٣/١ ، شذور الذهب ٣٠٣/١ - ٣٠٤ .

(٢) معجم الأدباء ١٠٣/٧ - ١٠٥ .

وأحياناً أخرى كانت تستوقفه موعظة ، فيعكف عليها حتى يحفظها كما حدث عند رجوعه وفسيل الرومى من حرب هرقلة ، فإذا بفسيل يقف أمام جدار كتب عليه باليونانية " بسم الله الملك الحق المبين . ابن آدم اغتنم الفرصة عند إمكانها ، وكل الأمور إلى وليها ، ولا تحمل على قلبك هم يوم ولم يأت بعد ، إن يكن من أجلك يأتك الله برزقك فيه ، ولا تجعل سعيك فى طلب المال أسوة المغرورين ، فرب جامع لبعل حليلته ، واعلم أن تقتير المرء على نفسه هو توفير منه على غيره ، فالسعيد من اتعظ بهذه الكلمات ولم يضيعها "(١) .

فأحس الرشيد بقيمة الكلمات المكتوبة ، فطلب من فسيل أن يعيد قراءتها ، فظل على هذه الحالة حتى حفظها بجانبه .

وإذا حاولنا أن ندقق فى النماذج السابقة التى وردت للوعاظ مع الرشيد ، نجد أن بعضاً منها قد حاول أن يرسم سياسة الدولة من خلال العظة ، وهذا ما حدث فى اللقاء الأول ، الذى جمع بين الإمام الشافعى وبين الرشيد عندما طلب منه النصح والإرشاد فذكره بالآخرة حتى بكى وارتجف ، فإذا به يطلب منه معرفة الخلاص من عذاب الآخرة ، فكشف له سبل هذا الخلاص قائلاً " أن تتفقد حرم الله ورسوله بالعمارة ، وتؤمن السبل ، وتنظر فى أمر الأمة ، وتعطى أولاد المهاجرين والأنصار حقهم من الفيئ لئلا تزعجهم الحاجة عن أوطانهم ، وتنظر إلى العامة والثغور ، وتبذل العدل والنصفة ، وتتخذ أهل العلم دثارا وأهل الورع شعاراً ، وتشاورهم فيما ينوب ، وتقضى فى أهل البيت من يريد لك قطع ما أمر الله به أن

---

(١) العقد الفريد ٣/١٤٥ - ١٤٦ .

يوصل " (١) . وهنا ربط واضح بين الوعظ والسياسة ، فلقد أوضح الشافعي أن خلاص الرشيد من العذاب ، إنما يأتي عن طريق رعاية الأمة ، والسير فيها بالعدل والإنصاف وأخذ مشورة أهل العلم والورع عند اشتداد الأمر .

وعلى منوال الصورة الأولى تأتي عظة شيبان الراعي للرشيد من خلال قوله له : " اتق الله فإنك رجل مسئول عن هذه الأمة ، استرعاك الله عليها ، وقلدك أمورها ، وأنت مسئول عنها ، فاعدل في الرعية واقسم بالسوية وانفر في السرية " (٢) . ويذكره العمري المحدث بأهمية حرصه على مال المسلمين قائلاً " والله إن الرجل يسرف في ماله فيستحق الحجر عليه ، فكيف من يسرف في أموال المسلمين " (٣) ويستوقفه بهلول عند دخوله الكوفة وخروج الناس لاستقباله واعظاً له ، قائلاً في ثواب العدل في السلطان : " أيما رجل أتاه الله مالاً وجمالاً وسلطاناً فأنفق من ماله وعف في جماله وعدل في سلطانه كتب في خالص ديوان الله من الأبرار " (٤) .

وإذا كان الزهَّاد والوعاظ وقفوا في جانب يمثلون نبراساً للرشيد ، يرسمون له سياسة حكم الأمة والخلاص من العذاب ، وقف الشعراء في الجانب المقابل يصوغون عبر أبياتهم مواعظ متعددة ، غلب عليها الحديث عن القبر وعذابه ، وربما جاءت هذه الأبيات عند الشعراء لإحداث تأثير

---

(١) مناقب الإمام الشافعي ٢٧ ، شذور الذهب ١/٣٣٦ .

(٢) محاضرة الأبرار ١/١٥٤ ، تاريخ الخلفاء ٢٩٤ .

(٣) مرآة الجنان ١/٣٦٧ ، شذور الذهب ١/٢٧٩ ، محاضرة الأبرار ١/٩٨ .

(٤) ذيل زهر الآداب ١٣٣ ، محاضرة الأبرار ١/٣١٥ ، الكشكول ٣١٦ .

عكسى فى نفس الرشيد ، فإذا كانت - كما قلنا من قبل - النهاية هى العذاب عند الموت ، فالخلاص هو الحكم بالعدل ، أنشده أبو العتاهية فى الموت وسهامه ، طالباً منه أن يعمل لهذا اليوم كما يوحيه مفهوم الأبيات :

لا تأمن الموت فى طرف ولا نفس إذا تسترت بالأبواب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدرع منا ومترس
ترجو النجاة ولا تسلك طريقتها إن السفينة لا تجرى على اليبس

فبكى الرشيد حتى بل كمه [(١)].

وينشده أيضاً النمرى فى الشباب وضياعه وما يتكبده الإنسان من حسرة بعده قائلاً :

ما تنقضى حسرة منى ولا جزع إلا ذكرت شبابا ليس يرتجع
ما كنت أوفى شبابى كنه غرته حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع

فبكى وكأنما أحس بخوفه من كونه ربما أضاع شبابه فى المعصية والبعد عن الله[(٢)] ويدخل أبو العتاهية عليه فوجده قد صنع طعاماً ، وزخرف مجلسه ، فأنشده فى زوال هذه المتع مذكراً إياه بالآخرة قائلاً:

عش ما بدا لك سالماً فى ظل شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيـ ـت لدى الرواح أو البكور
فإذا النفوس تقعقعت فى ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً ما كنت إلا فى غرور

فإذا به يحس بالذنب لإقدامه على اقتراف مثل هذا الصنيع ، شاكراً الشاعر على ما أظهره له متوجهاً إلى يحيى البرمكى قائلاً ومعقباً على الموقف " رآنا

---

(١) الأغانى ١٧٣/٣ .

(٢) خاص الخاص ٨٨ .

في عمي فكره أن يزيدنا منه " [١] . وأنشده سلمة الأحمر عندما دخل عليه ورأى قصوره :

أما بيوتك في الدنيا فواسعة   فليت قبرك بعد الموت يتسع [٢]

وأنشده أعرابي عند طوافه بالبيت :

عش كما بدا لك كم تراك تعيش   أتظن سهم الحادثات تطيش

عش كيف شئت لتأتينك وقفة   يوماً وليس على جناحك ريش

فبكى واستعاد الشعر مرات [٣] . ويطوف البلاد بحراقة له ، وكان يحب عند ركوبه غناء الملاحين ، فدس له أبو العتاهية هذه الأبيات ، لتغنى له وبين طياتها حديث عن زوال كل شئ ، ونهاية العالم والمتع قائلاً :

سيصير المرء يوماً   جسداً ما فيه روح

بين عيني كل حيٍّ   علم الموت يلوح

كلنا في غفلة والـ   ـموت يغدو ويروح

لبني الدنيا من الدنـ   ـيا غبوق وصبوح

رحن في الوشي وأصبحـ   ـن عليهن المسوح

فلما سمع الرشيد هذه الأبيات جعل يبكي وينتحب ، حتى إن الفضل وزيره عندما رأى كثرة بكائه أومأ إلى الملاحين بالسكوت [٤] .

وإذا كان الرشيد عبر الصور السابقة يطلب الموعظة بنفسه ، وبمحض إرادته ، سواء عن طريق السعي إلى الناسك المعروف عنه الورع

---

(١) الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية ٩٢ ، الكامل في التاريخ ٦/٢٢٠ ، الفخري ١٤٣ .

(٢) المخلاه ٢٨ .

(٣) محاضرات الأبرار ٢/٨٧ - ٨٨ .

(٤) الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية ٦٥ - ٦٦ ، الأغاني ٣/١٧١ - ١٧٢ .

والتقى أو استزارته صاحب علم وفضل ، وسماعه الموعظة كتابة أو حفظاً ، إلى غير ذلك ، فإنه مع ذلك كان يكره الموعظة التى تحمل بين طياتها غلظة أو الموعظة المباشرة الجافة ، بل كان يتخذ من صاحبها موقفاً يصل إلى حد التبكيت والتوبيخ ، استوقفه رجل من النساك عندما كان بالرقة بعد شخوصه من بغداد قائلاً له : " يا هرون اتق الله ... فقال : يا هذا ، أنصفنى فى المخاطبة والمسألة ، قال : ذاك أقل ما يجب لك ، قال : فأخبرنى : أنا شر وأخبث أم فرعون ؟ قال : بل فرعون قال (أنا ربكم الأعلى) وقال : (ما علمت لكم من إله غيرى) قال : صدقت فأخبرنى فمن خير ؟ أنت أم موسى بن عمران؟ قال : موسى كليم الله وصفيه ، اصطنعه لنفسه وأئمنه على وحيه وكلمه من بين خلقه ، قال : صدقت ، أفما تعلم أنه لما بعثه وأخاه إلى فرعون قال لهما :(فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى) وهذا هو فى عتوه وجبروته ، على ما قد علمت وأنت جئتنى وأنا بهذه الحالة التى تعلم أؤدى أكثر فرائض الله على ولا أعبد أحداً سواه ، أقف عند أكبر حدوده وأمره ونهيه فوعظتنى بأغلظ الألفاظ وأشنعها وأخشن الكلام وأفظعه ، فلا بأدب الله تأدبت ، ولا بأخلاق الصالحين أخذت ، فما كان يؤمنك أن أسطو بك ، فإذا أنت قد عرضت نفسك لما كنت عنه غنياً . قال الزاهد ، أخطأت يا أمير المؤمنين وأنا استغفرك ، قال : قد غفر لك الله [١] . ونفعاً للأمة ، كان الرشيد يستقطب رجال الدين المعروف عنهم الصلاح من كل مصر من الأمصار الإسلامية ، كإقدامه أبا حذيفة البخارى إلى بغداد للإفادة من علمه ، وكان يحدث

---

(١) تاريخ الطبرى ٣٥٨/٨ - ٣٥٩ .

الناس فى المسجد المعروف بابن رعيان [١] . وعندما كان يفكر فى أمر من الأمور المتعلقة بالدين كان يستشير أحد علماء الدين ، طالباً منه النصح والمشورة ، كتفكيره فى نزع مازاد من درجات منبر النبى فى عهد معاوية فحذره مالك من ذلك لضعف قوائم المنبر ، ولكى لا ينقل من مكان إلى آخر ، ويصبح عرفاً يقوم به كل خليفة يأتى بعد ذلك ، فأطاعه الرشيد وانتهى إلى رأيه[٢] .

ولقد كان الرشيد يجل علماء الدين ويحترمهم ، علم بنبأ وفاة ابن المبارك فجلس للعزاء ، وأمر الناس أن يعزوه فيه ، وكأن المصاب مصابه [٣] ، وتناول طعاما مع أبى معاوية الضرير ، فصب الماء على يديه قائلاً " يا أبا معاوية تدرى من يصب على يديك ؟ قلت : لا ، قال : أنا ، قلت : أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال: نعم إجلالا للعلم " [٤] . وبالغ فى احترام ابن السماك الواعظ عند دخوله عليه فقال له ابن السماك مقدراً فيه هذه السمة " تواضعك فى شرفك أشرف من شرفك " [٥] .

وفذلكة الموضوع ، أن طلب الموعظة عند الرشيد ، كان يمثل جانباً كبيراً من تكوين شخصيته الدينية ، وأنه متأصل فيه غير دخيل ، ولقد كان شديد التأثر وقت سماع الموعظة ، يجهش بالبكاء لشدة ما لديه من إحساس

---

(١) معجم الأدباء ٦/٧٢ .

(٢) الإمامة والسياسة ٢/١٥٥ .

(٣) تاريخ الخلفاء ٢٨٥ .

(٤) نفسه ٢٨٥ .

(٥) نفسه ٢٨٤ .

بالكلمة المسموعة وطلب الوعظ عنده صاحبه عناء ومشقة ، من أجل الوصول إلى أولئك الذين عرفوا بهذا اللون من التعامل.

ولقد قام الوعاظ والزهاد فى عصره بدور إيجابى كبير فى تقويم سياسته حيث ضمنوا له عبر عظاتهم كيفية حكمه للأمة ، بما أمر الله وحكم رسوله ، مستغلين بذلك ما يحدثه الوعظ فى نفسه من تأثير كبير ، مما جعلهم يشاركون مشاركة إيجابية فى تسيير أمور الدولة ، عن طريق تقويم سلوك حاكمها ، عبر ترهيبه من النار ، وترغيبه فى العدل والسير فى المسلمين بكل ما هو حسن .

ولم يقف الشعراء موقف المشاهد ، بل شاركوا فى هذا المضمار بأشعارهم التى حملت عظات قصدت من ورائها إحداث تأثير فى شخصية الرشيد .

على أننا لا نغفل الرشيد نفسه ، الذى كان لديه استعداد طبعى ونفس تواقة لسماع الموعظة والسعى إليها أينما كان صاحبها ، وربما كان الوازع فى ذلك ما أشرت إليه من أن أمور الخلافة بما تحمله من تبعة ومحاولة الاقتراب من النهج الصحيح القائم على العدل فى تسيير أمور الخلافة من الأسباب الأساسية التى كان من أجلها يطلب العون والمساعدة عبر العظات المتكررة المختلفة .

ويأتى الحج صورة أخرى معبرة عن جانب من صورة الرشيد الدينية بل يكاد يمثل أقوى جوانبه ، فالحج كان يمثل زاداً دينياً له ، ففى الوقت الذى أحاط به نفسه بالوعظ والوعاظ من كل جانب ، جاء الحج نتيجة حتمية لهذا الوعظ ، فربما كان للعظات المتكررة ، التى كانت تلقى على مسامعه السبب الرئيس فى كثرة حجه ورحيله لمكة ، ووقوفه بعرفة طالباً الغفران والعون من الله على حكم الأمة .

والحج والغزو صورتان مكرورتان فى معظم الأشعار التى مدح بها كرجل دين وحاكم أمة إسلامية ، ولم يكن الشعراء بمبتدعين هذه الصورة ، بل أكدتها الحقائق التاريخية التى سجلت عبر صفحاتها أن الرشيد كان كثير الحج والغزو ، وكان يلبس دراعة كتب من خلفها حاج ومن قدامها غاز[١]

ولقد صاغ الشعراء هذه الصورة عبر نظمهم ، يقول داود بن زرين عن الرشيد كحاكم دينى :

إمام بذات الله أصبح شغله ... وأكثر ما يعنى به الغزو والحج[٢]

يؤكد هذا أشجع السلمى مع شئ من التفصيل مادحاً الرشيد عقب قدومه من الحج :

ملك من مخافة الله مغض ... وهو مغضى له من الإعظام

ألف الحج والجهاد فما ينـ ... ـفك من سفرتين فى كل عام

سفر للجهاد نحو عدو ... والمطايا لسفرة الإحرام

طلب الله فهو يسعى إليه ... بالمطايا وبالجياد السوام

فيداه يد بمكة تدعو ... ه وأخرى فى دعوة الإسلام[٣]

ويكرر أبو نواس المعانى السابقة ، عندما قال عن الرشيد وموقفه من الحج والغزو :

فى كل عام غزوة ووفادة ... تنبت بين نواهما الأقران

حج وغزو مات بينهما الكرى ... باليعملات شعارها الوخدان[٤]

---

(١) الوزراء والكتاب ٢٠٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ٨/٢٣٤ .

(٣) الأغانى ١٧/٤٩ .

(٤) ديوان أبى نواس ٥٩ - ٦٠ .

ولقد تعمق الشعراء فى تأصيل هذه الصورة ، وذلك عن طريق التأكيد عليها ، وأنها شغل الرشيد الشاغل فطالبه لن يجده إلا فى حالة طواف بالبيت أو على أرض المعركة فى غزو ، قال فى ذلك أبو المعالى الكلابى:

فمن يطلب لقاءك أو يرده   فبالحرمين أو أقصى الثغور

ففى أرض العدو على طمر   وفى أرض الترفه فوق كور[1]

ويقول أيضاً أبو نواس مؤكداً هذه الصورة :

يلقى جميع الأمر وهو مقسم   بين المناسك والعدو الموفق[2]

والرشيد فى حجه كانت تصاحبه كوكبة من علماء عصره ، فقد كان يذهب معه مائة من الفقهاء وأبنائهم [3] وأحيانا كان يحج مترجلا ، متكبدا بذلك عناء الرحلة ومشقتها من مقره حتى مكة ، على أن عماله كانوا يزللون له وعورة الطريق ، فعندما ازمع فى إحدى المرات على المشى إلى الكعبة راجلاً ، طلب منه أحد عماله المهلة حتى سهل له الطريق " فأمر بالأنهار فعرجت عن مسيلها ، وبالآكام والجبال فسويت وبالخنادق والأودية ردمت ، ... ثم صنع له مراحل قد حدد له عند كل مرحلة حداً ، وابتنى فى كل مرحلة بريداً قدرها اثنا عشر ميلاً. ثم أمر بالمراحل ففرشت بالبساط الرهاوية ونصب له جداراً بالستور ، وسمكها بأكسية الخز الرفيع الملون ، وقد ضرب عند كل فرسخ فيه مزوقة ، قد قام فيها الفرش الممهدة وقد أحاط بها الطلال الممدودة بالرواقات الكثيفة ، فيها أنواع

---

(١) تاريخ الخلفاء ٢٨٣ ، النجوم الزاهرة ٢/٨٦ .

(٢) ديوان أبى نواس ٥٩ .

(٣) تاريخ الطبرى ٨/٣٤٧ ، الذهب المسبوك ٥٢ .

الطعام والشراب وألوان الفاكهة " [١].

على أن مسيرته من العراق إلى مكة كانت تمر بأكثر من مرحلة فالأولى تبدأ منذ خروجه حتى مسيرة ثلاثة أميال ، بعدها يتوقف لينزل في سرادق مغطى بكساء لينال راحته ، ثم ينهض ثلاثة أخرى ، فإذا أخذ لذته من مأكل ومشرب مشى أربعة فراسخ ينزل بعدها في قصر أعد له ، لينهي بذلك يوماً من أيام رحلته ، ثم تعقبها الأيام تباعاً كسابقتها يشايعه في طريقه الوزراء ، والقواد ، وأمراء الأجناد ، والعلماء ، والفقهاء ، والجنود ، والعساكر ، بينما يوافي في طريقه بأخبار الأمصار والبلدان ، بحيث لا يعدم وسيلة الاتصال بينه وبين عماله ورعيته [٢].

وعند دخوله مكة ، كانت تطرح له الرمال حول البيت ، ويحول الحرس بينه وبين الناس ، على أن طوافه كان ما بين المغرب والعشاء ، ويستمر على ذلك ثلاثة عشر أسبوعاً [٣]. ويصف لنا العماني الراجز كيفية طواف الرشيد ، وكيف كان يأتزر ، فيذنب إزاره من جهتين عن يمين وشمال ، مباعداً بين خطاه ، يشبه في حركته خطو ذكر النعام فيقول [٤] :

جهير العطاس شديد النياطْ[٥] جهير الرواء [٦] جهير النغمْ

---

(١) الإمامة والسياسة ١٦١/٢ .

(٢) نفسه ١٦٢/٢ .

(٣) الذهب المسبوك ٥٠ .

(٤) البيان والتبيين ٦٩/١ - ٧٠ .

(٥) النياط : معاليق القلب .

(٦) جهير الرواء : جميل المنظر .

ويخطو على الأين[1] خطو الظليم[2] ويعلو السماط بجسم عمم[3]

ولقد تعددت الروايات التى ذكرت الأسباب التى من أجلها حج الرشيد ماشياً ، فمنها ما يرجعه إلى مشاهدته للرسول ﷺ فى منامه يحثه على الحج مترجلاً ، والإكثار من العطايا إلى أهل الحرمين [4] ، وأخرى إلى زواجه من جارية أخيه موسى الهادى ، بعد أن حلف له فى حياته ألا يقربها بعد مماته ، فإذا به ينكث العهد ، فحج ماشياً تكفيراً عن حلفته هذه [5] . والرشيد بجوار الكعبة ، عبد ضعيف ، ليس له كل هالات الملك وصولجانه ، فهو كثير الدعاء إلى الله بالمغفرة وطلب الصفح ، يقول عنه بعض الحجحة : إنه لما دخل الكعبة قام على أصابعه وقال متذللاً: " يا من يملك حوائج السائلين ، ويعلم ضمير الصامتين ، فإن لكل مسألة منك رداً حاضراً ، وجواباً عتيداً ، ولكل صامت منك علم محيط ناطق بمواعيدك الصادقة ، وأياديك الفاضلة ، ورحمتك الواسعة . صل على محمد وعلى آل محمد ، واغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا . يا من لا تضره الذنوب ، ولا تخفى عليه العيوب ، ولا تنقصه مغفرة الخطايا . يا من كبس الأرض على الماء ، وسد الهواء بالسماء ، واختار لنفسه الأسماء ، صل على محمد ، وخِرْلى فى جميع أمرى . يا من خشعت له الأصوات بألوان اللغات يسألونك الحاجات ، إن من حاجتى إليك أن تغفر لى إذا توفيتنى وصرت فى لحدى ، وتفرق عنى أهلى وولدى

---

(١) الأين : الأعياء .

(٢) الظليم : ذكر النعام .

(٣) عمم : حسن .

(٤) النجوم الزاهرة ٦٥/٢ ، تاريخ الخلفاء ٢٩٢ .

(٥) الذهب المسبوك ٥٠ ، النجوم الزاهرة ٧٣/٢ .

. اللهم لـك الحمـد حمـداً يفضـل علـى كـل حمـد ، كفضلـك علـى جميع الخلق . اللهـم صـل علـى محمـد صلاة تكـون لـه رضـا ، وصـل علـى محمـد صـلاة تكـون لـه حرزا ، واجزه عنـا خير الجزاء فـى الآخـرة والأولى . اللهـم أحينـا سـعداء وتوفنـا شـهداء واجعلنـا سـعداء مرزوقين ، ولا تجعلنـا محرومـين " [١] .

وإلى جـانب تأديته فريضة الحج ، كـان يستثمر وقتـه فـى مكـة بطريقـة دينيـة أيضـاً ، حيـث كـان يطلـب سمـاع العلمـاء مـن أهـل الديـن ، كإحضـاره مالك بن أنـس الـذى قـرأ عليـه كتـاب الموطـأ ، وحضـر معـه جلسـة القـراءة هـذه فقهـاء الحجـاز والعـراق والشـام واليمـن ، ولم يتخلـف منهـم أحـد [٢] .

والرشـيد كـان لا يكتفـى بـالحج لإشبـاع رغبتـه الدينيـة المتأججـة ، بـل كـان تيخلـل سنـى حجـة مـرات يذهـب فيهـا إلى مكـة معتمـراً ، كذهـابه إلى البيـت الحـرام شـاكراً لله علـى مـا أبـلاه فـى أمـر الوليـد بـن طريـف الخـارج عليـه[٣] .

وبعـد فالرشـيد علـى مـا سبـق كـان كثير الحـج إلى البيـت الحـرام بصـورة لفتـت نظـر المؤرخين وأهـل الأدب والوعـاظ فـى عصـره ، حتـى إن الفضيـل بـن عيـاض قـابل الرشـيد فـى آخـر حجـة حجهـا وبعـد اجتيـازه الكوفـة فـى حـال منصرفة مـن حـج ، قـال معقبـاً علـى زياراتـه المتكـررة للبيـت الحـرام " لايعـود إلى هـذه الطريـق ولا خليفـة مـن بنـى العبـاس بعـده أبـدا"[٤] وأكدهـا الفضيـل للرشـيد

---

(١) تاريخ الطبرى ٣٥٥/٨ ، الكامل فى التاريخ ٢١٨/٦ - ٢١٩ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢٦١/٨ ، الكـامل فـى التـاريخ ١٤٦/٦ ، الذهـب المسبوك ٤٨ ، النجوم الزاهرة ١٢٦/٣ .

(٣) تاريخ الطبرى ٢٦١/٨ .

(٤) مروج الذهب ٣٤٣/٣ .

فى حياته عندما أمره بكثرة الزيارة للبيت قائلاً : " استكثر من زيارة هذا البيت فإنه لا يحجه خليفة بعدك"[١] . وفيما يلى بيان توضيحى لسنوات حج الرشيد مجتمعة ، نثبت فيه عدد سنى حجه وما قام به اثناء الحج ، إن كانت هناك من الأعمال ما يستحق الذكر ، ويظهر من الجدول أن الرشيد حج فى حياته ثمانى مرات ، منها اثنتان مترجلاً ، وليس كما قيل فى كتب التاريخ : إنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً فهناك تباعد بين السنوات وصل إلى حوالى خمس بينها بين الحجة والأخرى .

السنة	ما قام به من أعمال
١٧٠هـ	حج بالناس هارون من مدينة السلام ، فأعطى أهل الحرمين عطاء كثيرا ، وقسم فيها مالاً جليلاً .
١٧٣هـ	حج بالناس هارون الرشيد ، وخرج محرماً من مدينة السلام .
١٧٥هـ	حج بالناس هارون الرشيد .
١٧٧هـ	حج بالناس هارون الرشيد .
١٧٩هـ	حج بالناس هارون الرشيد ، فمشى من مكة إلى منى ، ثم إلى عرفات ، وشهد المشاهد والمشاعر ماشياً ، ثم انصرف على طريق البصرة .
١٨١هـ	حج بالناس هارون الرشيد ، فأقام للناس الحج ، ثم صدر معجلاً .
١٨٦هـ	حج بالناس هارون الرشيد ، وأخرج معه ابنيه الأمين والمأمون وأجزل العطاء لأهل المدينة ومكة .
١٨٨هـ	حج بالناس هارون الرشيد ، فجعل طريقه صوب المدينة فأعطى أهلها نصف العطاء ، وهذه آخر حجة حجها فيما يزعم الواقدى .

(١) النجوم الزاهرة ١٢٦/٢ .

والرشيد وموقفه من الزندقة ، صورة جديدة لجانب آخر من جوانب شخصيته الدينية ، فمن المعروف أن الزندقة تفشت في العصر العباسي بصورة تفوق بكثير ما كانت عليه في العصر الأموي ، ويرجع ذلك إلى كثرة الجدال الديني حول المسائل الأساسية في الأديان ، وما كان عليه علماء العصر من تأثر واضح بالمنهج الفلسفي في كافة العلوم بالإضافة إلى ما قام به الفرس من نشر للديانات المانوية والزرادشتية والمزدكية ، سواء جاء ذلك علناً أو خفية [١] . من هنا حمل معنى الزندقة في العصر العباسي أكثر من مسمى فأطلقت هذه الكلمة على التهتك والفجور ، ومن تبع ديانة غير الإسلام ومن لا دين له " [٢] . ولقد وقف الخلفاء العباسيون بالمرصاد في وجه هذه الظاهرة الدينية الخطيرة ، لدرجة أن المهدى " كان يتعقب الزنادقة ، ويعين ما يلي أمرهم ويعاقب من ظهر منهم ويحث العلماء على وضع الكتب في الرد عليهم " [٣] . على أن الرشيد لم يكن بأقل غيرة على الدين من سائر خلفاء بني العباس ، لذا انطلق يعمل على نقاء المجتمع الإسلامي من شرور هذه الشرذمة الهادمة الملحدة ، فعندما وصل إليه ما نظمه صالح بن عبد القدوس من أبيات يعرض فيها بالنبي عليه الصلاة والسلام قائلاً:

غصب المسكين زوجته ... فجرت عيناه من درره
ما قضى المسكين من وطر ... لا ولا المعشار من وطره
عذت بالله اللطيف بنا ... أن يكون الجور من قدره

---

(١) ارجع إلى تفصيل ذلك في ضحى الإسلام ١/١٣٨ - ١٣٩ .

(٢) نفسه ١/١٥٤ .

(٣) نفسه ١/٣٥٤ .

فاستدعاه مستفسرا منه عما تضمنته الأبيات السابقة من تعريض بالنبى ، فأنكر قوله السابق ، فطلب منه الرشيد أن ينشده قصيدته السينية فأنشده حتى بلغ قوله :

والشيخ لا يترك أخلاقه   حتى يوارى فى ثرى رمسه

فإذا بالرشيد بما لديه من حاسة شعرية لا تخطئه فى أكثر الأحايين ، يقارن بين القصيدتين ، فالمذاق واحد ، الأمر الذى جعله ينسب إلى الشاعر تهمة الزندقة ، لذا أمر بضرب عنقه وصلبه على الجسر (١) .

وغالباً ما كان الرشيد يدخل فى حوار مع من تزندق أو أعلن بنوءة ، محاولاً الزنديق الخروج من الموقف ، إما بطريقة عفوية أو تستوجب استعجال العقوبة ، على حين يمعن الرشيد النظر فى حديثه ليجعل من هذه المحاورة وثيقة إدانة أو تبرئة من منطلق عدم الأخذ بالسماع دون التحقق ، كالذى دار بينه وبين زنديق ، عندما قال له " لم تضرب عنقى يا أمير المؤمنين ؟ قال : أريح الناس منك ، قال : فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله ﷺ ، ما فيها حرف نطق به ، قال : فأين أنت يا عدو الله من أبى إسحاق الفزارى ، وعبد الله بن المبارك ينخلانها نخلاً ، فيخرجانها حرفاً حرفاً ؟ " (٢) .

وعند القتل كان يضع يده على مكمن الخطورة ، فيقدم زنديقاً للقتل ويؤخر آخر ، كما فعل مع جماعة من الملحدين ، يتقدمهم شيخ يضطرب من الفزع ، فإذا بشاب منهم يقول له " يا شيخ ، ترتاع من سيف هذا وفى يديك أربعة أسياف لابد وأن يقتلك أحدها ؟! وهى الدم والبلغم

---

(١) طبقات الشعراء ٨٩ - ٩٠ .

(٢) معجم الأدباء ٢١٢/١ - ٢١٣ ، تاريخ الخلفاء ٢٩٣ .

والصفراء والسوداء"[١] فإذا بالرشيد بنظرة ثاقبة يأمر بتقديم هذا الشاب للقتل ، لعلمه بأنه أشد خطورة وفتنة من هذا الشيخ الخائف . وتنبأ رجل فى أيامه ، وزعم أنه نوح النبى ، فحاجه الرشيد ثم أمر بقتله وصلبه [٢] ، على أنه لم يكن متعسفاً متسرعاً فى إصدار أحكامه بالقتل ، فالحوار كان هو الفيصل بينه وبين من تزندق أو أعلن نبوءة ، فإذا كانت له أحكام كثيرة بالقتل والصلب كانت هناك أخرى تحمل العفو والصفح ، كقبوله توبة بنت مطيع بن إياس ، التى أعلنت توبتها ورجوعها عن الزندقة ، فردها إلى أهلها[٣] . وعفوه عن على بن الخليل الشاعر ، الذى أتهم بالزندقة مع صالح بن عبد القدوس ، عندما أنشده موضحاً ومبرئاً نفسه من هذه التهمة وأنه بعيد عن هذه الفئة التى لا تعتقد بدين :

إنى إليك لجأت من هرب ... قد كان شردنى ومن لبس

واخترت حكمك لا أجاوزه ... حتى أوسد فى ثرى رمسى

لما استخرت الله فى مهل ... يممت نحوك رحلة العنس

كم قد قطعت إليك مدرعاً ... ليلاً بهيم اللون كالنقس

إن هاجنى من هاجس جزع ... كان التوكل عنده ترسى

ما ذاك إلا أننى رجل ... أصبو إلى بقر من الإنس

بقر أو انس لا قرون لها ... نجل العيون نواعم لعس

ردع العبير على ترائبها ... يقبلن بالترحيب والخلس

وأشاهد الفتيان بينهم ... صفراء عند المزج كالورس

---

(١) لباب الآداب ٢٠٠ .

(٢) المحاسن والمساوئ ٥٢/١ .

(٣) الأغانى ٥٨/١٢ .

للمـاء فــى حافتــها حبــب نظم كرقم صحائف الفــرس

وا لله يعلــم فـــى بقيتـــه ما إن أضعت إقامة الخمــس[١]

وشك فـى أبـى العتاهيـة ، فقـال لـه : " النـاس يزعمون أنـك زنديـق ؟ فقـال يـا سيدى أكـون زنديقـا وأنـا القـائل :

أيا عجــبى كيف لا يعصى الإلـــ ـه أم كيف يجحده جاحـــد ؟

و لله فـــى كـــل تحـــريكـــة وفى كل تسكينة شــاهد

وفـــى كــل شـــئ لـــه آيـــة تـــدل على أنـــه واحـــد[٢]

فكان مـن الطبعـي أن يعفـو عنـه .ولكثرة تفشي ظـاهرة الزندقـة فـى هـذا العصر " تنبـه الـرأى العـام إلى هـذا الأمـر تنبهـاً دقيقـاً ، فهـم يسـمعون شـعر الشـاعر فسرعان مـا يلتفتـون إلى شـئ فيـه يتهمونـه مـن أجلـه بالزندقـة ، أو يـرون فعـلاً صـدر مـن إنسـان أو كلمـة قالهـا جـداً أو هـزلاً ، أو إشـارة أشـار بهـا فيرمونـه بالزندقـة " [٣] . وللاستدلال علـى ذلـك مـا أخـبر بـه سـليمان بـن أبـى جعفـر الرشيد فى بعـض مجالسـه ومعـه بعـض الصحـب عـن شـعر لأبـى نـواس حمـل بـين طياتـه كفـراً بـا لله ، فطلـب منـه روايـة بعـض أبيـات القصيـدة ، حتـى يتيقـن مـن ذلك فقال " قولـه يـا أمير المؤمنين :

يا ناظــراً فى الدين ما الأمــر ! لا قـــدر صح ولا جـــــبر!

ما صح عندى من جميع الـــذى تذكـــر إلا الموت والقـــــبر

ثم أنشـده قولـه :

---

(١) السابق ١٤/١٣ ، معجم الشعراء ١٣٦ .

(٢) تاريخ بغداد ٢٥٣/٦ .

(٣) ضحى الإسلام ١٣٨/١ .

إنى لأعلم أن ربى لم يكن ليخصهم إلا بدين صادق [١]

عند هذا الحد أمر الرشيد وزيره الفضل بن الربيع من ساعته بالبحث عن الشاعر وحبسه فى المطبق لاجترائه على الدين . ولم يقف السجن حائلاً بين أبى نواس وقول الشعر على هذه الصورة فقد نظم على غرار الأبيات السابقة ، ما يثبت تشككه من البعث والحساب ، عندما قال :

ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة من مات أو فى نار

فلما سمع الجماز هذا البيت ، حذره من الإفصاح به ، حتى لا يطعن عليه عند السلطان ، ولكنه آبى ، فسمع الفضل بن الربيع بالبيت ، فرفع خبره للرشيد فأمر بحبسه مرة أخرى [٢] .

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو : ما السر فى أن الرشيد لم يأمر بقتل أبى نواس ، على الرغم من اعترافه عبر أبياته بأنه غير مؤمن ببعث ولا حساب وأنه يتمنى أن يدين بغير الدين الإسلامى ؟

ولَعَلّى لم أجد جواباً سوى أن الرشيد نظر إليه على أنه قيمة فنية لا يمكن تعويضها بفقده ، فبما لديه من حاسة شاعرة ونفس محسة ، أدرك ندرة هذا الرجل فاكتفى بسجنه فقط . وربما شعر أيضاً بأن ما يفعله ويقوله ليس إلا ضرباً من المجون لم يصل إلى حد الزندقة ، وقد تأكد من هذا بنفسه وبأكثر من دليل ، وعلى أكثر من صورة مشاهدة كانت أو مسموعة ، منها مثلاً ما حدث منه عندما كان يقف بالصلاة ، فرد على الإمام ملبياً النداء عندما كان يقرأ " قل يا أيها الكافرون " فاتهمه الناس بالكفر ، ورفعوا أمره

---

(١) الموشح ٤٢٦ - ٤٢٨ .

(٢) نفسه ٤٢٨ - ٤٢٩ .

للرشيد ، فأحضره وأرسل إلى حمدويه صاحب الزندقة الذى أقنع الرشيد بأن أفعال الشاعر ليست إلا نوعاً من المجون فقط ، مدافعاً عن وجهة نظره هذه قائلاً للرشيد : " يا أمير المؤمنين ! إن هذا ماجن ، وليس هو بحيث يظن ، فقال له الرشيد ويحك إنه وقع فى نفس منه شئ ، فامتحنه ، قال : فخط له صورة مانى ، وقال له : ابصق عليها ، فأهوى أبو نواس بفيه ليقئ عليها فقال له : حمدويه قد قلت لك يا أمير المؤمنين إنه ماجن"[١].

ومرة أخرى يقف الرشيد موقف المتشكك من أبى نواس ، عندما أدخله عليه الفضل بن يحيى ، فواجهه الرشيد بتهمة الزندقة لقوله:

عتقت فى الدن حتى ... هى فى رقة دينى

فأنكر الشاعر التهمة ، قائلاً له من أبياته ما يحمل معنى الإيمان والتصديق من مثل قوله :

أية نار قدح القادح ... وأى حد بلغ المازح !
لله در الشيب من واعظ ... وناصح لو قبل الناصح !
فاغد فما فى الحق أغلوطة ... ورح لما أنت له رائح
من يتق الله فذاك الذى ... سيق إليه المتجر الرابح
لا يجتلى الحوراء من خدرها ... إلا امرء ميزانه راجح
فاسم بعينيك إلى نسوة ... مهورهن العمل الصالح

فقال الفضل : يا سيدى ، إنه يؤمن بالبعث ، ويحمله المجون على ذكر مالا يعتقد[٢] ، لهذه الأسباب السابقة كان صفح الرشيد عن الشاعر والاكتفاء

---

(١) أخبار أبى نواس ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٢) المحاسن والمساوئ ١/٣٨٢ - ٣٨٣ .

بمجرد الحبس ، من أجل تأديبه ، ومنعه من الإقدام على مثل هذه التصرفات والقول بهذه الأشعار التى تمس الدين . على أننى أقول فى النهاية - وبرغم كل الأسباب التى أخذت طريقها لتمحو آثار الشاعر السيئة - إن هذا لا يعفى الرشيد من توقيع العقوبة على أبى نواس ، فأبياته صريحة بالكفر ، ولا تحتاج إلى تأويل ، وما حدث لا يتناسب مع ما عرف عن الرشيد من وقوفه الملئ بالحدة فى وجه ظاهرة الزندقة والمتزندقين .

ولقد كان الرشيد غيوراً جدا على الدين ، حتى لمجرد سماع شبهة تمت بصلة إلى الله ورسوله ، حدثه أبو معاوية الضرير فى وجود رجل من أهل قريش بحديث عن الرسول ﷺ ، فاعترض الرجل عن عدم اقتناعه بما جاء فى الحديث ، فاستشاط الرشيد غضباً وكاد يقتله ، لو لا تدخل أبو معاوية قائلاً له " كانت منه بادرة و لم يفهم يا أمير المؤمنين حتى سكته"[١].

وكان الرشيد أيضاً يكره المراء فى الدين ، بلغه عن بشر المريسى القول بخلق القرآن فقال " لئن ظفرت به لأضربن عنقه " [٢]. واتهم علماء الكلام بالانحراف من منطلق أن كثرة مناقشاتهم للأمور الدينية تسبب التشويش والخلط على البسطاء من العامة فيحول ، بهم عن طريق الصواب لذلك أمر بحبس ثمامة بن أشرس [٣]. وانتهر مضحكه ابن أبى مريم لتفكهه فى العبادة عندما رد عليه وهو يقرأ فى صلاته " ومالى لا أعبد الذى فطرنى؟ فقال ما أدرى وا لله [٤]" فإذا بالرشيد يغضب منه ، محذراً إياه من

---

(١) تاريخ بغداد ١٤/ ٧ - ٨ ، تاريخ الخلفاء ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٢) تاريخ الخلفاء ٢٨٤ .

(٣) نفسه ٢٨٦ .

(٤) الكامل فى التاريخ ٦/٢١٨ .

الإقدام على هذه الفعلة مرة أخرى قائلاً " إياك والقرآن والدين ، ولك ما شئت بعدهما"[١] .

والدعوة إلى نشر الإسلام ، صورة جديدة أخيرة ، تعبر عن جانب من جوانب شخصية الرشيد الدينية ، فمن موقفه كحاكم إسلامى ، نشط فى أمر الدعوة إلى الإسلام خارج نطاق ملكة ، فعندما أرسل إليه ملك السند يطلب من يناظره فى الدين ، أرسل إليه قاضيا ، ولكنه لم يستطع الوقوف أمام حججه فامتلأ الرشيد غيظاً ، ثم أرسل إليه واحداً من شيوخ المعتزلة - على الرغم من خلافه معهم - وهو معمر بن عباد السلمى ، إلا أنه سم فى الطريق[٢] .

ونعل أكبر الآثار المتروكة عن الرشيد فى هذا المضمار رسالته إلى قسطنطين ملك الروم يدعوه فيها للدخول فى الإسلام ، مضمناً إياها الحجج والبراهين فى إثبات صدق دعوة الدين الإسلامى ، ولكبر حجم هذه الرسالة سنلخصها مع الإحالة إليها فى مصادرها لاستكمال النفع والمعرفة[٣] . تبدأ الرسالة بأسلوب الحوار المباشر من الرشيد ، كأمير المؤمنين إلى قسطنطين ملك الروم ، يعقبها حديث عن السبب الرئيس الذى من أجله أرسل إليه هذه المطولة ، وهى دعوته وقومه لعبادة الله الواحد ، مستنداً على إثبات واحدانيته بآيات من كتاب الله تنفى عنه المشاركة فى الألوهية كما يدعى أهل الكتاب الذين يقولون بالثلاثة . ثم اتجه بعد ذلك

---

(١) السابق ٢١٨/٦ .

(٢) نفسه ٣٥٨/١ .

(٣) ارجع إلى تفاصيل هذه الرسالة فى جمهرة رسائل العرب ٢٥٢/٣ - ٣٢٤ ، عصر المأمون ١٨٨/٢ ، ثم هى مشروحة بتعليق أسعد لطفى حسن طبعة مصطفى البابى الحلبى.

إلى تأكيد نبوة محمد ، كمبلغ لرسالة السماء مع عرض لتوارث النبوة وصولاً إلى عيسى عليه السلام وكيف بشر بنبى الأمة الإسلامية ، والذى اختاره الله لوحيه ، فى وقت انتشرت فيه عبادة الأصنام والأوثان ، فإذا به ينشر الرسالة ، وينير الظلمة . ثم طلب منه إعمال العقل فى أمر هذا النبى وتصديق رسالته ، لأنه لو كان كاذباً لوقفت أمامه قريش عامة وجيرته خاصة ، ثم وضعه بين أمرين لا ثالث لهما ، إما أن يؤمن به كنبى من موقع أنه ألف بين قلوب العرب وفرق جموع الأمم ، وإما أن يشك فيه ، ويعزى فعله إلى الجهل ، وهذا أمر جد بعيد لا يقبل ، لأنه لم يعرف عنه الغباء أو الجهالة ، فلقد خله الناس فعل الرب الذى لا يقدر عليه الخلق فى وجوه كثيرة ، كإخباره بالغيب قبل ظهوره ، ووصفه للأمور قبل حلولها وعلمه بمواقع النجوم ودقته فى الحساب ، ولقد علمه الله على غير الملة التى كان يعتقد بها أهل الديانات الأخرى وألقى عليه قرآنا لم تسمعه الآذان من قبل ولم تقع القلوب على لغته ، فتحدى به العرب وهم أهل فصاحة وبيان فعجزوا عن الإتيان بسورة أو حتى بأية من مثله ، وهذا تأكيد على أن الكلام ليس بكلامه ، وإنما هو من عند الله ، فجاء فوق لغة العباد ، ولقد كانت حكمته فى أنه نشر ناموسه على لسان رجل أمى لئلا يشك المبطلون فى أمره ، مدعين أنه تعلمه من غيره ، ولو كان له غير ذلك لعرف بأمره الخاصة والعامة . ثم بدأ يعدد له بعضاً من صفات الرسول التى تؤهله للنبوة ، ثم واصل معه تكملة الحديث عن أحقية نبوة محمد من كل جوانبها مستخدماً الأدلة العقلية للوصول إلى إقناع الملك مشفوعة بالقرآن للتأكيد ، كموقف المسلمين يوم الجمع وانتصارهم ، والآية الكبرى فى غلبة العجم ، وكيف وعد الله عباده بالنصر ، إلى غير ذلك من الأمور التى توحى بأن الرسول مؤيد من السماء وإلا ما جاءت الأحداث مطابقة لما ورد نزوله فى

القرآن وصدقت ما قاله بلسانه . وبعد عرض كل هذه الحجج التى تؤكد صدق نبوة محمد ، طلب منه الإقرار والتصديق وأن لا يسعى لمطمع فى الدنيا أو نعيم زائل . ثم اتجه يناقشه فى أمر دينه ، طالباً منه أن يسأل أساقفته فى مدى مطابقة العقل لقضية الثالوث المقدس مناقشاً إياه فى هذه المسألة حتى توصل إلى نفيها ، مع لفت نظره إلى ما هو موجود فى التوراة والإنجيل لعلامات النبى محمد . ثم فى نهاية الرسالة دعاه للإسلام ، اعتمادا على ما سبق مناقشة لوحدانية الله والتحقق من صدق نبوة رسوله ، هذا إن قبل نصيحته أما رفضه فيعنى دفع الجزية حقناً للدماء .

بهذه الطريقة نصب الرشيد نفسه حامياً للدين ناشراً له ، على أن هذه الرسالة أظهرت ما كان عليه العصر فى ذلك الوقت من تأثر واضح بالمنطق والفلسفة فى مناقشة الأمور وصياغتها بأسلوب المناطقة ، الذى يعتمد على وضع المقدمات ثم مناقشتها للوصول منها إلى النتائج.

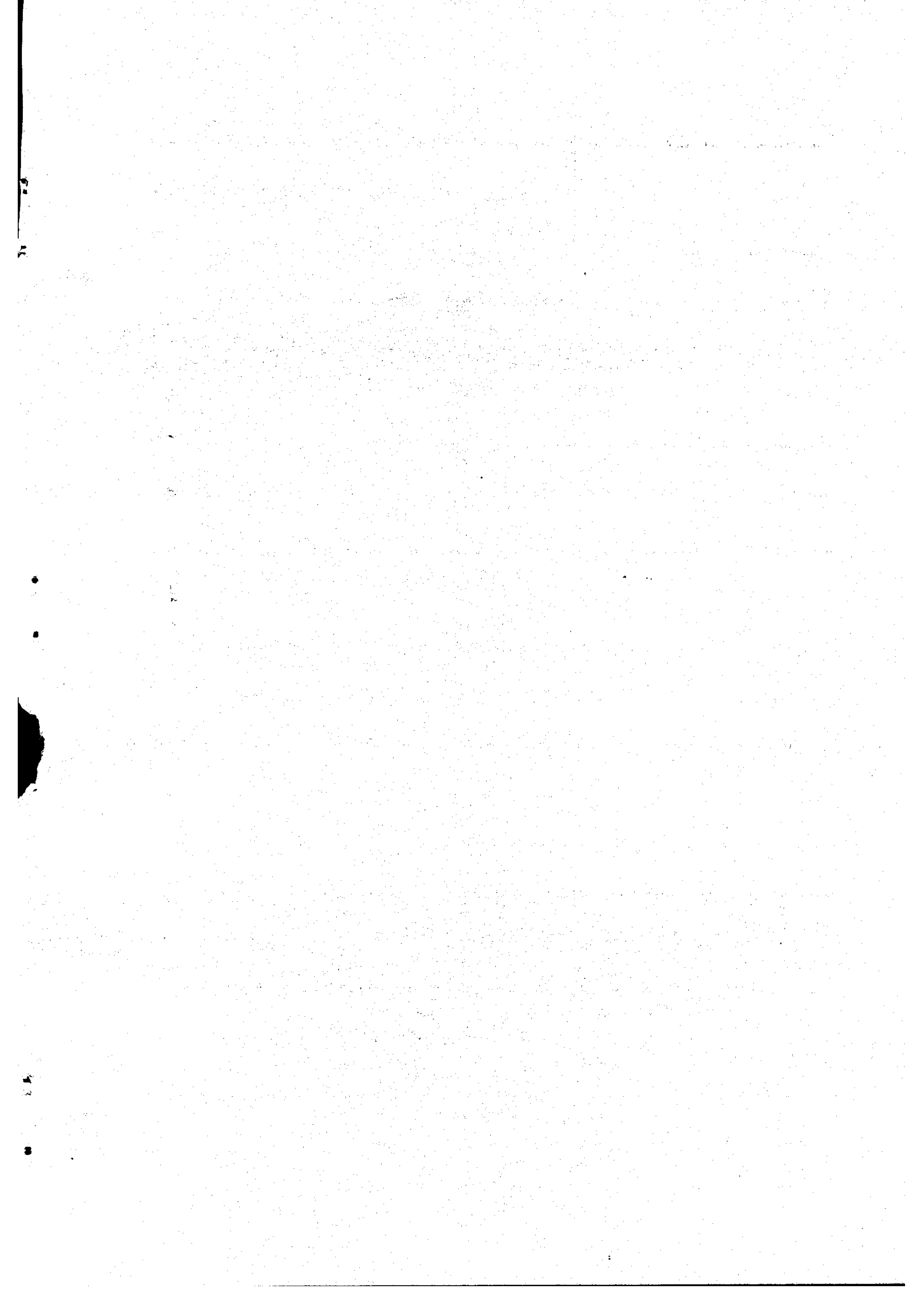
وهذا ما حدث فى هذه الرسالة السابقة ، حيث بدأت بالحديث عن أدلة وجود الله مع إثبات وحدانيته ، متجهة إلى تأكيد نبوة نبيه معتمدة على الأدله القرآنية والعقلية لإثبات صدق النبوة ، مع نفى نظرية الثالوث المقدس لمخالفتها منطق العقل ، منتبهية إلى ضرورة الدخول فى الدين الإسلامى .

وبعد نستطيع فى نهاية الأمر أن نصل إلى نتيجة مؤداها ، أن صورة الرشيد كحاكم دينى جاءت على شقين ، الأول قد شطحت بعيداً عن عالم الواقع ، بحيث جعلت منه صورة ثانية لنبى أو رسول منزل ، وذلك عبر شعر الشعراء ، أولئك الذين تعمقت فى صورهم نظرية الفرس ، التى حكم من خلالها العباسيون ، الذين تصوروا أنهم هم الصفوة المختارة فجارى

شعرهم هذه الصورة ، فشطحت أشعارهم وجاءت مصورة شخصية الرشيد الدينية بطريقة لا تنطبق وعالم الواقع .

بينما جاء الشق الثانى يقترب من وقاع الرشيد الدينى ، حيث ظهر حافظاً للقرآن والحديث ، شديد الورع والتقوى ، كثير الاتصال بالنساك والزهاد يطلب منهم الموعظة ، كثير البكاء عند سماعها بدرجة ملحوظة أو لقد أرجعنا ذلك إلى كثرة أعباء الخلافة وحرصه على تحرى جانب العدالة فيها ، الأمر الذى أقلقه كثيراً فسعى جاهداً يطلب العون عبر عظة ناسك أو كلمات رجل عرف عنه الورع .ولقد استطاع الزهاد إنارة الطريق أمامه عبر رسمهم سياسة الدولة فى عظاتهم ، مشاركين بذلك وبطريقة إيجابية فى تحديد معالم الطريق للأمة المبنى على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله .

واتضح أيضاً أن الرشيد كان كثير الحج إلى بيت الله لوازع دينى متأصل ، فيه حيث بلغت سنى حجه ثمانى سنوات عبر خلافته ، ولم تكن عاماً بعد عام كما ورد عنه فى كتب التاريخ ولكن جاءت فى بعض الأحيان متباعدة ، حتى وصلت إلى خمس سنوات ، وبلغ من تدينه أنه حج ماشياً مرتين متكبداً بذلك مشقة وعناء شديدين من أجل إشباع نفسه التواقة إلى الورع والتقوى جاعلاً من فعله ظاهرة متفردة بين الخلفاء قبله وبعده .ولقد كان أيضاً شديد الحرص على الدين ، يكره المراء فيه ، يتعقب الزنادقة فى شتى الأصقاع ، ثم هو فى النهاية الداعى إلى نشر الإسلام عبر رسائله للملوك والأمراء فى عصره .



الخاتمة

تناول هذا الكتاب بالدراسة صورة هارون الرشيد ، كما وردت في عالم الأدب ، ولقد جاء مقسما إلى فصول أربعة ، استطاع كل واحد منها أن يكشف عن جانب من جوانب شخصيته التي وردت له في هذا المضمار .

ففي الجانب السياسي ظهر لنا أن الرشيد استطاع بحكمة واقتدار - وبخاصة بعد نكبة البرامكة - إدارة شئون مملكته ، حيث كان حاكماً جاداً في وقت الجد ، ليناً في وقت اللين ، اختار ولاته بعد دراسة وتمحيص ، ولنظرته الثاقبة في اختيارهم جاءت معظم شهرته في الإدارة . ولقد كانت له مواقف حازمة اتسمت بالضراوة مع أناس تطاولت أعناقهم ، من مثل طامع في الخلافة أو خارج يريد الاقتطاع من المملكة . ومن هنا أطاح بالشيعة والبرامكة . على أن نيله من الشيعة لم يكن فيه رحمة . حيث مات معظمهم على يديه أو بواسطة أحد رجاله ، إما بالسجن أو التعذيب . يناصره في ذلك الشعراء الذين جعلوا من شعرهم بوقاً آخر في وجه العلويين وسلاحا من أسلحته ، يذكرهم بضعف حجتهم في المطالبة دونه بالخلافة . ولقد ظهر في هذا الجانب أن البرامكة كانوا وراء الضجة الكبيرة التي كانت سبب شهرة الرشيد . سواء في حياتهم لازدهار الدولة على أيديهم ، أو بمماتهم لنكبتهم المفاجئة التي أذهلت الجميع .

وكان وجودهم على عرش البلاد قبل نكبتهم سلاحاً ذا حدين بالنسبة للرشيد ، حيث كان في صالحه لكونه استراح من أعباء الحياة السياسية التي كانوا أعلاماً عليها ، في الوقت الذي كرس وقته للسماع والطرب والغناء والبحث عن المرأة المثال ، على حين كان الوجه المقابل هو أن يبتعد عن دائرة الضوء السياسي ، حيث كان خليفة من حيث الشكل

مجرداً من كل الاختصاصات التى تتصل بالخلافة ، لذا جاءت نكبتهم ضرورية لاستعادة مقاليد الأمور من جديد ، بعد أن اكتشف أنه مجرد خيال ظل ، الأمر الذى يدعونا إلى القول بأن حكمه السياسى لم يتعد أكثر من ست سنوات ، تلك التى أخذ فيها بمقاليد الأمور ، أما قبل ذلك فقد استأثر دونه البرامكة بالحكم على مدار سبع عشرة سنة .

ولقد جاءت صولاته العسكرية تحمل طابعاً خاصاً ، حيث كان للوازع الدينى بجانب موقفه كحاكم عسكرى أثره الكبير فى خوضه هذه الحروب ، لأنه أدرك أن واجبه يحتم عليه حماية بلاد المسلمين من الخطر ، يضاف إلى ذلك حبه للتوسع فى دائرة ملكه ، جامعاً بذلك بين انتصارين : أحدهما سياسى والآخر دينى .

ولقد كشفت لنا دراسة الجانب الاجتماعى للرشيد عن أنه كان دائم البحث عن امرأة مثال تتناسب وهوى نفسه التواقة للعثور على امرأة متكاملة ، ولما كان من الصعب - بالمقاييس البشرية - وجود امرأة واحدة تحمل كل صفات المثال المعبود تعددت لذلك علاقاته النسائية ، لتكشف فى كل واحدة منها عن الفوز بجانب من جوانب هذه المرأة المثال . بينما يرجع ثبات الصورة المعروفة عنه فى أذهان الناس من حيث علاقته مع المرأة ومجونه ، إلى أن شخصيته تعرضت لبعض التحورات فانتقلت من مجالها الحقيقى الذى عرفت به داخل كتب التاريخ إلى مجال آخر هو ذيوع الانتشار ، الأمر الذى جعل منها مادة قصصية يحملها الناس طرفهم ، مما يجعلها صالحة للمسامرة ، فجاء فيها بعيداً عن صورة الملك المتعارف عليه .

وظهر لنا أيضاً فى هذا الجانب أن الرشيد استطاع الارتفاع بفن الغناء فى عصره ، عبر حبه لهذا الفن ، ولا أدل على ذلك من وجود هذه

الكوكبة الكبيرة من المغنيين الذين شهد لهم بالبراعة والجودة فى فن الغناء على مر العصور ، والذى قربهم إليه ، وقسمهم على مراتب وطبقات وأجزل لهم العطايا كل على حسب مرتبته وفنه ، ونادمهم بصورة لم يسبقه إليها خليفة من بنى أمية أو العباس ، ولقد كان مرحا معهم متباسطاً بصورة ملحوظة .

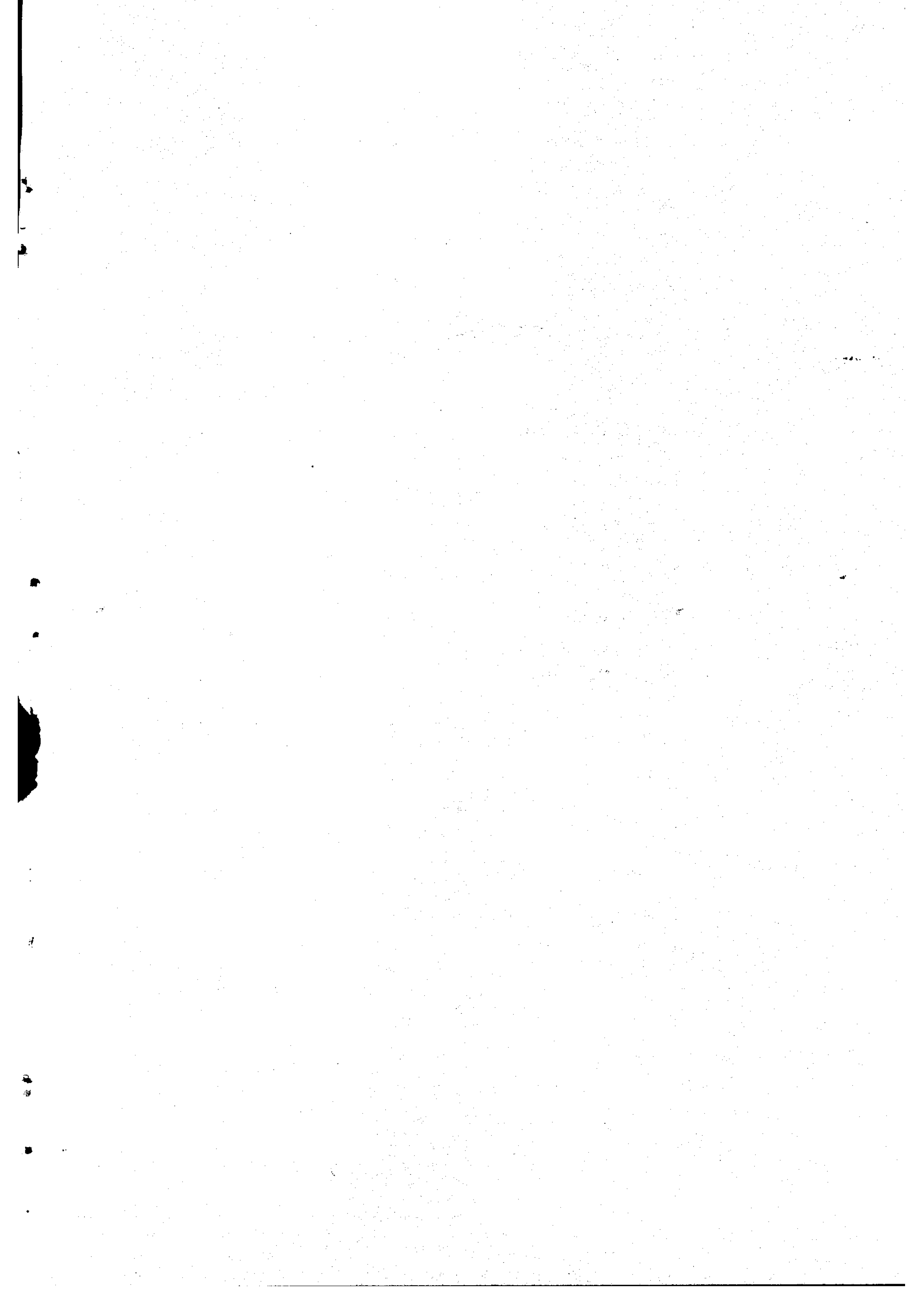
ولقد أبان لنا الجانب الثقافى للرشيد عن أنه كان شاعراً يحب الشعر ويتذوقه ، وأن شعره متأرجح بين القوة والضعف ، وأنه مع قلته يعبر عن بدايات شعرية جيدة واستعداد طيب لنظم الشعر ، الذى واكب بعضاً من حياته وعبر بلسانه عن بعض المواقف المتعددة التى تعرض لها والتى جعله منها لسان حاله . وقد تنوع شعره بين موضوعات عدة أغلبها فى الغزل ، وكان له موروث شعرى كبير كون لديه ملكة النقد . ولقد أشعل روح التنافس الإبداعى بين شعرائه ، الأمر الذى خلد الحياة الشعرية فى عصره وأثراها ، حيث كانت له بصماته الواضحة على عالم الشعر ، من خلال عنايته بشعرائه ، وإغداقه الأموال عليهم ، بالإضافة إلى أنه كان سبباً فى تخليد بعضهم على مر التاريخ لاقتران اسمه بهم . وأظهر لنا هذا الجانب أيضاً أنه كان يعشق المعرفة ، لذا قرب إليه العلماء ، وكانت له مناظرات علمية تشهد على سعة علمه واطلاعه ، حيث كان عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه والنحو .

وكان عصره زاخراً بأقطاب المعرفة فى مختلف الفنون ، كإبراهيم الموصلى وابنه اسحاق ومعبد فى فن الغناء ، والإمام مالك والليث بن سعد وأبى يوسف القاضى ومحمد بن الحسن والإمام الشافعى فى الفقه والحديث والكسائى والمفضل الضبى والأصمعى فى النحو ، وأبى نواس وأبى العتاهية

ومروان بن أبى حفصة ، ومسلم بن الوليد ، والعتابى ، والنمرى ، وأشجع السلمى ، والعباس بن الأحنف ، ونصيب الأصغر ، ودعبل الخزاعى فى الشعر ، وابن بختيشوع وابن ماسويه فى الطب .

وجاءت فى النهاية دراسة الجانب الدينى للرشيد لتكشف لنا عن أمر مؤداه أن صورته قد جاءت على شقين ، الأول شطح بعيدا عن عالم الواقع حيث جعل منه صورة ثانية لنبى أو رسول منزل ، وذلك من خلال شعر الشعراء ، أولئك الذين تعمقت فى صورهم نظرية الفرس التى حكم من خلالها العباسيون ، الذين تصوروا أنهم أصحاب الحق الفعلى فى حكم البلاد ، وأنهم الصفوة المختارة ، فجارى شعرهم هذه الصورة . بينما جاء الشق الثانى ليقترب به من واقعه الدينى ، حيث ظهر حافظا للقرآن والحديث ، شديد التقوى والورع ، كثير الاتصال بالزهاد والنساك ، كثير البكاء عند سماع الموعظة منهم .

وبعد فهذه هى الصورة العامة التى أظهرتها كتب الأدب والتاريخ لشخصية الرشيد ، وجاءت بجانبها حقائق جزئية ، مستنبطة من هذه الدراسة من مثل التقاء الأدب والتاريخ فى التعبير عن الحقيقة ، وتأثير الأدب الشعبى على الأدب الفصيح ، وصدق الرشيد مع نفسه فى كل جانب من الجوانب المعروضة له ففى موقعه كرجل سياسة دافع عن حقه بكل ما يمتلك أمام الطامعين فى ملكه ، ورفض أن يشاركه فيه أحد ، وفى حياته الاجتماعية عاش لها ، وكأنه خال من المسئوليات فبحث عن المرأة واستمتع بالطرب ، وفى حياته الثقافية درس العلوم والفنون وأكثر من طلب المعرفة ، وفى جانبه الدينى أخلص لله وواظب على العبادة والاتصال بالزهاد وأهل التقى والورع وكأنه ليس فى حياته إلا العبادة والاتجاه إلى الله .



المصادر والمراجع

(أ)

١- أبو نواس " الحسن بن هانئ " للأستاذ عباس محمود العقاد (القاهرة - دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٨٠م) .

٢- أخبار أبى نواس " تاريخه - نوادره - شعره - مجونه " لابن منظور المصرى (القاهرة - مطبعة الاعتماد - السفر الأول ١٩٢٤م) .

٣- أخبار الحمقى والمغفلين للعلامة الحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى (دمشق - مطبعة التوفيق ١٣٤٥هـ) .

٤- أخبار النساء لابن القيم الجوزية (بيروت - دار مكتبة الحياة ١٩٦٤م)

٥- الأشباه والنظائر فى النحو لأبى الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبو بكر جلال الدين السيوطى ، حققه طه عبد الرؤوف سعد (القاهرة - مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٥م) .

٦- أشعار أبى الشص الخزاعى وأخباره جمع وتحقيق الأستاذ عبد الله الجبورى (بغداد - مطبعة الآداب فى النجف الأشرف ١٩٦٧) .

٧- الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين لخير الدين الزركلى (القاهرة - المطبعة العربية ١٣٤٦هـ)

٨- إعلام الناس بما قوع للبرامكة مع بنى العباس للإمام الفاضل محمد المعروف بدياب الاتليدى (القاهرة - المكتبة العالمية بجوار الأزهر) .

٩- الأغانى للإمام أبى الفرج الأصفهانى ، تصحيح الأستاذ أحمد الشنقيطى (القاهرة - مطبعة ساسى المغربى ، وطبعة بيروت) .

١٠- أمالى السيد المرتضى للشريف أبى القاسم على بن الطاهر أبى أحمد الحسين ضبطه وصححه وعلق حواشيه السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبى (القاهرة - مطبعة السعادة - الطبعة الأولى ١٣٢٥هـ)

١١- الإمامة والسياسة للإمام الفقيه أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى والكتاب معروف باسم تاريخ الخلفاء تحقيق الدكتور طه محمد الزينى (القاهرة - مطبعة الحلبى للنشر والتوزيع ١٩٦٧م) .

١٢- الأنوار الزاهية فى ديوان أبى العتاهية جمعه أحد الأدباء اليسوعيين نقلا عن رواية النمرى وكتب مشاهير الأدباء كالأصفهانى والمبرد وابن عبد ربه والمسعودى والماوردى والغزالى (بيروت - مطبعة الآباء اليسوعيين ١٨٨٦) .

١٣- الأوراق لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى عنى بنشره هيورث دن خريج مدرسة العلوم الشرقية بلندن (القاهرة - نشر أولاد الخانجى - مطبعة الصاوى - الطبعة الأولى سنة ١٩٣٤) .

(ب)

١٤- البدء والتأريخ لمطهر بن طاهر المقدسى اعتنى بنشر ترجمته من العربية إلى الفرنسية كلما رهوار من أعضاء مجلس العلوم العالى (طبع فى مدينة شالون على نهر سون بمطبعة برطوند) .

١٥- بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة - مطبعة عيسى البابى الحلبى الطبعة الأولى ١٩٦٤) .

١٦- بهجة المجالس ، وأنس المجالس ، وشحذ الذاهن والهاجس للإمام ، أبى عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى القرطبى تحقيق محمد مرسى الخولى مراجعة الدكتور عبد القادر القط (القاهرة - دار الكاتب العربى).

١٧- البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (بيروت - دار الكتب العلمية - ١٩٧٩) .

(ت)

١٨- التاج فى أخلاق الملوك لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق الأستاذ أحمد زكى باشا (القاهرة - المطبعة الأميرية - ١٣٣٣هـ ١٩١٤م)

١٩- تاريخ ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون المغربى (بيروت - مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى ١٩٦٦م) .

٢٠- تاريخ الأدب العباسى للبروفيسور زينولد . أ. نكلسن ترجمة وتحقيق د. صفاء الخلوصى (بغداد - منشورات المكتبة الأهلية - ١٩٦٧) .

٢١- تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى للدكتور حسن إبراهيم حسن ، الجزء الثانى (القاهرة - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة التاسعة ١٩٨٠) .

٢٢- تاريخ الأمم والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة - دار المعارف - الطبعة الثانية - ١٩٦٧) .

٢٣- تاريخ بغداد أو مدينة السلام للحافظ أبى بكر أحمد بن الخطيب البغدادى (القاهرة - مكتبة الخانجى - ١٣٤٩هـ ١٩٣١م)

٢٤- تاريخ التمدن الإسلامى لجرجى زيدان (القاهرة - مطبعة الهلال - الطبعة الرابعة - ١٩٣٥) .

٢٥- تاريخ الخلفاء لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد (القاهرة - مطبعة السعادة - ١٩٥٢) .

٢٦- تاريخ المسلمين للشيخ جرجس بن العميد بن الياسر بن أبى المكارم ابن أبى الطيب المعروف بابن العميد (طبعة لندن - ١٦٢٥م).

(ث)

٢٧- ثقافة الهند ، يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية آزاد بهون دهى الجديدة (المجلد الحادى عشر - العدد الرابع - أكتوبر ١٩٦٠) .

٢٨- ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب لأبى منصور عبد الملك بن محمد ابن إسماعيل الثعالبى النيسابورى ، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة - دار نهضة مصر للطبع والنشر - ١٩٦٥) .

٢٩- ثمرات الأورق فى المحاضرات للإمام تقى الدين أبى بكر بن على بن محمد بن حجة الحموى الحنفى ، على هامش كتاب المستطرف فى كل فن مستظرف (القاهرة - المكتبة التجارية الكبرى - ١٣٠٨ هـ).

(ج)

٣٠- جمهرة خطب العرب فى عصور العربية الزاهرة للأستاذ أحمد زكى صفوت الجزء الثالث (القاهرة - مطبعة مصطفى البابى الحلبى - الطبعة الأولى ١٩٣٣).

٣١- جمهرة رسائل العرب فى عصور العربية الزاهرة للأستاذ أحمد زكى صفوت ، الجزء الثالث (القاهرة - مصطفى البابى الحلبى - الطبعة الأولى ١٩٣٧) .

٣٢- الجوارى المغنيات للأستاذ فايد العمروسى (القاهرة - دار المعارف - ١٩٤٥) .

(ح)

٣٣- حديث الأربعاء للدكتور طه حسين (القاهرة - دار المعارف - الطبعة الثانية عشرة-١٩٧٦) .

٣٤- الحيوان لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة - مصطفى البابى الحلبى - الطبعة الثانية ١٩٦٩) .

(خ)

٣٥- خاص الخاص لأبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى النيسابورى (القاهرة - مطبعة السعادة - الطبعة الأولى ١٩٠٨) .

٣٦- الخراج للقاضى أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم (القاهرة - المطبعة السلفية - الطبعة الرابعة ١٣٩٢) .

٣٧- دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) (القاهرة - طبعة الشعب - المجلد السادس - مادة البرامكة) .

٣٨- دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ محمد فريد وجدى (القاهرة - مطبعة دائرة المعارف القرن العشرين الطبعة الثانية ١٩٢٤) .

٣٩- الديارات لأبى الحسن على بن محمد المعروف بالشابشتى ، عنى بتحقيقه ونشره كوركيس عواد عضو المجمع العربى بدمشق (بغداد - مطبعة المعارف ١٩٥١) .

٤٠- ديوان أبى فراس الحمدانى رواية أبى عبد الله الحسين بن خالويه (بيروت - دار صادر - ١٩٦٨) .

٤١- ديوان أبى نواس طبع إسكندر رآصاف (القاهرة - المطبعة العمومية ١٨٩٨) (وطبعة أخرى دار صادر بيروت) .

٤٢- ديوان دعبل بن على الخزاعى جمعه وحققه وقدم له عبد الصاحب عمران الدجيلى (بيروت - دار الكتاب اللبنانى - الطبعة الثانية ١٩٧٢).

٤٣- ديوان العباس بن الأحنف شرح وتحقيق الدكتورة عاتكة الخزرجى (القاهرة - مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٤) .

٤٤- ديوان المعانى للإمام اللغوى الأديب أبى هلال العسكرى (القاهرة - مكتبة القدسى سنة ١٣٥٢ هـ) .

(ذ)

٤٥- الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك لتقى الدين أحمد بن على المقريزى حققه وعلق على حواشيه وقدم له ووضع فهارسه الدكتور جمال الدين الشيال (القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٥) .

٤٦- ذيل زهر الآداب أو جمع الجواهر فى الملح والنوادر لأبى إسحاق إبراهيم ابن على الحصرى القيروانى (القاهرة - مطبعة الرحمانية - ١٣٥٣هـ) .

(ر)

٤٧- رسالة أبى الربيع محمد بن الليث إلى قسطنطين ملك الروم شرح وتعليق أسعد لطفى حسن (القاهرة - مصطفى البابى الحلبى ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م).

٤٨- رسل الملوك لأبى على الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء تحقيق صلاح الدين المنجد (القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧) .

(ز)

٤٩- زهر الآداب وثمر الألباب لأبى إسحاق إبراهيم بن على الحصرى القيروانى مفصل ومضبوط ومشروح بقلم المرحوم الدكتور زكى مبارك ، حققه وزاد فى تفصيله وضبطه وشرحه الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد (بيروت - دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة الطبعة الرابعة ١٩٧٢).

(س)

٥٠- سمط اللآلي للوزير أبي عبيد البكري نسخه وصححه ونقحه وحقق ما فيه الأستاذ عبد العزيز الميمني (القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والنشر ١٩٣٦) .

(ش)

٥١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب للمؤرخ الفقيه الأديب أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ، الجزء الأول (القاهرة - مكتبة المقدسي ١٩٣٠).

٥٢- شرح ديوان صريع الغواني مسلم بن الوليد الأنصاري تحقيق وتعليق الدكتور سامي الدهان عضو المجمع العربي بدمشق (القاهرة - دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية ١٩٧٠) .

٥٣- شعراء عباسيون لغوستاف فون غرنباوم دراسات ونصوص شعرية ترجمها وأعاد تحقيقها الدكتور محمد يوسف نجم وراجعها الدكتور إحسان عباس (بيروت - منشورات مكتبة الحياة ١٩٥٩) .

٥٤- شعر مروان بن أبي حفصة جمعه وحققه وقدم له الدكتور حسين عطوان (القاهرة - دار المعارف - ١٩٧٣) .

٥٥- الشعر والشعراء لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر (القاهرة - دار المعارف - ١٩٦٦) .

٥٦- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية للدكتور شوقي ضيف (القاهرة - دار المعارف - الطبعة الثالثة ١٩٧٦) .

(ص)

٥٧- صبح الأعشى في كتابة الإنشا للشيخ أبي العباس أحمد القلقشندى (القاهرة - المطبعة الأميرية - ١٩١٣) .

٥٨- صريع الغوانى دراسة أخباره وأشعاره للأستاذ محمد جميل سلطان (دمشق - مطبعة الترقى - ١٩٣٢) .

٥٩- صريع الغوانى مسلم بن الوليد للأستاذ حسن علوان ، صدر عن لجنة البيان العربى (القاهرة - المطبعة النموذجية ١٩٤٩) .

(ض)

٦٠- ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين (القاهرة - مكتبة النهضة المصرية - طبعات مختلفة) .

(ط)

٦١- طبقات الشعراء لعبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد ، تحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فراج (القاهرة - دار المعارف ١٩٦٨ - الطبعة الثانية) .

٦٢- طبقات النحويين واللغويين لأبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى الأندلسى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة - دار المعارف ١٩٧٣).

(ع)

٦٣- عصر المأمون للدكتور أحمد فريد رفاعى (القاهرة - مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧) .

٦٤- العقد الفريد للفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي تحقيق محمد سعيد عريان (القاهرة - المكتبة التجارية الكبرى - ١٩٥٣)

٦٥- العمدة " في محاسن الشعر وآدابه ونقده " لأبي على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت - دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة - الطبعة الرابعة ١٩٧٢) ٦٦- عيون الأخبار لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (بيروت - دار الكتاب العربي ١٩٢٥) .

٦٧- عيون الأنباء في طبقات الأطباء لموفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا (بيروت - دار مكتبة الحياة ١٩٦٥)

(ف)

٦٨- الفخرى في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية لابن الطقطقى . القاهرة - المطبة الرحمانية ١٣٤٠هـ) .

٦٩- الفهرست لابن النديم (بيروت دار المعرفة للطباعة والنشر ١٩٧٨).

٧٠- فوات الوفيات والذيل عليها للأستاذ محمد بن شاكر الكتبي (بيروت - دار الثقافة ١٩٧٣) .

(ك)

٧١- الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت - مكتبة المعارف) .

٧٢- الكامل في التاريخ للشيخ العلامة عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير (بيروت - دار صادر ١٩٧٩) .

٧٣- الكشكول لبهاء الدين محمد بن حسين العاملي (القاهرة - المطبعة الكبرى الابراهيمية ١٢٨٨هـ) .

(ل)

٧٤- لباب الأداب للأمير أسامة بن منقذ تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر (القاهرة - المطبعة الرحمانية ١٩٣٥) .

(م)

٧٥- مآثر الإنافة في معالم الخلافة لأحمد بن عبد الله القلقشندي تحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فراج سلسلة تصدرها وزارة الإرشاد والأنباء بالكويت .

٧٦- المحاسن والأضداد لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (القاهرة - طبع الدار القومية للطباعة والنشر - سلسلة كتب ثقافية من التراث القديم - العدد ٤) .

٧٧- المحاسن والمساوئ لإبراهيم بن محمد البيهقي تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة - مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ١٩٦١) .

٧٨- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء لأبي القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني (بيروت - دار مكتبة الحياة ١٩٦١) .

٧٩- محاضرة الإبرار ومسامرة الأخيار فى الأدبيات والنوادر والأخبار لمحيى الدين بن عربى (القاهرة - مطبعة شعراوى رضوان سنة ١٢٨٢ هـ) .

٨٠- مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى للأستاذ سيد أمير على (القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨) .

٨١- المخلاه لبهاء الدين محمد بن حسن العاملى (القاهرة - المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ) .

٨٢- مرآة الجنان وعبرة اليقظان للإمام أبى محمد عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان عفيف الدين اليافعى اليمنى (الطبعة الأولى - طبع دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن سنة ١٣٣٧)

٨٣- مروج الذهب ومعادن الجوهر للرحالة الكبير والمؤرخ الجليل أبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى (بيروت - دار الأندلس للطباعة والنشر - الطبعة الثانية ١٩٧٣) .

٨٤- المستطرف فى كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد أبى الفتح الأبشيهى (القاهرة - المكتبة التجارية الكبرى ١٣٠٨هـ) .

٨٥- المعارف لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة تحقيق الدكتور ثروت عكاشة (القاهرة - دار المعارف - الطبعة الثانية ١٩٦٩) .

٨٦- معاهد التنصيص لبعد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباسى (القاهرة - دار الطباعة المصرية ١٢٧٤ هـ) .

٨٧- معجم الأدباء لياقوت (بيروت - دار المستشرق - الطبعة الثانية ١٩٢٢).

٨٨- معجم الشعراء لأبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني تحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فراج (القاهرة - عيسى البابي الحلبي ١٩٦٠) .

٨٩- مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر (بيروت - دار المعرفة للطباعة والنشر) .

٩٠- مقدمة ابن خلدون (بيروت - دار إحياء التراث العربي - الطبعة الرابعة).

٩١- مناقب الإمام الشافعي للشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي (القاهرة - المكتبة العلامية ١٢٧٩) .

٩٢- الموشح للمرزباني تحقيق الأستاذ علي محمد البجاوي (القاهرة - دار نهضة مصر ١٩٦٥) .

٩٣- الموشى أو الظرف والظرفاء لأبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء تحقيق الأستاذ كمال مصطفى (القاهرة - مكتبة الخانجي - الطبعة الثانية ١٩٥٣) .

(ن)

٩٤- النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس لأبي الخطاب عمر بن الشيخ الإمام أبي علي حسن بن علي سبط الإمام أبي البسام الفاطمي المعروف بذي النسبين دحية والحسين صححه وعلق عليه الأستاذ عباس العزاوي (بغداد - مطبعة المعارف ١٩٤٦) .

٩٥- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى (القاهرة - مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩) .

٩٦- نزعة الألباء فى طبقات الأدباء لأبى البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنبارى تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة - دار نهضة مصر ١٩٦٧) .

٩٧- نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب للشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى حققه الدكتور إحسان عباس (بيروت - دار صادر ١٩٦٨) .

٩٨- نهاية الأرب فى فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى (القاهرة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨) .

٩٩- نور القبس للمرزبانى اختصار أبى المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود الحافظ اليغمورى حققه رودلف زلهايم (فرانكفورت - دار النشر فرانتش شتايز ١٩٦٤) .

(هـ)

١٠٠- هارون الرشيد للأستاذ أحمد أمين (القاهرة - دار الهلال - العدد الثالث - ١٩٥١) .

١٠١ - هرون الرشيد لعبد الله فلبى تعريب الأستاذ عبد الفتاح السرنجاوى (القاهرة - جمعية الثقافة الإسلامية إبريل ١٩٤٨) .

١٠٢- هرون الرشيد للأستاذ عمر أبو النصر (بيروت - المكتبة الأهلية - الطبعة الأولى ١٩٣٤) .

١٠٣- هارون الرشيد لمحمد صبيح عبد القادر : سلسلة تصدرها الثقافة العامة (القاهرة - العدد السادس من كتاب الشهر ١٩٣٩)

(و)

١٠٤-الورقة لابن الجراح تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام والأستاذ عبد الستار فراج (القاهرة - دار المعارف - ١٩٥٣) .

١٠٥- الوزراء والكتاب للجهشياري حققه ووضع فهارسه الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة - مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الأولى ١٩٣٨) .

١٠٦- وفيات الأعيان لابن خلكان حققه الدكتور إحسان عباس (بيروت - دار الثقافة ١٩٦٨) .

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
الإهداء	
شكر وتقدير	١
مقدمة	٩-١٤
تمهيد	١٠-١٥
الفصل الأول : الجانب السياسي لصورة الرشيد .	١٦-٩٩
أولاً : إدراته للبلاد	١٧
ثانياً : موقفه من شيعة عليّ .	٣٦
ثالثاً : نكبته للبرامكة .	٥٣
رابعاً : صولاته العسكرية .	٩٠
الفصل الثاني : الجانب الاجتماعي لصورة الرشيد .	١٠٠-١٦١
أولاً : الرشيد والمرأة .	١٠١
ثانياً : الرشيد والغناء .	١٢٩
الفصل الثالث : الجانب الثقافي لصورة الرشيد .	١٦٢-٢١٦
أولاً : الرشيد والشعر .	١٦٣
ثانياً : الرشيد ومجالس العلم .	٢٠٤
الفصل الرابع : الجانب الديني لصورة الرشيد .	٢١٧-٢٥٩
أولاً : الرشيد حاكماً دينياً .	٢١٨
ثانياً : صور إسلامية في حياته .	٢٣٩
الخاتمة .	٢٦٠
المراجع .	٢٦٦
الفهرس .	٢٨٢

رقم الإيداع ٩٩/٤٧٩٣

الترقيم الدولى 977-19-8461-6